غائب طعمة فرمان

الاعمال الكاملة

١

النخلة و الجيران

الفارابي

دار بابل

النخلة و الجيران

الأعمال الكاملة ١

الأعمال الكاملة ١

الكتاب النخلة والجيران

الناشر دار الفارابي / دار بابل

الطبعة الأولى ١٩٨٨

تصميم الغلاف يحيي الشيخ / انتشال كاظم

غائب طعمة فرمان

الاعمال الكاملة

١

النخلة والجيران

الفارابي
دار بابل

الى ذكرى أبي . . .

غائب

رواية عن الأمس . . رواية عن اليوم

بعـد سنين طويلة تجد «النخلة والجيران» طبعة جديدة. لكأن مصير هذه الـرواية مرآة صقيلة لمصير كل ما لا يأتلف مع عصر التفكك الذي نعيش. فقد ظهرت الرواية، وارتفع صوتها، وعرفها القارىء العراقي، وسمع بها قارىء عربي. لكن هذا لم يمنع عنها شيئاً قريباً من الحصار، فظلت الرواية حاضرة باسمها، غائبة عن قارىء هنـا وقارىء هناك، حتى ظن القارىء الوطني أن «النخلة والجيران» شاركت كاتبها منفاه البعيد، مثلما ظنّ، وظنه صادق، ان الكتابة النقدية المسيطرة، ومعاييرها انتقاء، تضاعف نفي الرواية، فلا تذكرها الا صدفة أو في هامش الكلام.

لا تبحث «النخلة والجيران» عن شهادة كاتب أو صك غفران، فما هي جديرة به يقوم في سطورها، وسطورها لا تستعير المديح. تحتل هذه الرواية موقعاً رياديا في الـرواية العـراقية. ومكـانـاً طليعياً في الرواية العربية، وهي احدى الروايات القليلة، الجـديرة بصفة الواقعية، على الرغم من انتشار هذه الصفة في الامس واليوم. فكأن رواية غائب كانت علامة في مسار الرواية العراقية بقدر ما كانت علامة في تطور الرواية العربية الباحثة عن الواقع.

ترسم الـرواية مصـائـر مجموعة بشرية بائسة تعيش على هامش التاريخ. فيوازي رأيها التاريخ ولا يتقاطع معه، يعيش فيه ولا يعيش معه، فيتكوّن الوعي في التاريخ ولا يفعل في التاريخ، ويكون مصيره مأساوياً. تأخذ المأساة وجهاً مضاعفاً في مصائر بشر «النخلة والجيران»، ويكون بؤس الوعي هو الوجه الاول، ويظهر وجـه المـأساة الثاني في استقالة صاحب الوعي من كل فعل صحيح، ومن كل مواجهـة تعيد صياغـة الوعي والتاريخ. لا يعرف الوعي البائس هزيمة جزئية في معركته مع العالم الذي يعيش، بل يعيش الهزيمة الكلية في هروبه الكامل من كل معركة جزئية أو كاملة.

تنفتح الـرواية على «سليمة الخبازة»، امرأة من تعب وحزن وحرمان، وتلتقط تفـاصيلهـا المقهورة، فالجفن غليظ والعين كليلة، أكلت منهما نيران الموقد شيئاً، والثوب اسـود سميك، وغبـار الايام ينفش العين والثوب وجـدران الغـرفـة الحـائلة. وكي تؤكد الرواية ملامح المرأة، تضع الى جانبها نخلة، عاقر هي وقميئة، فتكون النخلة مراة لمن يقف الى جانبهـا بقـدر ما تكون المرأة التعبة مرآة لنخلة عاقر. امرأة ونخلة يودّعـان زمناً ويستقبلان الفراغ، أو يودعان زمناً لا ينفتح الا على الفراغ: «رأت امامها نخلتها القميئة تبرك قرب الحائط وسط دائرة سوداء، نخلة مهجورة عاقر مثلها تعيش معها في هذا البيت الكبير خرساء صماء، تتحمل كل المياه القذرة التي تلقى في حوضها، ويمر الصيف والشتاء دون ان تحمل طلعاً، أو تخضر لها سعفة». امرأة ونخلة وعقم مشترك، وزمان لا جديد فيه، فان دار أكدّ العقم المعلن، واعلن ان دورة العقم مأساة لا تحتاج الى برهان.

منذ السطور الاولى تقود الرواية القارىء الى مناخ المأساة، فالنخلة قميئة مهجـورة تعيش خارج الزمان، ومن يقف خارج الزمان يموت، أو يسير الى مدار الموت ولا يدري. والبيت غلاف النخلة، اي مقبرتها، حوش قديم يسبّح بالموت والنسيان، ان تنبهت له الذاكرة، جاء فعلها هدماً، فالبيت القديم يُذكر حين تقوّض جدرانه. وتسير الرواية، وتُكاثر الشخصيات، فنرى فقيراً يحلم بحصان، وفاشلاً فقيراً يختلس فقيراً آخر، وبائسة شريدة ثمنها برتقالة، وصبياً يدخل الى عالم الرجال من باب الجـريمـة، ونساء عجائز كالاشياء، ونرى المكان بطلاً، ونقرأ تفاصيل الشوارع والحواري وجزءاً من دورة الفصول، ونلقى فقير بغداد والفقر في بغداد وعطن الاماكن الرطبة.

تتكاثر الشخصيات في الرواية، وقد تظن الشخصيات افراداً، والفرد يتميّز، لكننا نكتشف، بعد القراءة، أننا لم تغادر النخلة ـ المرأة أبداً، وان الافراد، رغم سماتهم، لم يكونوا افراداً، لانهم وجوه عديدة لكائن بائس لا يحتمل التكاثر. فكما تكـون النخلة مرآة للمـرأة الخبازة، تكون المرأة الخبازة صورة لكل المخلوقات البائسة المحيطة بها. لا يتمايز الانسان الا بوعيه عن غيره، فان تماثل الوعي البائس وتسـاوى، تمـاثلت الوجوه رغم اسمائها المختلفة، واخذ البشر شكل المجموع المبهم، الذي لا يسمح بوجود الفرد الواضح الفعل والسمات، اي الذي لا يعطي فردية واعية.

بشر على هامش التاريخ، ووعي انتجه التاريخ الراكد هامشياً. تقف «النخلة والجيران»، وتنبني في حقل وعي تاريخي متقدم على زمانه، يعرف معنى الرواية ودلالة الموضوع الروائي، وينتج معرفة روائية تلتقي، في موضوعيتها، مع المعرفة الموضوعية. وهذا اللقاء بين المعرفة التي تفضي اليها الرواية والمعرفة التي يقولها تاريخ المجتمع في حركته الموضوعية، هو الذي يعطي عمل غائب طعمة فرمان سماته الروائية كلها، ويجعل منه عملاً واقعياً بامتياز.

تدور الرواية في بغداد، في احياء صفتها الاولى الفقر الشامل، أما زمن الرواية فهو الحرب الكونية الثانية، سنواتها الاخيرة، وزمن الاستعمار البريطاني والمواجهة بين الفاشية واعداء الفاشية في العالم. تتكىء الرواية على مشهد تاريخي واسع، يلتقي فيه المواطن الفقير بعدو يتجول في شوارع مدينته ويلوّثها، ويسمع فيه الفقير، أو لا يسمع، باحداث تعيد صياغة العالم. يضيء المشهد التاريخي الشخصيات من جديد، يكشف عريها الشامل، ويشير الى مساحتها الضيقة، التي تجاور المشهد التاريخي العريض، ولا تتقاطع معه الا في صدفة حزينة، فكأن بين المشهد الانساني الواسع وجزر الفقراء التائهة قطيعة أو شيئاً يقترب من القطيعة.

في هذا الزمن التاريخي الذي يعصف بالعالم، ويبني ملامح العالم من جديد، تقف شخصيات «النخلة والجيران» مكسورة، تتفكك في حركة عجز دائرية أو تدور في حركة عاجزة قوامها التفكك، تتلمس الاشياء ولا تدرك حركتها فتكون جزءاً من حركة الاشياء. تنفلق سليمة على احزانها الابدية، تعبت من تراكم التعب ولسعة النار والنهوض فجراً، فان وجدت طريقاً جديداً في الحياة فان تجربتها الضيقة لا تلقي بها الا بين اظافر مصطفى الحالم بنجاح وحيد في حياة مسارها الفشل. يفتش مصطفى عن النجاح في تسويق مهربات انجليزية قليلة، فيأخذ نقود الخبازة ويعطيها الاوهام، ويقنع نفسه ان الاستعمار الانجليزي ابدي. حسين الصغير يعيش الحياة غريزة، ويتكىء على موروث والده القتيل، فينتهي قاتلاً بريئاً، وتماضر يخنقها البيت القديم في عاداته القديمة، فان بحثت عن بديل زاد اختناقها وتضاعف. . .

مخلوقات جديرة بالرثاء لا اكثر، وشروط حياتها متشابهة الى درجة التطابق، فتكون اقنعة متحركة كاملة لهذه الشروط. ولان المخلوقات اقنعة للاشياء، فانها

تتداخل في الاشياء الى حدود الاختلاط، وانسان الغريزة لا يعلو عن الاشياء الا قليلاً. ان هذا الاختلاط يجعل شخصيات الرواية كلها محكومة ببنية واحدة، ويمنع عنها اي اختلاف أو تفارق حقيقي. شخصيات متعددة مختلفة الوجوه والاسماء، لكن هذا الاختلاف الظاهري لا يلغي، ولا يستطيع ان يلغي، تماثل مضامين الشخصيات، وتطابق بنياتها. وهذا ما يجعل الشخصيات اقنعة متماثلة لشرط اجتماعي لا يعطي التميّز أو الفردية، بل يعطي تطابق البداية والمسار والمصائر. وتستطيع قراءة الرواية ان تردّ، بلا التباس، الشخصيات ـ الاقنعة الى نموذجها الوحيد، حيث تبدو تماضر صورة كاملة عن سليمة، وتبرهن سليمة انها نسخة اخرى عن نشمية، وتبرهن هذه أو تلك انها مرآة لحسين. ونجد ان مصطفى النابت في حقل الخسارة يساوي عمران الذي يعمل في حقل برتقال، فكلاهما يغوي الآخرين بأشياء بسيطة تستثير الشفقة. مخلوقات مهزومة، اذا تساندت هزم كل منها الآخر، اي اضاف هزيمته الى هزيمة الانسان الذي يسنده: يؤكد حسين في علاقته مع تماضر هزيمتها، ويكرس في علاقته مع سليمة بؤسها، ويعيد مصطفى تأكيد بؤس سليمة، ويضاعف عمران هزيمة نشمية، ويقتل «ابن الحولة» «صاحب» مؤجر الدراجات، ويقتل حسين قاتل مؤجر الدراجات.... مسلسل من البؤس بابه الاول الانسان الكلي الفقر وبابه الاخير التاريخ الذي يعلن هزيمة الكائنات البائسة.

تتحرك الشخصيات على مسرح الفقر الكلي، أو تبني الرواية شخصياتها بشكل يكشف عن معنى الفقر الكلي: يحل الفقير قضاياه بشكل فقير كما يجد السؤال البائس اجابة اكثر بؤساً. تبحث تماضر عن فرحها المفقود عند حسين الذي لا يعرف معنى الفرح اصلاً. أما مصطفى فيكشف عن فقر الجسد والفكر والروح والمعايير حين يقول: «أوف سليمة، لتصيرين اقسى من الانجليز». نقرأ في جملة مصطفى غشاشة الوعي وتهالك البصيرة، يشكو سليمة لانها تطالب بأشيائها الصغيرة، ويشكو الاحتلال لانه رحل، أو يمكن ان يرحل، ويرى في الاحتلال نعمة وارضاً مباركة يزرع فيها احلامه الخاسرة. يبحث العاجز عن حل وهمي لمشاكله الحقيقية، فيرى حسين الحل في بيع الحوش القديم، وتماضر في البرتقالة المهينة، ونشمية في بيع جمال البنت التائهة، ومصطفى في نقود الخبازة القليلة. كلٌ يبحث عن حله الذاتي الفردي الذي يلغي وجود غيره، ويأتي الحل

في شكل الانحلال والتفكك وتبادل القتل والانهيار. ولهذا لا يقتل «ابن الحولة» الانجليزي الذي يبول في شوارع بغداد بل يقتل مؤجر الدراجات المسكين.

ان اقتراب البشر من الاشياء يجعل الاشياء في الرواية جزءاً داخلياً فيها، يصبح المكان بطلاً، شخصية في الرواية، وتكون الشوارع والحارات الرطبة والازقة العطنة والمقاهي القذرة مرآة للنفوس الفقيرة. وبقدر ما يكون الفقر الكلي اشارة تفضح شرطه الاجتماعي، تكون الامكنة اشارة تعلن عن هوية من فيها. يشكّل المكان في رواية غائب طعمة فرمان عنصراً داخلياً في العلاقات الروائية، أو عنصراً محايثاً لها. لا تتحرك الشخصيات فوقه، انما تنمو فيه، وتظل به لصيقة الى حدود الاندماج. ولانها تغوص في المكان، ولا تعلو فوقه، تكون عاجزة عن ادراك معنى المكان الاجتماعي، وتنهدم معه، دون ان تكون قادرة على السيطرة عليه واعادة بنائه. ان غوص الشخصيات في المكان، وذوبانها فيه، يجعل الوعي لا يتجاوز حدود المكان المباشر وحدود التجربة اليومية الفقيرة التي تدور فيه. وتعتبر جملة مصطفى المذكورة صورة كاملة للوعي الفقير الذي يرى الاشياء، ويعيشها بغريزته، والغريزة تجهل تماماً دلالة السببية الاجتماعية التي تستلزم شكلاً من الوعي مختلفاً.

في وحدة الوعي والمكان، يكون زمن الوعي هو زمن المكان المباشر. وهذا الوعي اليومي الفقير لا يستطيع ان يكسر حدوده، فيظل غريباً عن كل وعي تاريخي يتجاوز مساحة النهار. لا يستطيع الوعي اليومي ان يدرك سبب دماره الذاتي، الا اذا انفتح على التجربة التاريخية، وتحرّر من زمانه الضيق، اي اذا اقام علاقة صحيحة بين الزمن الاجتماعي المعاش والزمن الكوني الشامل. وحين يتحقق ذلك لا يرى مصطفى في بضائع الاستعمار المهربة منقذاً وملاذاً وملجأ. لكن هذا الافتراض، كما تبرهن الرواية، لا اساس له، فالفقر الشامل يعيّن الرغيف ونوع العمل وشكل العلاقات بين البشر. تقول الرواية: «وفي الشارع العريض كانت الجواميس تعدو عائدة من دجلة الى حي المعدان حيث يقاسمها الناس حظائرها. لطخات سوداء في لوحة مساء داخن يزفر رائحة دهن محروق، وماء آسن تلهث به ارض طينية، ونكهات اطعمة ممزوجة برائحة رماد ساخن ونفط لم يحترق بعد».
نقرأ في هذا القول ملامح وضع انساني مهزوم بقدر ما نقرأ ملامح وضع انساني آخر جعل الجندي البريطاني يبول في شوارع بغداد، لكأن معنى الصورة يرسم حاضراً

قائماً وحاضراً غائباً نقيضاً له ومختلفاً عنه، فالحاضر الانجليزي لا يحتضن لطخات سوداء تختلط فيها الحيوانات بالبشر.

بشـر في قلب البؤس وعلى هامش التاريخ، ونمط وجودهم اليومي يجعل من الهامش المذكور مركزهم الحقيقي. فهم، رغم النوايا والرغبات، يتوزعون بين البطالة والبطالة المقنعة. العربنجي ومؤجر الدراجات والمهرّب والعامل الموسمي وحارس الحقل والنادل والمزارع الجاهل.... ان رثاثة الوعي تجاور رثاثة العمل دائماً، فينفلق الوعي على ذاته حالماً بحل فردي لا وجود له. ولهذا يكون طبيعياً ان تهرب شخصيات «النخلة والجيران» من بؤس الارض الى سماء الاوهام، تعلق عجزها على حبال الرغبة والانتظار، وتسكب الماء على اعشاب الفقر حتى تستوي شجراً باسقاً هالكاً. كل له حلمه يجتره في ساعات الانتظار والبطالة المقنعة. تحلم سليمة بذهب يأتيها به خائب أبدي، وتماضر بـ «سلطان يتدفأ بحرق الياقوت»، ويتمـاثـل حسين ببـطولة جذرها العجز المتوارث. تتساوى الشخصيات في لعبة العجـز/ الحلم، أو الاحلام ـ الاوهام. ولذلك فان سليمة، الاكثر نبلاً بالمعنى الاخلاقي، لا تستفيد من عملها الضيق شيئاً، فتستند على رجل بحاجة لمن يسنده.

إن ما يجعل «النخلة والجيران» رواية واقعية، بالمعنى الصحيح للكلمة، هو ادراكها العميق لمعنى التاريخ الحقيقي، الذي لا يُقرأ في ظواهر الاشياء أو في ثنايا الارادة الطيبة، بل في مستوى تطور العلاقات الاجتماعية، الذي يصوغ البشر فكراً وارادة وسلوكاً. ولهذا تبدأ الرواية وتنتهي وفقاً لايقاع محكوم بزمنين او اكثر: الزمن الاول هو زمن البنية الاجتمـاعية الـذي يتراءى في ملامح البيئة الضيقة ومستوى الوعي الاجتماعي وشكل العلاقات البشرية. زمن متوارث بالغ القدم لا تهزه الحركة الاجتمـاعية الا قليلاً. وهـذا الزمن الصامت، هو الاكثر نطقاً والافصح بياناً في سطور الرواية. الزمن الثاني هو زمن وعي التجربة اليومية، زمن قاصر بسيط يتعامل مع يومه ويدرك معناه، فيتغيّر بتغير الايام ولا يعرف التراكم. لا يحسن هذا الوعي التعـامـل مع اليومي لانه يجهل التاريخ، ولانه كذلك يهرب من يوميته ومن زمنه اليومي الى زمن اثيري لا علاقة له بالواقع الفعلي.

بين زمن التاريخ وزمن الوعي ترسم «النخلة والجيران» مأساة كاملة. ومع ان الرواية تحكي مأساة بشر حقيقيين، وتلتقط المأساوي الواضح في مصائر تحمل

مأساتها فيها، وتروي نطق الجسد وحركة اليد وتلعثم العقل وبكاء الشخصية الخاسرة، فان المأساة الحقيقية لا تنبع من مسارات الافراد بل من الصدام المدوّي بين زمنين مختلفين يتحرك فوقهما الافراد، فتكون هزيمة الافراد نتيجة بديهية لهزيمة زمن امام آخر. في هذه الحدود تقف رواية غائب الى جانب افضل الروايات العربية، التي عالجت مأساة الوعي الوهمي في علاقته بالتاريخ الحقيقي، مثل: ثرثرة فوق النيل، رجال في الشمس، الف عام وعام من الحنين. . . .

تأخذ الشخصيات في «النخلة والجيران» شكل القناع، فهي قناع شرطها الاجتماعي كما هزائمها الذاتية قناع لهزيمة اخرى. كل علاقة تقف وتتحرك وتشير الى ما هو محتجب، فان تكشّف ظهر القناع هامشياً واشارة. ترسم الرواية الشخصيات ـ القناع ولا تقع في غواية التجريد اللامحدود، الذي يحيل العلاقات المشخصة الى افكار، او الذي يظن في لحظة وهم عامرة ان الافكار المجردة تساوي العلاقات المشخصة. تظل الشخصيات حيّة ناطقة لها حضورها الواضح في اللغة والحركة والفعل اليومي والمقاصد الذابلة. مع ذلك فنحن لا نعثر بين هذه الشخصيات على شخصية ـ نموذج، تكون ما هي عليه وتكون غيرها ايضاً، فكل الشخصيات متناظرة ومتساوية. لكن الشخصية ـ النموذج لا تلبث ان تستعلن اذا نظرنا الى الشخصيات مجتمعة، مجموع الشخصيات في الرواية هو النموذج الاجتماعي الذي يشير الى شرط اجتماعي محدّد. ولان مجموع الشخصيات تكّون نموذجاً فان الشخصيات تأخذ شكل الاقنعة المتماثلة، اي شكل الواحد المتعدّد، والذي مهما تكاثر لا يغادر حدود الواحد الاول. وقد نسأل: لماذا رسم الروائي شخصيات متعددة اذا كانت متماثلة ومتساوية في المعنى؟ وما الحاجة الى وجوه عديدة اذا كانت كل الوجوه قناعاً؟ ان تكاثر الشخصيات في «النخلة والجيران» ضرورة فنية داخلية اذ لا يمكن اظهار معنى الشخصية ـ القناع الا بواسطة جملة من الشخصيات ـ الاقنعة. لا تظهر العلاقة واضحة الا في مرآة العلاقات الاخرى، اي ان الشخصية الروائية لا تتحدّد بذاتها او بشرطها الاجتماعي بقدر ما تتحدّد في جملة العلاقات التي تربطها بشخصيات اخرى، وفي جملة العلاقات التي تربط هذه الشخصيات بالشرط الاجتماعي. ولهذا لا تُقرأ الشخصيات الا في علاقاتها المتبادلة والمتعددة. في الشخصية المتعددة في احاديتها نلمس البناء الحقيقي لرواية غائب طعمة فرمان: لا تتمايز الشخصيات في الشرط الاجتماعي الفقير الا

قليلاً، ولا يمنع تمايزها المحدود، أو الظاهري، عن ردها الى نموذج اجتماعي واحد. تستلزم تعددية النماذج شرطاً اجتماعياً محدداً في ارتقائه التاريخي، يعلن في ارتقائه عن طبقات اجتماعية متمايزة وعن حضور سياسي فاعل لهذه الطبقات. تصبح الشخصية نموذجاً حين تختلف عن غيرها في السمات الفكرية والانتماء الاجتماعي ومنظور العالم والمصير التاريخي واشكال الممارسة. ويكون النموذج هذا مرآة لقوة اجتماعية انتجته، فالنموذج لا يحيل الى افراد، بل الى قوى اجتماعية تتجاوز الافراد.

اذا عدنا بعد هذه التحديدات الى سؤال الرواية الاساسي، والوعي والتاريخ هو بدء الرواية ونهايتها، نقف من جديد، وبشكل جديد، امام الزمن التاريخي في شكليه الداخلي والكوني: يقوم الزمن الاول في علاقة الوعي بالواقع الاجتماعي الذي يعيش، زمن داخلي يتحدّد بمستويات الواقع الاجتماعي المختلفة. تكشف الرواية عن بؤس الوعي امام واقعه، يتحرك الواقع ولا يستطيع الوعي ان يتملك حركته، فتأخذ حركة الواقع شكل التحوّل، الذي يحتمل التراجع أو التفكك. في هذه الاشارة تؤكد «النخلة والجيران» صفتها الواقعية من جديد، فهي ترى افق المجتمع من خلال حركته الموضوعية، ولا تعطي الحركة زيادة أو نقصاناً. أما الزمن الثاني فيتحدّد في علاقة زمن الواقع الداخلي بالزمن الكوني الذي يرتسم فيه الاستعمار البريطاني. بين زمن الاستعمار وزمن الواقع الفقير مسافة، حدها الاول زمن جعل الاستعمار ممكناً وحدها الثاني زمن جعل الانسان المستعمَر (بفتح الميم) يقتل نفسه ولا يقتل من استعمره. في علاقة الزمن الاول بالزمن الثاني نرى المجتمع يتراجع، بالمعنى التاريخي للكلمة، أو نراه يضاعف تراجعه. ينفلق المجتمع على زمانه الداخلي فتكون حركته هي حركة تقهقره عن الزمن الكوني.

مثل كل رواية واقعية، جديرة بصفة الواقعية، ترسم «النخلة والجيران» الواقع الاجتماعي من وجهة نظر البنية الاجتماعية، فتأخذ بمفهوم التحوّل الاجتماعي وتنكر كل مفهوم مبتسر، او اخلاقي، للصراع بين جديد وهمي وقديم يُكاثره الوهم ايضاً. ترسم الرواية وضوح القديم والتباس ما يأخذ مكانه، فنرى ما ينهار ولا نرى ما يولد. تقول الرواية عن المكان الذي تحرك فوقه شخصياتها: «قطعة من الارض مستطيلة مسورة بصفائح مضلعة متآكلة مكتسية بلون الحناء، مثقوبة بثقوب مجهولة الاصل». يظهر القديم عارياً متآكلاً قريباً من السقوط، وقد يسقط ويتلوه قديم

جديد، فشكل الهدم والبناء لا ينعزل عن الوعي المسيطر. في هذا المدار نعثر من جديد على دلالة «البروليتاريا الرثة» التي تعمر رموزها عالم الرواية. وقد يقال: ان حضور «الرثّ» لا يأمر بغياب من كان له نقيض، لكن النقيض المفترض يمر في سطور الرواية سريعاً وشبيهاً بالغياب. ان بناء علاقات الرواية على حضور الرث وغياب النقيض يعني ان الرواية تبني صورة مجتمع ولا تنفلق في مقطع اجتماعي فقير ومعزول وجزئي الدلالة. بمعنى آخر: «النخلة والجيران» رواية عن مجتمع، أو رواية مجتمع يعطي ملامحه من خلال مقطع اجتماعي صغير. رواية عن سطوة القديم الذي يحكم قبضته على اركان المجتمع، فاذا تراخت القبضة، ولمع الجديد، استجمع القديم قوته وخنق ما لمع، واعلن ان الجديد لمحة في مخاض عسير. بهذا المعنى، يكون مكان الرواية فضاءً روائياً ومجازاً روائياً.

«النخلة والجيران» رواية عن التاريخ والمكان، ولا رواية بلا تاريخ، ولا تاريخ بلا مكان، ولا مكان بلا بشر وعادات وتقاليد وحارات ذات لون وصوت ورائحة. رواية عن المكان والمناخ، ترفع المكان الى مقام المقولة الجمالية، وتجبر القارىء على القبول بمقولة «المناخ الاجتماعي»، حتى اذا كانت هذه المقولة، لدى البعض، غائمة وملتبسة. لا يمكن عزل رواية غائب عن مكانها، عن شوارعها الموحلة، وحواريها التي يختلط فيها الماء بالغبار وبدهن محروق، عن بيوتها الرطبة التي تحتضن قاع المجتمع بحنان اقرب الى المذلّة، وعن مقاهيها التي تجمع النفوس المتعبة والروائح الحرفة والآمال الخسارة. رواية ينطق فيها المكان بقدر ما ينطق فيها البشر، وتتنفس فيها الحواري بقدر ما تتنفس فيها خبازة عاثرة الحظ اسمها سليمة.

اذا كانت رواية الوهم تستجير بلغة قاموسية جاهزة، أو تخفي اوهامها وراء لغة تقريرية سكونية، فان رواية غائب تصنع اللغة وهي تبحث عن وجوه العلاقات، تطارد وجه الشيء، تفتش عن جوهره، تنقب عن حركته وعن ما يعطيه الدلالة، اي ان رواية غائب تنتج الواقع لغة، فيكون شكل اللغة هو شكل البحث عن واقع معقد ومتعدد المستويات، فللعامي مكانه، وللشفهي مكانه، وللنثر الجميل مكانه، وقد يعثر شبيه الشعر على مكانه ايضاً: «هذا دمه لم يغسل بعد. نظر اليه فلاح مثل قطعة ثياب تركها مسافر على عجل. احس به سميكاً حتى ليستطيع ان ينحني ويلتقطه».

رواية كُتبت قبل زمن، ومرّ زمن وذهب كاتبها الى المنفى، وظلت الرواية صحيحـة تشـهد على زمانها وعلى قولها الروائي الصحيح، والقول الصحيح لا يعكس زمنـاً ويغـرق فيه، ولا يكتب عن لحظة ويندثر معها، انما يعكس حقيقة موضـوعية تتجاوز زمنها، ويكتب عن مشهد لا يندثر في توالي الازمنة. «النخلة والجيران» رواية عن الامس بقدر ما هي رواية عن اليوم، فقد يختلط الامس باليوم حتى الذوبان.

فيصل درّاج

قبل أن تغرب الشمس سمع الجيران صوتها.
قالت اسومة العرجة،
- الفرج خاتونة المحلة
وقال حمادي العربنجي في الطولة المجاورة لبيتها،
- عبخانة.. خوب مو عبخانة!
وقال حسين وهو على بعد خطوتين منها،
- انت يومية معذبتني.. مو دا احلف لچ بالعباس.
فقالت وهي تخلع ثوب الخبز الاسود،
- لعد وين راحت الفلوس عيني؟.. وين؟
- اش مدريني! هذا بنطلوني وتعالي دوريه.
- هيچي تحسبني غشيمة؟.. الفلوس اللي تاخذها تخليها بجيب البنطلون.
- دوري وين ما تريدين.
- هيچي؟.. يعني بالموت لمّا احصل الطحين من التموين، وبعدين اشوف ايدي والگاع؟... اشو يومية اشتغل مثل المكينـة، والناس ماكلة أفّادي، خبز أسود خبز أسود.. عبالك آني طاحنة الطحين، وكل يوم اشوف نص الفلوس طايرة؟.. حسين مو حرام عليك؟
- طلعي حسچ بين الجوارين.
- خايف كلش.

ـ اسكتي .
ـ الدرهم اللي تاخذه كل يوم ما يكفيك. . . والمركَة والتمن اللي تتغدى بيها وتتعشى متشبعك.
ـ عابت ذيچي المركَة. . مركَة المكَادي.
ـ وعيني اش جابك عليّ؟ . . ابوك لما مات خلّاك وكيل علّي؟
ـ هذا الحوش ملكي.
ـ طيط! . . آني لي بيه حصة. . حكَي وثمني.
تهدج صوتها في الكلمتين الاخيرتين، ولكنها غالبت نفسها، وحبست العبرة في صدرها. ثم انفجرت قائلة في حرقة:
ـ هيچي حسين هيچي؟ هذا حَكَ السنين الستة اللي ربيتك بيها؟ . ، حَكَ السنين اللي كَضيتها بالخبز حتى اسويك هاالكبـر؟ . . روح خلف الله عليك.
ادار لها ظهره ومشى. راقبت قامته الميّالة الى القصر تبتعد عنها بتثاقل وبلا مبالاة. مشى عبر الحوش الطويل الى حجرته، وخلفها تتنزى غيظاً، مطعونة مدحورة، عاجزة لا تعرف كيف تصب ما في اعماقها الملتهبة في كلمات. ظلت في وجوم الخيبة دقائق افاقت بعدها على نفسها فوقع بصرها على الاجانات النحاسية الفارغة المثلومة الحواشي، والملطخة بالعجين الجاف. وحملتها الى النخلة القميئة، وصبت فيها الماء لتنقع. وذهبت الى الليوان لتنقل حزم الحطب الطرفة لتكسرها في الحوش وقوداً ليوم غد. كانت شمس اواخر التهار في اعلى برج الكنيسة ذوائب نحاسية. رمقتها بحسرة وطوّفت بصرها في جنبات البيت الكبير فرأت حصيرة الخوص في مكانها عند الحائط. ذهبت وتهاوت عليها ممدة ساقيها، ملقية رأسها على الحائط. واغمضت عينيها لحظات زافرة الهواء في عسر، وفكرت في نفسها «هالمرة يعيّرني بحوش ابوه. هاي آخرتها. ست سنين اشتغل واكسيه واطعمه. وبالآخر يريد يطلعني من الحوش. أوف! . . مرة الاب ماكولة مذمومة».
وتنهدت، وفتحت عينيها. رأت امامها نخلتها القميئة تبرك قرب الحائط وسط دائرة سوداء. نخلة مهجورة عاقر مثلها تعيش معها في هذا البيت الكبير خرساء صماء، تتحمل كل المياه القذرة التي تلقى في حوضها، ويمر الصيف والشتاء دون ان تحمل طلعاً أو تخضرّ لها سعفة.
رفعت رأسها في ضيق فرأته في عنق الليوان في حلته الليلية. قالت:

ـ ان شاء الله راح تجي نص الليل!
ـ إش وكت جيت نص الليل؟
ـ كل ليلة تجي وآني نايمة.
ـ واذا انت تنامين ساعة ثمانية؟
ـ روح ابو الدروب.
ـ والدرهم؟

زحفت نحو العباءة السوداء التي تركتها سهواً وتناولت درهماً من بين طياتها، ورمته عليه. فانحنى على الارض يلتقطه.

ـ الله يجازيج.

وسمعته يصفق الباب. واحتواها الليل والسكون والوحدة، نفس الكوابيس التي تهبط عليها كل مساء.

اغمضت عينيها ثانية. رأت خلف جفنيها الغليظتين كرات رصاصية تتطاير في ليل سخامي. فتحت عينيها في ذعر. ونهضت لتوقد الفانوس النفطي، ووضعته على جاون مقلوب، وجلست تكسر الحطب قرب التنور. حطب البراري. رائحة طين نقي. سامراء وكربلاء والنجف. شمّت غباراً جافاً ذكرّها بغبار سيارة مندفعة في طريق مترب الى البعيد، وهي هنا حبيسة بيتها، تقضي النهار واقفة على التنور، وتسهر الليل في تحضير العجين، ولا تذهب ابعد من سوق الصدرية، ولا تشم غير رائحة الطولة. وهذه الاعواد من هناك رقيقة فوّاحة، بعضها يابس هش تكسّر في يسر، والبعض الآخر تلوّى على ركبتها كالخيزرانة ولم ينكسر. ظلت تعاركه حتى آذى ركبتها، فنهضت، ووضعت طرف العود تحت قدميها، ورفعت الطرف الثاني بيديهـا الاثنتين. وجاهدت ان تكسره، ولكنه لم ينكسر فألقته من يدها ضجرة، ورفعت عوداً آخر فكان رطباً مثله، وشعرت بعضلات يديها تتقلص ألماً، وتركت الحطب واستجارت بحصيرتها. وقالت لنفسها «كل الناس بالسطوح» وآني وحدي ألوب. العشا ما محضر، وايدي يابس عليها العجين، ورجليه حافية!.. واغمضت عينيها ثانية، واسترخت مستسلمة للنعاس طاف في رأسها مثل مويجات. وتذكرت الزورق الذي عبرت فيه الى سامراء ذات مرة. هدهدها في رفق على ماء رقراق رأت خلاله الحصى الملوّن الذي بدا لها قريباً لا يكلفها الا ان تغمس ذراعها في الماء وتلتقطه. كان الفصل صيفاً. نزلت من القطار، وصعدت الزورق معتمدة على ذراع

زوجها. وجلست في حذر. ثم ما لبث الزورق ان تهادى. فأغمضت عينيها في لذة خائفة، واستمتعت بقلبها يغوص في صدرها ويطلع، وفتحت عينيها على صوت يقول «شوفوا السمچ يلبط»! ولكنها لم تر السمك، بل رأت مواشير الضوء تحت الماء والحصى. وعجبت كيف تنفذ الشمس في الماء، وقالت «قادرعلى كل شيء قدير، ويگولون السمچ ليش عنده عيون» وزايلها خوفها وهي عند الجرف، ولم تشعر بعد بقلبها، بل بذلك الاسترخاء الحلو. ودت لو يعود بها الزورق. مشت على ارض هشة. وعبق الشاطىء برائحة خيار، وفاصولياء خضراء، وركبت السيارة الى سامراء.

كانت مسترسلة في حلمها حين خيل اليها انها تسمع طرقاً على الباب. فتحت عينيها وحملقت عبر سحابة من الظلمة نحو الباب البعيد على يسارها. انصتت وهي مسترخية لمّا تزل. كان الباب يطرق فعلاً. ودهشت. من النادر ان يطرق بابها انسان في الليل. وكان الطرق واضحاً ردّ عليه قلبها بدقات سريعة. فنهضت وحملت الفانوس الى الباب. وتريثت حتى سمعت الطرق مرة أخرى، ونداء غريباً.

ـ سليمة خاتون!

فتحت فمها خلف الباب، استغراباً وخوفاً، وارتبكت لا تعرف ماذا تقول له. مَنْ الذي ينعم عليها بهذا اللقب، ويأتيها في مثل هذا الوقت؟ كان القادم الجديد عنوداً واصل الطرق ومناداتها حتى خافت ان يسمع الجيران. قالت بصوت ضعيف:

ـ عيني.. منو انت؟

ـ سليمة خاتون، آني مصطفى.

مصطفى؟ حاولت ان تتذكر. بدا لها الاسم مألوفاً. ولكنها لم تستطع ان تعرفه بالضبط. والآن لا محيص من فتح الباب. ورأت ازاءها شبح رجل طويل القامة بادرها بقوله:

ـ الله يمسيچ بالخير.

ـ هلا.. عيني هلا

رفعت الفانوس قليلاً فكشف الضوء النحاسي عن هيئة الرجل كلها. افندي نحيل فوق رأسه الصغير سدارة، وفي يده مسبحة. لم يتركها تفكر، بل عاجلها

بالسؤال عن صحتها في ملاطفة، وكأنما يعرفها منذ زمن طويل، ثم قال معتذراً:
ـ سليمة خاتون ترى آني مقصّر!
ـ مقصر؟ قالت في صوت هامس
ـ إي والله مقصر. لكن ما تعرفين اش گد متألم. واحد اش يذكر؟ اللسان اللي مثل الشكر، لو القلب اللي مثل الجمار؟ الله يرحمك ابو حسين برحمته الواسعة.

نظرت في عينيه الصغيرتين، وحاولت ان تتذكره. وكأنه حدس ذلك فهز رأسه في لوعة.

ـ اذكر لما چنت أجي ويّه عليوي.. شلون مداراة!.. ويوم الاربعين؟ الآن تذكرت. ولولا الحياء لسألت. عيني مو انت مصطفى الدلال؟
ـ تصدگين بداحي باب خيبر؟ كلما امر من البيت گلبي ينعصر. ما اگدر اعاين عالباب.
ـ الله يسلّم گلبك. قالت في شيء من الاطمئنان، وارتخت يدها، وهي تحمل الفانوس فحوّلته الى اليد الاخرى. ومع تغير الضوء رأت رقبته، الطويلة الهزيلة وحنجرته الناتئة.

وعاد الرجل يقول.
ـ واحد إش ينسى
وهزّ رأسه ثانية، وأطرق صامتاً، فقالت له مندفعة بمجاملتها.
ـ تجي تگعد شوية؟.. انت مو غريب
ـ خمس دقائق ـ كانت على لسانه ـ تركت اصدقائي بالگهوة، وگلت أمر على ام حسين.

صحبته عبر الحوش، ووضعت الفانوس على التنور، وفرشت له مندراً على ظهر الجاون فجلس، وبركت هي على بعد خطوات منه، ملفوفة بعباءتها الصوفية. وبعد ان استقر في جلسته سألها.

ـ وصحتچ اشلونها؟
ـ الله يسلم صحتك
ـ وحسين اشلونه، بعده بالمدرسة؟
ـ من زمان بطّل

ـ المدرسة متوكل خبز

ـ يراد لها چيس جبير

ـ حقيج ! . . والخبز اشلونه؟

ـ شالع گلبي

ـ أكيد . . صحيح

وصمت مديراً بصره في أرجاء البيت. كان الظلام يكتنفه من كل جانب إلا أنه قال:

ـ البيت بعده مثل ما كان!

ـ شيتغير منه؟

ـ لا ، قصدي تعمير ترميم!

ـ والويش؟ وال من؟ اشو حسين گاعد بحجرة تضم عيله ، وهاي الحجرة فارغة . . واش . .

وأمسكت لسانها قبل ان تتم جملتها مخافة ان تقول شيئاً غير لائق . وانكمشت في صمتها. وقال مصطفى مؤيداً

ـ ومن يستر يسوي شيء والدنيا حرب؟ وكل شيء بالنار

قالت:

ـ هي حرب لو بلاء أسود

ـ قال وهو يسبح بمسبحته:

ـ الحرب بلاء من الله

قالت باستسلامها الموروث:

ـ إرادته!

ـ معلوم ارادته. بس اشلون يذل من يشاء ، ويعز من يشاء؟ يفقر من يشاء ويُغني من يشاء. انت سامعه قول الصحابة: مصائب قوم عند قوم فوائد؟

لم تقل انها لم تسمع ، بل تطلعت اليه مستفهمة . في كلامه نفحة ايمان ، وشيء كثير يعز عليها فهمها . واستمعت اليه في حذر وهو يتابع قوله:

ـ الحرب شر وخير. شر هو هذا الغلاء الأسود، وصمون السجون ، والچاي والشكر والخام بالبطايق وميدري واحد اش وكت تجي قنبلة وتموته .

قالت في خوف:

ـ يا ساتر
ـ والخير للي عنده مخ
قالت :
ـ ومنين الواحد يجيب مخ ؟
ـ المخ موجود ـ سارع يقول ـ يعني قابل نشتريه بالبطايق؟
وضحك ضحكة الملالى ؛ قرقرة في الحنجرة وسكون في الجسم . واعتدلت في جلستها، ونظرت اليه بعينيها المنتفختين. ايقنت انها ستسمع شيئاً مفيداً. وادرك هو ذلك فصمت عن قصد. ومسح طرف فمه بسبابته، وقال جامعاً اصبعه الوسطى مع السبابة والابهام :
ـ اكو ناس عدهم قبضة مخ تشوفيهم يطلعون ذهب، تشوفيهم ميعرفون شيء إلا اشلون يطلعون فلوس،والدنيا ما بيها غير الفلوس. اللي عنده عانة ميسوه عشر فلوس.
قالت في حسرة :
ـ صدگ!
ـ وبعدين يجي الدين والشرف والاخلاق. المهم، الانسان لازم تكون عنده فلوس والناس تقوم له بالصلوات، وترش على دربه ماي ورد، وتسويه امام. . الله وكيليج تسويه امام، وتصير الناس كلها غلطانة وهو لا.
ـ هاي دنيانا
قال مصطفى في حدة وضيق :
ـ بس واحد يريد يعيش، يريد ياكل خبز
فتذكرت سليمة انها لم تستضفه. قالت :
ـ عيني ، اخدرلك چاي
لا ، أم حسين، ممنون . . هسه چنت بالگهوة
ـ الكتلي بالتنور، هسه على فوره
ـ الله يرحم ابوچ. الواحد يشرب خمسين استكان باليوم
ـ كلامك مقطوع بخير
فعاد الى حديثه :
ـ ناس تركض وتتعب وماكو شيء. وناس وين ما تدير وجهها دنانير

اكتفت بان هزت رأسها مصدقة. فنظر اليها لحظة ثم قال:
ـ يمكن انت من الناس تشتغلين وما تلحكَين
قالت مستغيثة
ـ كفيلك الله، من الصبح لليل.
ـ حقچ!.. والمريه للشغل؟
ـ لما اصعد للسطح اكون جنازه.
ـ الله يساعدچ. وعلى ويش؟ على لكَمة خبز؟ وناس گاعدة، وتجي لها الدنانير

حرّك اعضاءها المتعبة فقالت في عجب:
ـ عيني، هذوله ما ادري منين يجيبون الفلوس.
ابتدرها بصوت ممدود.
ـ يعـرفون شلون يشغلون دماغهم، والفلس اللي عدهم ما يذبوه بالشط، يجرون منه فلوس.. عقل!

ودس يده في جيبـه، واخـرج علبة سكائر قصديرية صدئة، وراح يلف له سيكارة مدلياً مسبحته من معصمه. ونظرت اليه صامتة. وبدا لها رجلاً رزيناً مملوءاً حكمة وورعاً بمسبحته الطويلة، وباطراقة المتهجدين، وبهذه الاقوال التي تنفذ الى قلبها غير المحصن. قال:
ـ والزمن د يتقدم! الانسان ها الايام وما عنده غير رجليه وايديه. الكهرباء والمكاين، هالايام، تخلي الانسان مرتاح ٢٤ قيراط... اذا كَدر، مثل ما يكَولون، يستعمل عقله.

تابعت حركـات شفتيه مسحـورة. ومصيبتهـا انهـا لا تعرف كيف يستعمل الانسان عقله.

ـ مقصـود الكـلام ـ تابـع قولـه، وهـو يشمّر يده اليسرى ذات المسبحة، والسيكارة بيده اليمنى ـ الدنيا يوم على يوم د تغير.. يعني بغداد زمن العصملي هي مثل بغداد هالزمان؟ وليش تروحين بعيد، من دخلوا الانكليز دخلتهم الاولانيه چان وره طولـة حاج احمد آغا بستان چبيره توصل للكراده. وهسه روحي شوفيها.. قصور وشوارع وميخانات وسينمات.

سمع صوت بائع فجل في الشارع، فتوقف عن الكلام. وقالت سليمة:

ـ هذا يا فجل، والناس كلها تعشت؟
اخرج مصطفى ساعته من جيبه، وفتح غطاءها ونظر فيها مميلاً بقرصها نحو التنور.
ـ ساعة تسعه إلا عشره. . نعسانه؟
قالت بصوت ناعس:
ـ لا، عيني، نوم الدجاج؟
صمت، وكأنه لم يسمعها. ثم بدأ بداية أخرى.
ـ أشو حسين ماكو؟ نايم؟
أهّت له.
ـ أها! يطلع من المغرب، وما يجي إلا نص الليل.
ـ دشوفي! قبل من چان يگدر يطلع بالليل؟ حتى يطلع له جني من طولة حاج أحمد آغا. چانت الناس تشيل بجيوبها مخايط للطنطل، والحراميه أكثر من الملايكه في بيت مسكون. وهسه، ما شاء الله، طفل ما يخاف يجي نص الليل. اشگد عمره محصن بالله؟
ـ نزول عليه، شمدريني؟ . . يمكن عشرين.
ـ يعني بعده صغير. . . سليمة خاتون الدنيا د تتغير، تركض ركض. ولازم واحد يلحگ بيها. . ابويه الله يرحمه ـ اراد ان يقول ابوچ الله يرحمها، فأبوه لم ير بغداد ـ چان يروح لسلمان باك على دابة. واليوم د يركبون سيارات، وطيارات، وباچر، من يدري اش راح يصير. يمكن يصعدون لسابع سما!
اهتزت لهذا الكفر، فقالت مستغفرة:
ـ اعوذ بالله. لا عيني، هذوله كفار.
ـ لا، سليمة خاتون، كل شي بارادة الله.
ـ ويصعدون لسابع سما؟
ـ اذا قبل الله يصعدون.
ـ قادر على كل شيء قدير.
ـ والناس تريد فايدته. يعني، الله يرحم ابوچ، اذا السيارة توصل للكاظم بنص ساعة ليش نركب عربانه توصل بساعتين؟ يعني اذا اكو كهرباء تخلي الليل نهار ليش نشعل شمعة؟ واذا اكو فرن يسوي صمون د يطلع مية صمونة كل ربع

ساعة، ليش الخبازة توكَف عالتنور، والدخان عامي عيونه، وهي كل ساعة تطلع عشر گرص؟

استنشق نفساً عميقاً من سيكارته، ونفثه من فتحتي انفه، وصمت طويلاً ليحرك لسانها. ولما رآها معتصمة بصمتها قال ثانية:

ـ الفرن كنز، خصوصاً بها الأيام السودة.

ومال برأسه نحوها، وخفض صوته ليهمس لها، وكأنما يذيع سراً لا يريد ان يسمعه الجيران.

ـ يعني، منعرف شلون يسوون الطحين؟ ربعه حنطة، والبقية شعير ودخن ونوى وتراب. والناس تاكل، وتعبي بطونها.. تعرف لو ما تاكل الصمون الاسود تموت من الجوع.

ونظر اليها من خلال دخان سيكارته. كانت جامدة الاسارير، مطبقة العينين، فلم يعرف ماذا وراء سهومها فعاد يقول:

ـ الفرن يعادل خمسين تنور.

قالت في يأس:

ـ والخبازة منين تجيب الفرن؟ يراد له دنانير.

ـ ثلاثين دينار. اذا عندچ ثلاثين دينار، هسه اسويچ شريكه ويه واحد أرمني عنده أحسن فرن بذاك الصوب.

ولمّت سليمة نفسها حين ذكرت الدنانير. وحاولت ان ترفع جفنيها السميكين، ثم قالت:

ـ ومنين تجي لي الثلاثين دينار؟

ـ على كيفچ! بس مو أحسن، تنامين للظهر وتجي لچ الفلوس الحلوه؟

ـ اشلون انام للظهر؟

ـ متشتغلين... گاعدة بمكانچ، وحصتچ تجي للباب

ـ بس منين أجيب الفلوس؟ من التنور المكسر؟

ـ ما ادري!.. حسبت عندچ فلوس، چان كسبت ذهب.

ـ واشلون اكسب ذهب؟

ـ بسيطة!.. الانكليز مالين العراق. مليون انكليزي وهندي وسيك وكَركَه. وما علينا من كل شي. اذا راد الفرن يبيع للانكليز يوميه الف صمونه. هذا مو ذهب؟

الانكليز ما ياكلون إلا صمون. واتركينه من النصارى واليهود.
- والفلوس منين؟.. ومعقولة الأرمني يتحنن على مسلم؟
- مضطر! وخوش آدمي. تريدين الصدگ؟ لو آني عندي فلوس چان اطيته، واشتركت وياه.
- يا ريت جوه ايدي فلوس.
- التنور يهد الحيل سليمة خاتون، شتا وصيف وانت واگفه.
تنهّدت وقالت في حسرة:
- من هسه مهدود حيلي.
- انت لازم تنامين مرتاحه.
- ويسعدني الحظ؟
- شكومنها؟ يا ما ناس تعبوا، وبعدين صارت عدهم فلوس. ورآها تطبق عينيها وكأنها تحلم فقال:
- اليوم اكو ناس ديحصلون من الحرب ذهب. واحنه ما نريد نغش بالچاي والحنطة.. شغله حلال ما بيها اصعد وانزل.
- عايزه اشتغل بالحرام.
- عجيب! الفرن بيه اجازه.
- ويطلع ألف صمونه باليوم؟
- يطلع أكثر.. راح تشوفين بعينيج.
- وأروح لذاك الصوب؟!
- منطقة انكليز من الاول؟
- خوش!.. اشتغل ويه الانكليز هالمره
- وانت اش جايبيج عليهم؟ الفلوس تجي ليج حاضرة.
- ويكون حظي چبير؟
- سليمة خاتون لا تقلقين.. قُل توكل على الله، فهو خير المتوكلين.
- واخلص من التنور؟!
- تخلصين وتعيشين رغد.. اش وكت اجي عالفلوس؟
- فلوس؟ - وكأنها استيقظت من حلم - وين الفلوس؟
- على كيفج

- وتعرف الأرمني زين؟
- مثل ما چنت اعرف المرحوم عليوي.
صمتت صمتاً طويلاً غارقة في تفكير غامض توجس منه خوفاً فأخرج ساعته من جيبه وقال، وهو يتظاهر بأنه سينهض.
- الساعة عشره.. ما ظل وقت
قالت مطبقة اسنانها على الفرصة:
- زين عيني.. اذا هيچي تعال بعد يومين تشوف الفلوس حاضرة.

- ٢ -

في تلك الليلة ظلت تفكر فيه طويلاً وهي مستلقية على سريرها الخشبي في السطح. كانت النجوم تومض فوقها مثل نقاط من الزئبق على فوطة زرقاء قاتمة. وسكن الهواء فلم تشعر بغير انفاسها. ومن الجانب الأيمن كانت تسمع صهيل خيل متعبة، ووشوشة. وكان الطريق خلف رأسها صامتاً، لا وقع اقدام، ولا دمدمة اصوات، ولا مواء قطة شريرة، ولا صفير چرخچي يغالب النعاس. كانت وحدها مستيقظة وسط عالم مستسلم للنوم. وفكرت للمرة العاشرة «صدگ راح اتخلص من التنور؟! أنام مثل الناس للصبح»؟! وقلقت لان ذلك بدا لها شيئاً غير معقول. تقلبت من جنب الى جنب، وأحست بالمخـدة صلبة تحت رأسها كالجليد. فنهضت ومدت بصرها عبر ظلمة السطح. ولكنها عجزت عن ان ترى. وبلغت انفها رائحة روث جاف دحرجتها اليها نسمة هبت من جوف الليل. واهتزّ السطح من وقع خطاها. اقتربت من سرير حسين وحملقت، وتلمست بيدها. ثم قالت بصوت خافت «المكسور الرگبه ما يجي إلا نص الليل». وجلست على سريره، وقالت «يمكن راح يطلع الفجر» ونقمت على نفسها. ونزلت الى الحوش مستهدية بضوء الفانوس. وبعد ان عبرت الليوان قابلتها النخلة القميئة. كانت يقظى مثلها وحائرة. وضعت الفانوس على ظهر الجاون، وجلست على مقربة من حزم الحطب التي لم تحس بالرغبة في تكسيرها بعد حديث مصطفى معها. بدأت تكسر الحطب، فداهمها الوسواس من جديد. وطنّ صوته في طبلة أذنها «حقچ! تنامين مرتاحة، تنامين للظهر، وتجي لچ الفلوس الحلوه» وتعسرت الاعواد عليها. لم تشم غبار البراري، ولم تتذكر شيئاً من ماضيها.. ولكن!.. أكو ناس د يحصلون من

الحرب گواني ذهب. كانت تراود ذهنها، وتجعل كل شيء ماسخاً في ذاكرتها. ذهب. ويجي من غير تعب؟ حاضر محضر؟ أكو هيچي بالدنيا؟ أكو. . ليش ماكو. . يگولون حمال بالشورجه صار تاجر چاي وشكر. ويمكن آني أصير. . يمكن الله شافني مظلومة وگال آخر عمرها أسعدها. .

كانت تكسر الحطب بصورة لا ارادية، فلم تشعر إلا والحطب قد تكسر كله، فحملت الفانوس، وصعدت الى السطح ثانية، واستلقت على سريرها، واغمضت عينيها، ولم تعرف اغفت أم لم تغف. سمعت صوتاً يناديها فجفلت، واحست بنفس الاحساس الذي احست به يوم أمس، وأول أمس، وأول أول أمس على مدى السنوات الست التي قضتها تعمل على التنور، الاحساس بان النوم قد غلبها، وأنها تأخرت عن موعدها.

- مرهون، ساعة بيش؟

- وحده ونص

- انهجم بيتي. تأخرت على العجين

- بعد وكت

ونهضت وقالت:

- ما نمت. يمكن الى الساعة وحده وآني اكسر الحطب.

قال مرهون.

- النوم حلو. . بلاكت من يگدر ينام؟ آني - كفيلچ الله - من العشا گاعد. غسلت العربانه مرة لخ، وعيني على الحصونه. اثنين وجعانه. . معجزة. . لو ما آني چان من قبل سنة فاطسة بالجوع.

قالت وهي تتلمس الچرغد تحت المخدة:

- خل يشتري لكم حصان حصانين. شنوه ما عنده فلوس؟

فأجابها بلهجة نسائية.

- أها! . . ما عنده فلوس! ليش منو اشترى القصر بذاك الصوب؟ ليش. . . .

وسمع وقع اقدامها على السطح، فعرف انها عافته. وبعد قليل أُضيء الفانوس في الحوش. رأى الضوء الرجراج يتمايل، والظل العملاق يرتسم على الحائط، ويقعد وينتفخ، وينبت له جناحين يروحان ويجيئان.

وبعد ان فرغت من عجن الاجانة الثالثة صعدت الى السطح، وغفت قليلاً.

ثم سمعت صوته ثانية عند الفجر.

ـ أم حسين!

ـ هبت كالمذعورة. وقالت قبل ان تفتح عينيها:

ـ اي عيني، آني گاعدة.

ورأت كرة رأسه المسودّة من فوق الطوفة. وفي الحوش راحت وجاءت بلا ظل. والحموضة ولدت بالاجانات. وبعد قليل هست النار هسيسها المعهود، واضطرمت اعماق التنور وهدرت، وأخرج التنور لسانه الاحمر المشعّف بدخان أسود. ولفح الوهج وجهها فتراجعت، وانسلّت الذرات السود الى حلقومها فسعلت. والآن كان في ميسورها ان تسمع صوته في الطولة المجاورة. الناس كلها نايمة.. منو گاعد هسه؟ «فقالت لنفسها» آني وحدي گاعدة، والنهار كله راح اوگف على رجلي... ويـن الله ويسويها!.. أنام للضحى وتجيني الفلوس. وين الله ويكون آخر يوم اوگف بيه على التنور!. ولما فرغت من «الشجار» الاول سمعت الصوت المألوف. «يا الله يا كريم.. ديخ»!

كان ذلك النهار طويلاً افرى مرارتها. كانت تسهو فيخرج الخبز أسود في أشكال قبيحة. وكانت تسترسل في أحلامها، وهي قرب التنور متكئة على المحراث فيتوهج اللهب على غفلة، ويلهب وجهها. وكانت تطرق الارغفة بأصابع رخوة فيسيل العجين بين يديها. والناس، في ذلك اليوم، أكلوا قلبها، خاله سليمة اطينه خبز زين.. أم حسين هاي اشلون گرصة محروگة... أم حسين تگول أمي هاي ليش عجينج فطير اليوم؟.. خاله سليمة هاي گرصة خبز لو صمونه؟ «وكانت تكز على اسنانها. وتقول: هذا الموجود! اللي ما يعجبه يروح للفرن.. الصمون أحسن» تقول ذلك محاولة ان تقنع نفسها قبل الآخرين. وبعدها تستغرق في حلمها بالفرن، في ذلك الصوب. اشوكت اروح لذاك الصوب؟ باچر يجي وياخذني لذاك الصوب.. مختار ذاك الصوب.. هوب. وقع المحراث من يدها فالتقطته. ورأت حسين ينظر اليها بعينين ثعلبيتين من وراء العباءة السوداء التي تنشر ارغفة الخبز عليها. وذعرت لانها سهت عنه أيضاً. ضاع الحساب فلا تعرف كم سرق. وبعد الظهر دعته ليعينها على حمل الاجانة الثالثة والاخيرة. زفرت في وجهه متأففة مستثقلة العجين، مستبطئة العصر. وكانت تحس مثل لذع النار تحت جفنيها، ومثل ثقل الرصاص في مفاصلها. وتكوّمت الارغفة التالفة في طبق خاص سوداء

منفوخة وممزقة. وقالت سليمة لنفسها: عبالك دا اتعلم الخبز من جديد. اليوم راح أطلع خسارة. ومضروب الچلوة حسين أخذ من غير حساب. لا، عيني، لا. خلّي اكَعد يوم يومين انتظر الرجال! لا راح اغتني بهاليومين ولا اطلع كسر. أحسب نفسي وجعانه. آني وجعانه من صدگ. وتنفست الصعداء حين فرغت من عمل اليوم. جلست على الارض بعد ان خلعت الجوربين الاسودين اللذين تضعهما في ذراعيها اتقاء النار، وثوب الخبز الاسود الذي صلّبه العجين اليابس. احست بحرارة الحائط المفخور في ظهرها. وسهت، ثم تذكرت انها لم تجمع الفلوس بعد، فانتفضت. ونظرت إلى حسين في ريبة. كان جالساً قرب النخلة يغسل رجليه. زحفت إلى العباءة السوداء، وتناولت طاسة الفلوس، ووضعتها إلى جانبها، وغطتها براحة يدها.

نهض حسين من التختة فرفعت اليه عينيها المنتفختين. كان وجهها ينم عن شيء غامض تريد ان تبوح به.

ـ خير ان شاء الله!

اسبلت جفنيها وقالت:

ـ باچر ما راح اشتغل.

ـ الويش عود؟

ـ اريد استراح چم يوم.. غاديه جنازه.

كان صوتها واهناً متضرعاً، فقال لها:

ـ على كيفچ.

إلا انه بدا لها متعجلاً بلا مبالاة فقالت:

ـ وين رايح؟ ميصير تظل يوم بالبيت؟

ـ واشعندچ وياي؟.. اعجن لچ العجين؟

ـ لا.. عيني.. روح اسهر بالگهاوي.

ومشى يخفق بقبقابه المبلل الى حجرته. كانت شبه مظلمة. السماية تنير جزءاً من اعلى الحائط. ورأى وجهه المدوّر في مرآة مغبّرة معلقة على الحائط. كان شاحباً مظلّلاً مثل لقطة فيلم جهنمي. ولمّا ابتسم، في تكشيرة تمثيلية، انفرجت الظلال على صفحة وجهه العريضة، وصارت عيناه هالتين من السواد، وبرز انفه. وقال لنفسه: خوش ممثل اطلع! ومشط شعره وارتدى بنطلونه السرج، وثوبه

الازرق، وخرج.

كانت على حصيرتها لمّا نزل.

ـ اليوم هم ممسويه عشا؟

ـ عندي تشريب طماطه مال الظهر.

ـ اشصار تشريب الطماطه هذا؟ غدا وعشا؟

ـ لعد الناس اش تاكل؟

ـ تشريب طماطه. قال بسخرية فردت عليه بغيظ:

ـ حسين ليش ما تروح تاكل بالسينما؟

ـ والدرهم؟

مدّت يدها الى الطاسة وتناولت درهماً والقته عليه، فانحنى يلتقطه.

ـ الله يجازيك!

وهشّم الثريد بنفسه، ودلق عليه المرق الاحمر، وجلس يأكل مقرفصاً بالقرب منها. سمع انفاسها خشنة، وهي جالسة جلستها الاولى، ممددة الساقين، هامدة لا يعرف ماذا يجول في خاطرها، ولا يريد ان يعرف. وبعد العشاء ذهب وتركها وحدها.

استراحت قليلاً ثم نهضت، وملأت الماعون الذي أكل فيه، وشرعت تأكل. قررت ان لا تفكر، وان تدع كل شيء للغد. غدا سيأتي مصطفى ويأخذها الى ذاك الصوب، ويتم كل شيء فلماذا تشغل فكرها؟ وهي تعبة مستنفذة القوى. ولكنها سمعت بائع الفجل بعد دقائق، وتذكرته. بالأمس كان هنا جالساً على ظهر الجاون، وفي يده مسبحته، وفي اليد الأخرى سيكارة. وقال لها أفكاراً داخ لها رأسها. بالأمس تحدث عن الذهب، والنوم الى الظهر، والفلوس تأتي وهي قاعدة في مكانها. فهل يبرّ بوعده؟ والقت الثريدة من يدها، وركضت الى الباب تدعو بائع الفجل. كان الشارع مملوءاً بالأطفال، ولا اثر لبائع الفجل. وازدادت شهيتها للفجل. وعادت مغمومة. ذهبت الى الليوان لتشعل الفانوس. ونست ماعون الثريد. كانت تستعجل قدوم الليل. وضعت الفانوس في مكانه على ظهر الجاون المقلوب. وانهبدت على حصيرتها. وفكرت به مرة أخرى. تساءلت: صدگ راح اتخلص من التنور واعيش برغد؟ وخامرها شك به قالت لنفسها آني بزواجي ما تهنيت، عاد من ورا أرمني؟ ثم ردّت على نفسها الحظ أعمى ميشوف وين يخلي

ايده. يمكن يخليها على رأسي واستراح، وأنام للضحى.

صعدت الى السطح تحمل ابريقاً. وتقدمت من الطوفة التي تفصلها عن طولة حاج احمد آغا. وقفت على اطراف اصابعها، واشرأبت بعنقها، وصاحت:

ـ مرهون، عيني، مرهون!

كان ليوان الطوفة مضاء بضوء أحمر كدر. وتحرك ظل من داخل الليوان مكوّراً من الاعلى. وطلع مرهون وناداها:

ـ ها.. أم حسين.

ـ عيني، لا تگعدني. باچر ما راح اشتغل.

ـ خيرچ أم حسين؟

ـ باچر أحچي لك.. هسه نعسانه وتعبانه.

جلست على السرير، وغسلت رجليها الحافيتين. واستلقت على فراشها. أحست به بارداً، وبجسمها ثقيلاً. ونوت أن تنام نوماً طويلاً، نوت أن تجرب النوم الى الضحى، نوم المحتشمين. عزمت على ان لا تستيقظ حتى تزحف الشمس عليها من الجانب الآخر للسطح وتوقظها، حتى تحس بحرارتها تلسع جسمها. ستنام الى الضحى كما يريد لها مصطفى أن تنام، وتستسلم الى النوم بكل جوارحها. وفي الضحى من غد ستقعد وراء ابريق الشاي وتنتظره حتى يناديها «سليمة خاتون»! وسيأخذها الى هناك. والآن ليس عليها إلا ان تغمض عينيها، وتنام. كانت نسمة خفيفة تهب عليها من لا مكان، وفيها خدر النعاس. وصمت الشارع من وراء رأسها. كانت الدنيا وسنى مثلها، تغرق، وتغرق في لجة النوم.

ولكنها فتحت عينيها في منتصف الليل، في نفس الوقت الذي استيقظت فيه أمس، وأول أمس، وأول أول من أمس على مدى السنوات التي قضتها تعمل وراء التنور. كأن منبه ساعة رن في أذنها، كأن السايس مرهون نسي وأيقظها. تركت النجوم خلفها، وحملقت في الطوفة. لا. استيقظت بنفسها. وظلت تتقلب في فراشها، وفكرها خال من كل شيء، وعيناها مفتوحتان، والنسمة تمر على وجهها. وبعد فترة سهوم استيقظت كل جوارحها. فمن الذي وخزها في خاسرتها؟ عاتبت نفسها على استيقاظها دون حاجة الى الاستيقاظ، وعلى بقائها هكذا تحت السماء النيلية المنظومة بالنجوم. حاولت ان تغفو. اغمضت عينيها وارخت جوارحها. ولكن رأسها اصبح مثل سوق الصدرية. وهمت بالنهوض لتفعل ما فعلته في مثل

هذا الوقت من أمس، وأول من أمس، وأول أول من أمس، على مدى السنوات التي قضتها تعمل على التنور. ولكنها استرخت. قالت لنفسها سيأتي غداً ويأخذها الى ذاك الصوب فلمن تترك العجين؟ عليها ان تنسل من بيتها دون ان يفطن اليها احد. ولكن لماذا استيقظت؟ لماذا؟ الم تقل انها لا تستيقظ حتى تأتي الشمس وتـوقـظهـا؟ حتى تحس بحرارتها؟ ظلت راقدة حتى يأست من اقبال النوم عليها فجلست على فراشهـا، وهـزت جسمها ضجراً وحنقاً لأنه لم يستسلم للنوم كما ارادت. في مثل هذا الوقت من أمس كانت تعجن الاجانة الثالثة، وتتحرق للعودة الى السـطح لتنـام. والأن تأوهت ضجـرة، وهمت بالنزول الى الحوش، ولكن الطحين لم ينخل، والحطب لم يكسر. وقالت لنفسها: شيگولون الناس عليّ اذا شافوني گاعدة؟ وجعانة! ست سنين متوجعت اليوم اتوجع؟ ونهضت ثم انهبدت على السرير. خافت ان يستيقظ حسين. ويسألها لماذا تلوب؟ ارخت مفاصلها، وقالت لازم أنام. . . أنام. . أنام. وعندما استيقظت كانت السماء بلا نجوم. ولمّا تمالكت وعيها هبت فزعة، وراودتها نفس الفكرة الازلية. انها استيقظت متأخرة. ولكنها عادت فتذكرت انها لا تعمل اليوم. اليوم يوم الفرن. ولكن لماذا استيقظت مبكرة؟ وقعدت على فراشها، واحست بنفس التعب الذي تحس به كل يوم. بل كان التعب يوقر روحها.

تملكتها قوة خفية انزلتها من السرير، وهبطت بها الدرج. ولمّا وصلت الى باحة البيت لم تعرف ماذا تعمل، وكأنها في بيت غريب. قابلتها النخلة القميئة وكـأنهـا في انتظارها. . نخلة متهدلة السعفات، مستكينة، مؤرقة مثلها. وظلت سليمة تدور في أرجاء البيت كأنها تبحث عن شيء مفقود. دارت دون غاية مثل قطة حبيسة. رجلاها تتحركان بتلك القوة الخفية التي انزلتها من السطح. وألقت نظرة طويلة الى التنور الهامد، فبدا لها ذليلاً مهجوراً. لم تشم منه رائحة خميرة، ولا طيب خبز طازج.

واسترخت على حصيرة الخوص، واغمضت عينيها. وقضت بعض الوقت هكذا حتى سمعت من يقول لها من خلف الباب «خالة سليمة عندچ خبز»؟ وبعد دقيقتين «أم حسين اليوم ماكو خبز»؟ وبعد دقائق «خالة سليمة عندچ خبز»؟ وبعد دقائق أخرى «أم حسين. . ما عندچ خبز»؟ حتى زفرت. كانت تجيب بضيق «اليوم گاعدة. . گاعدة. . . اليوم گاعدة. . ماكو. . ماكو «ونهضت ودارت في البيت دون

هدى مسلوبة العقل، حائرة. كانت الشمس تتدلى على حائط الطاولة.

ذهبت الى باب الحـوش ضجرة، وفتحت الباب، وخرجت الى الشارع. تلفتت يمنة ويسرة. كان الاطفال يلعبون قرب بركة من الماء الاسن، وحمير علوان ابو الجص تخرج من بيته مطأطأة الرؤوس، بيضاء الجسم والبرذعة. وفتحية بائعة الباقلاء تفرش الارض وحولها زبائنها. وعلى مقربة من الطولة حلقة من العباءات. وقفت سليمـة قرب بابها قليلاً. وشعرت بالخجل والاضطراب، وكأنها تسير في الشارع بلا عباءة. سيسألها الناس لا محالة.. ها أم حسين.. أشو اليوم گاعدة؟ وساورها شك في ان تلك العباءات السود تغتابها. مشت نحوها في تردد. وحين اقتربت رأت مرهون السايس وسط الحلقة. كان يبرك على الارض ويبدو حائراً.

سمعت امرأة تسأله:

- يعني ما تعرف إلمَنْ؟

- شمعرفني؟

قالت امرأة أخرى:

- اش اله بالطولة بعد؟

قالت ثالثة:

- عيني، شبع

فأطمأنت سليمة ان الحديث لا يدور حولها. خطت نحوهن خطواتها الاخيرة بثبات. وسألت:

- خير ان شاء الله؟

ردت امرأة عليها:

- عيني، الدنيا خربت

- شكو؟.. اش صار؟

- بعد كل شي يصير

- يمه تگولي.. شكو، اشصار؟

- حاج احمد آغا باع الطوله

- والويش؟ - سألت ببرود. وكانت عينا مرهون الحزينتان تتضرعان اليها. فاضافت:

- يعني، اش وازاه؟

قالت امرأة جاءت من زقاق مجاور:
ـ صارت عنده فلوس. . . شبع
وقالت اسومه العرجاء:
ـ اشـو الطوله من آني انخلقت موجودة. . عيني من يذكر على طوله حاج احمد آغا؟
قالت زوجة حمادي العربنجي:
ـ عيني شبع، والناس من تشبع تسوي الآكو والماكو.
فخزرتها سليمة بنظرة. خافت من شيء لا تدريه. ودفعت بالتي هي أحسن:
ـ واحنا اش مدرينه؟ يمكن ما شاف ورا الطوله فائدة. كل واحد يركض وراء مصلحته.
تجهم مرهون، وعرقت حدبته العارية، وقال في عتاب:
ـ هذا شلون حچي أم حسين؟ الدينارين والثلاثة تجيله حاضرة ما بيها فايده؟ وانت يا مرهون يا ابن الجايفه، وانت يا حمادي يا بومة الجوال كد واتعب من الصبح للمغرب.
فاحتجت زوجة حمادي العربنجي بصورة غير مباشرة:
ـ بومة الچوال، هو واللي خلفه.
صاحت اسومة العرجاء:
ـ يمه متسكتون! الناس من تصير عدها فلوس تتخبل. ليش احنه منعرف حاج احمد آغا؟ چانت صايته الزركَة مرگعة.
قال مرهون بصوت ناحب:
ـ چان بنام ويايه بالطوله
ـ ماعون باكَله ما چان يهلّه ينكَع
ـ وهسه صار يملك نص الدنيا
ـ يمه، منو عنده افلوس بها الدنيا وما صار براسه خير؟
كانت سليمـة تتلفت في الـوجـوه صامتـة، وتشعر بارتياح غريب من تلك الاقـوال. هذا رجل من المحلة كانت عنده بعض الفلوس فاستعمل عقله وصار يملك قصراً بذاك الصوب، فهل يكتب لها الله ان تصير مثله؟
عادت امرأة تسأل مرهون السايس:

ـ يعني انت متعرف إلِمَنْ باع الطوله؟
صدگَك، إلِمَنْ باعها؟
حنق مرهون وقال:
ـ أهوه! موگَلت لكم ما اعرف. . قابل دا احچي بالكردي؟
ونهض متأففاً. وترك النسوة وجهاً لوجه. أبصرت شابة بسليمة الخبازة أمامها فنظرت مشدوهة، وشبكت اصابع يديها تحت ثدييها وسألت:
ـ خيرِچ أم حسين. . اشو گَاعدة؟
كانت سليمة الخبازة غارقة في عالمها المذهب فاستفاقت منه وقالت:
ـ عيني، خيرية، اش حالي؟. . الليل كله ما نمت
وتركتها في عجالة، وسارت نحو بيتها.

ـ ٣ ـ

كانت طولة حاج احمد آغا مسترخية في شمس آب. قطعة من الارض مستطيلة مسورة بصفائح مضلعة متآكلة بلون الحناء، مثقبة بثقوب مجهولة الاصل. وفي الداخل كانت المعالف تحت سقيفة خربة واطئة تشترك مع سليمة الخبازة في جدار واحد ينتهي بالطوفة التي تمتد شمالاً حتى السطح، وعلى امتدادها يقع الجزء الذي يشرئب منه مرهون ليوقظ سليمة في منتصف الليل، وقبيل اطلالة الفجر. وعلى يسار المعالف ليوان صغير فيه حجرة صغيرة للاشياء المستهلكة، وحجرة ذات فتحة سقيفة ينام فيها مرهون في الشتاء، ووسط الحوش حنفية غير محكمة الاغلاق، وعلى مقربة منها وقفت عربة غبراء مثل خنفساء خارجة من تراب.

كان الوقت ظهراً. والشمس تتوسط السماء لاهبة الارض بشواظها، ومرهون السائس يتنقل بين العربة والمعالف ضاوياً عرق الجسم، قبيح الحدبة. وكان حمادي العربنچي قد جاء بالعربة لتستريح الخيل المتعبة حتى «تكسر» الشمس، وينال غفوة. ولكن مرهون أسرّ لهُ بالنبأ، وهو بعد لم ينزل من مقعده، فوجم العربنچي، ثم نزل من العربة متهالكاً. كان يبدو تعباً فلاذ في الليوان، واستلقى على الارض زمناً. ثم حرّك ساقيه، وطوى ركبته، ونهض. ذهب الى حنفية الماء ليغسل رجليه، ويشرب. وكان مرهون يغسل العربة على مقربة منه فقال له مؤاسياً:
ـ ميخالف، ابن الحجية.
قال مرهون بصوت مفجوع:

ـ اش ميخالف؟ . . كل شيء عالبال . . بس حاج احمد يبيع الطوله . . . ما چان عالبال .

قال العربنچي :

ـ آني عرفتها من رحت له لذاك الصوب . ردت يشتري لنا زوج خيل . . گلّي : ذيل حصان ما اشتري لكم ، لو تطلع براسكم نخلة . آني اش كاسب من الطوله ، ليش اش كاسب؟ الـدنانير اللي يجي ياخذها الاسود مو فلوس؟ وهو اش عنده بالطوله؟ خلّك ثلاث خيوله تذكر على جدي ، وعربانه برشقه من زمن مدحت باشا ، وهو گاعد بذاك الصوب لا يتحمل شرطي يركض وره واشر ، ولا حصان إنبهض ولا أوخ انكسر ، ولا قمچي . . قمچي على ظهر أمه وابوه .

وأحتد ، فزلت قدمه المغسولة ، ووقعت في الوحل الاسود المحيط بالبرميل المغروس في الارض فعاد يغسلها من جديد . فانتهز مرهون فرصة انشغاله فقال :

ـ انت عربنچي ، وصنعتك بيدك . بلاكت آني وين أروح؟

قال العربنچي :

ـ لا تخاف . بغداد مليانه طواله .

ـ هذا حچي ما يوكل خبز .

ـ لتثخنها . . ماكو واحد ميت من الجوع .

ـ والطوله اللي عشت بيها عشرين سنة تروح؟

وضع العربنچي قدمه المغسولة من جديد في نعاله ، ورفع قامته القصيرة ، وشمّر بيده المغسولة ، وقال في حدة :

ـ يعني الطوله مالتنه؟ مالة اللي خلفنا؟ تظل بيها خمسين سنة وانت سايس .

وكان السايس لا يريد ان يقتنع بذلك . كانت الطولة قطعة من عمره . كانت بيته ومأواه ومملكته .

قال العربنچي بعد ان فرغ من غسل القدم الثانية : وابتعد عن الحنفية بأمان :

ـ اش گلت لك لما جوا الافندية وذرعوا الطوله؟ ما گلت لك لازم وراها دوخة راس . گلت لي هذوله بلدية ويقدرون الحواش . يا بلدية يا دكان شناوه؟

لم يجب السـايس . فرغ من مسـح العربة ، ونظر إلى جلدها الكابي غير راض ، فانصرف عنها إلى السقيفة حيث الخيول الثلاثة . وقف منها على بعد ذراع يتأملها . كانت تلوك التبن بتوان ساكنة الذيول . فقال في اشفاق :

ـ مدا تاكل زين
قال العربنچي خلفه:
ـ بطنها قبض، مثل بطن حاج احمد اغا
فرشقه السائس بنظرة شزراء وتقدم من المعالف ومسّد عرف حصان أشهب، فالتفت الحصان اليه، وشمّ بطنه العاري. وقال السائس:
ـ انت هم احسن من حاج احمد اغا.
ـ معلوم ـ صاح العربنچي من ورائه ـ اذا ها المداراة
ـ لا تخاف.. حاج احمد هم داريته.. چنت أحير اش اسويله.
ـ اعرف چنت شسويله.
ـ چنت ادلك له مثل ما أدلك للحصان.
ـ مرتي ما داريني هيچي.
ـ تضحك؟
ـ لا، واحد يحچي ناموسه.
وطوق العربنچي رقبة حصان آخر. وناغاه
ـ هلو. باباتي
ـ لم يلتفت الحصان اليه، بل نخر نخرة قوية. وشمّ العربنچي رائحة التبن الترابية، وارتاح لها. ولكنه احس بقدميه اللتين غسلهما، قبل دقائق، تغوصان في الروث المفروش على ارض المعالف. وتضايق، وهمّ بان يشتم حين سمع صراخاً منبعثاً من وراء السور الصفائحي للطولة.
انزلقت يده عن الحصان، ونظر إلى الباب الذي توقع أن يأتي منها الصارخ.
كان يعرف صاحبة الصوت. وسرعان ما ظهرت عند باب الطولة امراته تصرخ باعلى حنجرتها:
ـ لك حمادي. لك حمادي
فقال حمادي وكأنه يخاطب الحصان، من أولها؟
ـ لك حمادي.. يوم الأسود اللي تزوجتك بيه.. لك حمادي..
فقال حمادي موافقاً: اسود.. وبعروري!
اقتربت المرأة من السقيفة وهي تقول:
ـ لك حمادي.. تعال خلصني

قال وهو يحاول ان يرفع قدميه من مصيدة الروث
- شكو؟
- تعال خلصني
- ليج اشصار؟
- لك خلصني . . خلصني
كانت محمرة الوجه، متوترة الرقبة، مبللة الخدين لا تكاد العباءة تستقر على رأسها. بلعت ريقها وصرخت:
- راح نغرگ
- اجه الشط للبيت؟
- لك راح نغرگ.
- على كيفج . . يواش.
- لك اش على كيفي؟ . . راح نغرگ.
- على كيفج لتخوفين الخيل
- اش على كيفي، والخان راح يغرگ؟
- منين يغرگ . . نزيز؟
- من طوشة الماي اللي تجيبها خيرية مرة رزوقي . . لك عيني راح نغرگ . . راح نغرگ.
فقال العربنچي متضايقاً:
- اشلون ويه الحكومة الله يسلمها؟
- يوميه تنشر لي عبايه على الحبل، وتغسل بالطشت بنص الحوش، لو هي لو رجلها، وتذب الماي علينا . لك عيني راح نغرگ . . راح نغرگ.
- على كيفج لتخوفين الخيل
- وشايله راسها علينا.
- يعني ما حّد اشتغل عند الحكومة؟
فصرخت زوجته بصوت عارم:
- روحي خلصت . . خلصت
- على كيفج لتخوفين الخيل.
- لك راح نغرگ . . نغرگ.

ـ تغرگَين بالجهنم . . لتخوفين الخيل .
نخرت من انفها الاقن . ودفعت طرفي عباءتها إلى ظهرها ، وشمّرت بيدها :
ـ سويلي چارة . . يوم واحد ما راح ابقى بالخان .
ـ متبقين إلى جهنم . . راح تخوفين الخيل .
ـ لك ما أبقى ، ما أبقى .
ورفست الارض برجلها فارتجف كفل الحصان ، فصاح العربنچي في غيظ :
ـ خاف الحصان . . بس عاد . . الحصان خاف .
وحملق في وجهها المجزع من الشمس والانفعال فخاف ايضاً، وراح يرضيها .
ـ خل يجي رزوقي . . اصبري . . . .
وقبل ان يتم كلامه سمع هبدة على الباب الصفائحي فجفل . وما هي إلا طرفة عين حتى رأى خيرية نفسها تخرج من وراء العربة مثل قطة هائجة .
ـ وين ابو روّاله؟
ورآها تقترب مشمرة بيديها . فعرف أنها المصيبة بعينها . صاحت بصوت مصمّ
ـ شوف عربنچي . . آني صار لي خمس سنين بالخان وعتبة الطوله ما دايستها . اعرف شنو أنتو، وشنو احنه . . انتو مليانين گراد . . عوع ! . . واذا غسل واحد تغارون منه
قال العربنچي محاولاً ان يجاري نبرة صوتها العالية :
ـ يعني انت وحدچ گاعدة بالخان؟
ـ گاعدة بحجرتي .
ـ والمايات؟
ـ والمايات يم حجرتي .
قالت زوجته :
ـ لك يا حجرتها . . وصل الماي لليوان .
ـ على كيفچ لتخوفين الحصان
صاحت خيرية مغيظة :
ـ اشو بكيفي ـ وضربت الارض برجلها .

ـ بكيفج اشلون؟ الخان مالچ؟
قالت زوجته:
ـ مال رجلها أبو. . . . . الچبير
والموصوف شيء لا يجوز ذكره! فاستدارت لها خيرية، ومدت عنقها، وتخاصرت دافعة العباءة بكوعيها. وقالت بسخرية:
ـ واش دعوة غايرة، رديفة؟ رجّال واحد مو كافي؟
وهنا رأى مرهون السايس أن من الضروري أن يتدخل. قال:
ـ عيب خيرية، يمچ رياجيل
صاحت خيرية به وغمته:
ـ اسكت، ابو قنبورة، تحسب نفسك رجال؟ ـ ثم عادت إلى زوجة العربنچي ـ من هذا تعاينين علينا من شگوگ الباب؟ يعني شتريدين يجري بين المريه ورجلها؟ يقرون الفاتحة عالميتين؟
ـ عيب خيرية قال العربنچي هذه المرة.
ـ اسكت عرگچي!. . يومية جاينه سكران، وروالتك تخر. متستحي على شيبتك.
ـ غاري منه قالت رديفة زوجة العربنچي
ـ أغار من العربنچية!
ـ واش جابيج عالعربنچي؟
ـ وانتو اش جابكم علينه؟
ـ اسكتوا لتخوفون الخيل!
ولكن المرأتين تصايحتا، واختلط صوتاهما في زعيق نافر غطى على احتجاج الرجلين، وخافت الخيل قدر ما تشتهي. وكانت شمس الساعة الثالثة حادة لاهبة أسالت العرق من عنقيهما، ولونت وجهيهما بلون مدمى مزرق حتى تعبتا دون ان تنتهيا إلى شيء. فخرجت خيرية من الطوله تقول:
ـ خلصنه من الجيفه. . باعوها الطوله. . الله يسلمها الحكومة!
ولكن الخان ضمهم في المساء ذاته. كان الخان بيتاً كبيراً يجاور بيت سليمة الخبازة من الناحية الاخرى. . بيتاً من بيوت خلق الله الاعتيادية سماه الناس «خاناً» لتعدد حجره، وكثرة نزلائه. فيه يسكن حمادي وزوجته رديفة وطفلته في حجرة،

ويسكن رزوقي وخيرية.

«الحكومة الله يسلمها» في حجرة ثانية، وثلاث عوائل في حجرة ثالثة، وفتحية بائعة الباقلاء في شبه حجرة. . وهناك شبه حجرة أخرى لا يقبل مخلوق ان يؤجرها.

- ٤ -

مساء! كانت سليمة الخبازة مسترخية على حصيرة الخوص ساكنة. ومن مكانها راقبت الشمس تتسلق برج الكنيسة، وتغيب، وتصطبغ الجدران والارض بلون رمادي يغمق، ويزداد اسوداداً، ثم يلوح حائط الطولة أمامها مبتعداً عنها، داخلاً في الغبش، ساحباً معه النخلة القميئة.

كانت عيناها تشهدان قدوم المساء المبشر بمجيء مصطفي، واذناها تسمعان حسين يغني في حجرته غناء كريهاً يشعرها بالاختناق. كانت تر يده ان يخرج قبل ان يأتي مصطفى ليحدثها عن الفرن والذهب، والذهاب إلى ذاك الصوب.

كان حسين قد جاء عند العصر تفوح منه رائحة النهر. شمت رائحة الطين الرملي الزفر من صدره العاري حين صبت له ماعون الباميه، فالتهمه بشهية. ولم يقل لها كلمة واحدة. لم يسألها هل ستشتغل غداً. جال ببصره في ارجاء البيت، ولم ير اعواد الطرفة مكسرة عند التنور ففهم كل شيء. وبعد ان فرغ من طعامه دخل حجرته، وظل يغني غناءه المكروب الذي يفري مرارتها.

سمعته يغني «ذبني السريع بليل» فقالت في سرها «ذبك إبير اللي ما تطلع منه». ثم حدثت نفسها «لا، عيني، خل يطلع، ينزاح عن كَلبي. هسّه الرجال على جيه، واش اكَول له اذا شافه؟ واش نكَدر نحچي بعد؟ لا، عيني، خل يطلع».

وكأنه سمع افكارها. تحرك ضوء الفانوس في حجرته وخرج بالفانوس إلى الليوان، وثوبه الازرق يسطع في ضوء الفانوس. وفي عنق الليوان سألها:

- وين أخلي الفانوس؟

- تعال جيبه هنا

تقدم اليها بساقين مظللتين. وقالت له:

- خليه عالجاون.

فوضعه، وصفر بلحن، فصاحت:
ـ لتصوفر، وتلم الملايكه
ـ العورين لو الشرحين؟
ـ اسكت كافر! بعد الشط وين راح تروح؟
ـ وين ماريد اروح اروح.
بدل متگضي النهار بالشط والگهاوي، روح دور على شغل، وآني حرمه.
ـ أدور اذا تريدين تبطلين من الخبز للتالي!
ـ وين تدور بسينما الزوراء لو عند صاحب ابو البايسكلات؟
ـ انت اش مدريج، والنهار كله ممدة عالحصير مثل الوحدة الگامعة ابنها؟
وابتسم، وغرس في قلبها مخيطاً. فشتمته:
ـ روح ابو الدروب.

واطبق الباب عليها. كان الليل بلون الرماد. وفي الشارع العريض كانت الجواميس تعدو عائدة من دجلة إلى حي المعدان حيث يقاسمها الناس حظائرها. لطخات سوداء في لوحة مساء داخن يزفر رائحة دهن محروق، وماء آسن تلهث به أرض طينية، ونكهات اطعمة ممزوجة برائحة رماد ساخن ونفط لم يحترق بعد. سار حسين على مهل بمحاذاة البيوت، فتخطى الخان حيث الباب مفتوح على مصراعيه، وفي البيت مواقد وعباءات سود وبيت علوان ابو الجص حيث الجميع في الحوش بلا براذع فتلوح بيضاء في رمادية المساء. وتوقف. ونظر إلى امتداد الشارع الموحل الموصل إلى حي المعدان. وقال لنفسه «صار الوكت.. كل العمال رجعوا لبيوتهم» وعاد ادراجه إلى الجهة الاخرى من الشارع. فمر ببيوت صامتة مغلقة الابواب، ثم بيت اسومة العرجه، وابتعد ماراً ببيوت النصارى ذات الشناشيل الملونة، وبعدها دكان صاحب ابو البايسكلات:
ـ مرحبة ابو مهدي.. اشو لسه مفتح؟
ـ اش اسوي؟.. ابن الحولة، أخذ بايسكل من الظهر، ولسه ما اجه.

لم يعلق حسين بشيء. وضع قدمه على حافة الدكان وحشر يديه في حزامه، ولم يقل كيف رآه على الشاطىء يدور في الدراجة خوفاً من ان يطول الحديث. وتكتكت الساعة الخضراء الموضوعة على «التزگاه» فرفع حسين رأسه وقال:
ـ همزين شفتك.. اريد ربع دينار

ـ شن هاي؟ ـ نظر اليه صاحب مندهشاً ـ البارحة نص، واليوم ربع؟
ـ ميخالف، محتاج.
صمت صاحب برهة ثم قال:
ـ تعرف اش گد اخذت هالشهر؟ ست دنانير! يعني عالحطة هاي فلوسك راح تخلص بالعجل.
ـ واذا ينراد لي؟
ـ عجيب امرك.. شنو وراك بيت؟
ـ تقريباً.
فنظر اليه صاحب بارتياب، وهزّ رأسه وهو يمد يده في جيب بنطلونه.
ـ تريده دراهم لو قاغد؟
ـ دراهم.
وعد له خمسة دراهم، وهو ما يزال ينظر اليه نظرته المرتابة فاراد حسين ان يصرفه عنه فقال:
ـ اليوم مرة ابويه گاعدة!
ـ ها!.. الويش؟
ـ شمدريني!.. براغيها مفكوكه.. تگول شم حصله من الخبز؟
ـ الحق وياها. اذا تاخذ نص فلوسها.. بس آني المذنب همينه. بس چنت اريدك تجمع وتكمل دراستك. بيع الخبز ما يوكل خبز.
وانت صرت رجال. الله يرحم ابوك چان يريدك تطلع دكتور.
فقال حسين بسخرية:
ـ راح أتطلع دكتور من التنور.. بيض بليّه گشور
قال صاحب وكأنما لم يسمع كلامه:
ـ بلاكت صار لك شهر وانت تجر بفلوسك. ووين كلامك.. ورا الصيف اگعد بالمدرسة؟
ـ ابو مهدي.. الصيف بعد ما خلص
ـ راح تخلص فلوسك قبل ميخلص
ـ البركة بالحجية ـ يقصد زوجة ابيه ـ قابل راح تظل ممددة عالحصير كل عمرها؟.. آخرتها ترجع.

ـ ان شا الله مترجع . . هذا احسن لمستقبلك
فلاح الضيق في وجه حسين :
ـ ابو مهدي يامستقبل؟ . . المستقبل راح من مات ابويه
ـ لا ، اذا دخلت المدرسة ما يروح .
ـ واذا نسيت القراية والكتابة؟ . . ست سنين مو قليلة
ـ تذكر بالعجل
ـ واش تريدني اطلع؟ محامي لو دختور؟
ـ على الاقل تدخل مدرسة الصنايع بعد ما تخلص السادس .
فهز حسين كتفيه في ارتياب ، وقال :
ـ هذا عمر!
نظر اليه صاحب بعينين شفيقتين وقال :
ـ بعدك شاب . .
ـ موت يازمال لما يجيلك الربيع . . ماريد هالمستقبل . . اريد اعيش اليوم .
وران صمت. وتكتكت الساعة الخضراء الموضوعة على «التزگاه». وبعدها سمعا كركبة عربة وراء عطفة الحمام. ثم اطلت كتلة سوداء ذات ارجل كثيرة. ومرّ حمادي العربنچي ، رافعاً سوطه بالتحية .
صاح عليه حسين :
ـ ها ، ابو شيبة ، بيش طلعت اليوم؟ . . بسبعة قاصر؟
قال حمادي في نشوة :
ـ لا ، بنص ربع عرگ من ابن مروكَي .
وبعد لحظات سمعاه ينادي مرهوناً : «ابن الحجية عمشة ، افتح باب القلعة!» فضحك الاثنان .
الا ان ضحكتهما كانت قصيرة . سمعا جرس دراجة فالتفتا . ورأيا ابن الحوله يشحط برجليه على الارض . ترجل ابن الحولة ، وقاد الدراجة إلى عتبة الدكان وكان حسين وصاحب يتبادلان النظر في صمت مكبوت فقال ابن الحولة :
ـ ها! . . اشو مثل البزازين واحد مگابل اللآخ
قال صاحب وقد تجهم :
ـ اكو واحد يظل ليهسه على بايسكل؟

قال ابن الحولة في لا مبالاة مغيضة:

ـ شنو. روّحت صلاة المغرب عليك؟

وصعد عتبة الدكان، ووقف ازاء صاحب وجهاً لوجه. كان فتى مديد القامة هزيلها، طويل الوجه والذراعين والساقين لا ينم مظهره على قوة خاصة لولا عيناه الواسعتان الوقحتان، وفكاه العنودان المتصلبان.

نظر صاحب إلى الساعة الخضراء وقال:

ـ صار لك خمس ساعات.

ـ لا عشرين.

ـ من ساعة ثلاثة تقريباً.

قال ابن الحولة:

ـ چان البايسكل ممطول بالكهوة.

ـ واش عليه آني؟ البايسكل طالع.

ـ هاي من كثرةبايسكلاتك الطالعة؟ اشو كل النهار مصفوفة عالحايط.

قال صاحب في تأزم:

ـ بعد اربعة ايام يجي راس الشهر. عود انت تدفع لي الكمبياله لحسقيل لياهو.

قال ابن الحولة:

ـ صرت تكَدي؟

لمعت عينا صاحب في غضب، وتحرك شعر وجهه غير الحليق. ولكنه كتم غيظه وقال في عتاب:

ـ هاي المريوده من ابن الحولة!

حدق ابن الحولة بصاحب تحديقة طويلة هوجاء قابلها صاحب بأخرى مستهينة. كان كلاهما طويلاً نحيلاً ولو لا تلك الانحناءة في ظهر صاحب، وكبر سنه لبدا اقوى منه، وأكثر رجولة. نظر اليه دون ان يدري ماذا يقول له. ولما طالت التحديقة قال صاحب:

ـ اشو د تعاين؟. . تريد تخلقني من جديد؟

قال حسين بصوت غير صوته:

ـ يلّه ياجماعة. . انتو من طرف واحد

قال صاحب:

ـ لا، اريد اشوف، يريد يخلقني؟

كان جبين صاحب عرقاً، وشعر وجهه غير الحليق قد تفصد بقطرات عرق لامعة. وكان حسين لا يرى من ابن الحولة غير استدارة الفك القوية المنذرة بالشؤم، ونتوء الانف المستدق. وكان قرص الساعة ينبئه بان ذهابه قد حان. واعاد محاولته المرتجفة ليصب الماء على النار. واخيراً قطع ابن الحولة تحديقته الطويلة، قائلاً وهو ينزل عتبة الدكان:

ـ زين.. آني الك!

رد عليه صاحب بحدة

ـ زينين.. شتريد اتسوي لي؟

والتفت ابن الحولة إلى صاحب، ونظر في وجهه صامتاً، ثم استدار بعدها، وسار في الشارع المظلم يهز رأسه بوعيد.

قال حسين:

يله ابو مهدي.. عزّل

كان صاحب ينظر اثر ابن الحولة. ولاح جبينه العرق متغضناً مكفهراً. وانفجر قائلاً بعد أن غيب الظلام ابن الحولة.

ـ اريد اشوف شي سوي لي.. زين زينين. آني هم اكَدر الزم لي خنجر، وأوكَف بالعكَد، ويا هو اللي يجي أطبره.. ماكو حكومة!

قال حسين وعيناه على الساعة:

ـ ميخالف ابو مهدي

وتحرك صاحب واخذ ينقل الدراجات إلى اقصى الدكان.. دراجات مستهلكة، حائلة اللون، صدئة النيكل. وسمع حي الصانن صراخ الدرقة الحديدية الوحيدة في الحي كله.

ـ ٥ ـ

انحدر من السدة الترابية تدفعه نسمة ليل خفيفة. وبعد السدة لم يعد يرى اضواء المدينة، بل خطاً اشعث من الضوء مثل رؤوس مشاعل بعيدة. وفي الوهدة استقبلته رائحة روث تحرقه تنانير ليلية. واكتنفته تحتهما، متوجساً خوف الانزلاق

في ساقية جافة كان يعرف انها هنا، شاقة «الكمب» نصفين. وبعد قليل سعل رجل على مقربة منه، وتحدث اثنان في وشوشة. ثم انعكفت ركبته بغتة، وعرف أنها الساقية. . انـزلق اليها دون ان يدري. وعبرها، وترك قدميه تدبان على الارض باطمئنان. ورأى مستطيلاً عمودياً من الضوء النحاسي، فعرف انه في أول الزقاق، الـزقـاق المترب المقعر مثل مجرى جدول قديم، والملتوي المنتهي إلى أرض فضاء، والمحصور بين حيطان طينية بلا شبابيك. دب فيه صامتاً، قدماه مخنوقتا الوقع، والتراب الناعم يدخل بين اصابع رجليه، والصراصير تغني في اذنيه، وانفه يستقبل روائح الروث المحروق. لا نفط، ولا دهن، ولا رائحة جواميس. ودلف من باب. واستقبلتـه ثلاثـة مخاريط ضوئية متقاطعة. وسار عبر مخروط. ونادى بصوت مهزوز:

ـ تماضر!

نما للمخروط شبح امرأة عكفت يديها على الباب وتطلعت اليه:

ـ ها! جيت؟. . اشو متأخر اليوم؟

دخل الحجرة دون جواب. كان فانوس نفطي معلقاً على الحائط بمسمار. وفي اقصى الحجرة سرير حديدي، وعلى الحائط مرآة قربها مشجب تحته حصيرة، والارض عارية. وفي الـزاوية قدر أسـود وبعض المواعين. جلس على السرير، وجلست تماضر امامه. حدق احدهما في وجه الآخر. وكان ضوء الفانوس سقيماً القى على وجه الفتاة تموجات قاسية. ولكنه لم يمح كل ما فيها من حسن. مازال هنـاك شبـابهـا، ونضـارة بشرتها، وسواد عينيها الكحيلتين، والشفتان الممتلئتان المتحركتان في حذر.

سألته مرة أخرى في صوت أسيان:

ـ أشو تأخرت اليوم؟

لا، لم تكن الظلال التي على وجهها من سقم المصباح. كان حزناً حقيقياً رآه في صوتهـا الشقي، وعينيهـا الحـزينتين، واضمامة شفتيها، وفي كل التعبير الضارع المرتسم على وجهها.

قال لها:

ـ اتأخرت بالشغل.

قالت:

ـ هذا يا نجار يفتّح لها الوكت؟

ـ چان بيدينا شغل، ما عزلنا الا خلصناه

ـ ومن الشغل لهنا؟

هزّ رأسه جواباً. فنظرت إلى وجهه بعمق واستغراق، ورفعت بصرها إلى شعره الأسود اللامع. وكانت في عينيها ريبة، ريبة مسحوقة.

فقال ليزيل ريبتها:

ـ الشط يم الدكان.. وغسلت.

ـ ما تگول لي وين تشتغل؟

ـ بعيد. يم قبر الملك.

كانت لا تعرف بالضبط اين قبر الملك. ولكنه هناك، في العالم الآخر خلف السدة الترابية التي هبطت منها ذات يوم. ومرّت في خيالها شوارع مشجرة، شوارع بلا اسماء، عريضة ومشمسة.

قالت:

ـ وآني ويه الشراگوه بها لخم

ـ انتِ ردتِ هالخم. كل محلة چنت تگولين اخاف يشوفوني اهلي. چنت تريدين تطلعين من بغداد وتسكنين بسلمان باك.

ـ حسبت اتخلص منهم

ـ واش دعوة هالخوف؟.. وتحلمين بيهم

ـ ميجوزون مني إلا يقتلوني

أمسك لسانه عن قول كلمة تؤذيها. كانت جالسة امامه ذليلة ممتقعة الوجه، تبدو مقطوعة الصلة إلا به من دون خلق الله. ولم يشعر بالشفقة عليها قدر ما احس بالسطوة، وبأنه اقوى.

حكت له ما رأته اليوم:

ـ اليوم الصبح طلعت اشتري خبز، شفت واحد واگف بالباب. اعربي لابس عباية سودة وعگال. خنزر علي عبالك يريد ياكلني، وآني وحدي. والشراگوه كلهم طلعوا للشغل، واني والعجايز والجهال. ـ رجعت للبيت ارجف مثل السعفة. وظليت للظهر وآني جوعانه.

قال:

ـ هذا كله من الخوف.
ـ خوف؟.. لا، مو خوف. الظهر طلعت وشفته گاعد شويه غاد من بيتنا. يخنزر. وما ادري ارجع لو أمشي بطريقي، إنثولت، وگلبي من الجوع عصرني. چان ورايه.
ـ وراچ؟
ـ لحگني لأبو الخبز. ولما رجعت رجع ورايه.
أحس بمزيج من الغيرة والخوف، وسأل منجذباً بقصتها:
ـ ومنين هذا؟
ـ ما اعرف.. اهل العُگل يتشابهون
ـ وما حاچاچ!
ـ لا، بس يخنزر. يريد ياكلني.. من بعثه عليّ؟.. أهلي لو ذاك الساكن بالعماره؟
وسكتت. واحس بخوف حقيقي هذه المرة. ولما سألت:
ـ لما خشيت مشفته بالباب؟
هزّ رأسه نفياً، وتابع في ذهنه مسيرته بعد انحداره من السدة الترابية. كان الليل بهيماً، والسكون شاملاً. ولم يجد ما يريب. ولكنه الآن، وهو يحدق بوجهها البيضوي الممتلىء، احس بانامل الخوف تدب على ظهره. وضعت تماضر كفاً باردة على كفه، وقالت متوسلة:
ـ نام اليوم هنا.
ارعبته هذه الفكرة ايضاً. قال لها:
ـ اشلون انام ومكاني بعيد؟ وماكو سيارة من الصبح.
فلوت رأسها، وغرق وجهها في ظل أسود بينما تلألأت خصلات شعرها في ضوء الفانوس. وسمعا نباح كلب عبر الجدار اجابه كلب آخر بعيد، واستشعر كلاهما وكأنهما في بلدة غريبة. ولكنه عاد يُكذّب نفسه لا!.. انها اوهام فتاة هاربة تجد في صورة كل رجل اباها المباغت لها. وهزّ رأسه طارداً عنه الخيالات:
ـ لا، كل شي ماكو.
ـ نام عندي بس هاليلة
ـ ما اگدر. ما خبرت اهلي ـ ثم صمت لحظة حتى اهتدى إلى كذبة ـ باچر

لازم آخذ المنشار من البيت. ما راح يگولون لي : وين چنت؟

ـ فقالت في حيرة :

ـ اشلون؟ . . الليل كله ما راح أنام. ما أگدر اعيش هنا.

قال :

ـ وين تريدين تروحين؟ . . لسبع قصور؟

قالت :

ـ لا، اعرف مرية من اهل الطرف اسمها نشمية. . ساكنة هسه بالكرادة يم البانزين خانه. . يمكن نندلها وتسكنا عدها.

قال :

ـ هسه تذكرت؟

ـ چنت بليه فكر. . چنت ماريد اشوف كل واحد يذكرني بأهلي.

وساد صمت. وفكر كلاهما بشيء. فكر بلقائه الأول معها على باب سينما الرافدين، وفكرت هي بالشط وعالم ما وراء السدة الترابية، وسرى في عروقها اطمئنان ناعم اعاد ماء الحياة إلى وجهها، فبهتت تلك الظلال القاسية الملحاحة، واكتسى وجهها لمعة نحاسية. وحين جذبها نحوه متلذذاً بلينها وطواعيتها، ودفء نهديها على صدره لم تشعر بما شعرت به يوم امس من عذاب، حين نام معها، كانت تفكر بالشط. شمت رائحته في ثيابه واستكانت له، وسألته وهي تستسلم بين يديه :

ـ ها، حسين، شتگول؟

ولكنه كان اخرس، تحولت حواسه كلها إلى شم ولثم. دس انفه في صدرها، فوضعت يدها تحت ذقنه :

ـ ها. . حسين شتگول؟

وأحست بحركة شفتيه بين اصابعها. ولم تفهم شيئاً.

ـ ها. . حسين. . نروح باچر؟

ورأت عينيه خاليتين من اية معارضة. وتحرك ذقنه :

ـ تمدني. . نروح.

وبعد ذلك تعشيا على السرير. كان السرير كل ما يملكانه في تلك الغرفة العارية. واعادت عليه السؤال فقال لها :

ـ مو. . گلت لچ نروح! . . باچر آخذ اجازة من استاذي وأجي لچ الظهر.
وبعد ظهر اليوم التالي استقبلتهما الخالة نشمية بثوبها الهاشمي الفضفاض الاسود الذي يشف عن قميص داخلي ازرق، وفوطتها تتهدل على صدرها. امرأة ناء جلدها بما يحمل من لحم وشحم. وقادتهما عبر سرب من الدجاج إلى ليوان مبلط بالكاشي، وهي تمشي مشية الدب، وتقول بصوتها المخشوشن «ياهلة. . . يامرحبا. . اش عجب، اش عتب؟» واجلستهما على تخت خشبي اخضر، مفروش بحشية طويلة مغطاة بغطاء ابيض. وجلست هي متربعة في طرف التخت، وراحت تتابع حركات الدجاج بعينيها من فوطتها. وراحت تلقي اسئلة دون ان تنتظر اجوبة عنها «اشلونچ؟ أمچ شلونها؟ . . اتزوجتي على خير؟ لو من اهل الطرف؟ . . شكو منها؟ الشباب يوم ونص. تلحگين تربين لحم. هف. . قاً قاً. . » واشارت للدجاج ان لا يتقدم إلى الليوان. وهشت ديكاً حاول ان يتسلق الجدار الواطىء الذي يفصلها عن البيت المجاور. وقالت «أوي عيني، آني هيچي ديچ مشايفه» وارتعب الديك من صوتها، وصفق بجناحيه، وهبط الجدار باستماتة.
ـ اي عيني، مضوري، اشلون عرفت البيت؟
ـ سألت العطار. . كلهم يعرفوچ!
ـ سبع سنين مو قليلة.
ـ هو ايه يذكروچ بالطرف.
ـ ظل ذكر؟ . . هجولوني بليلة سودة.
ـ لا، والله، دايما على اللسان. آني اشلون عرفت الحوش يم البنزينخانه؟ . . چنت اسمعهم يحچون.
ـ وبعديش؟ . . جنت عايشة ويه كاوليه مو ويه اهل.
ـ خالة نشمية، الأهل ظلّام
ـ نزول عالاهل. . واشعجب هالجيّة؟
ـ آني هم طلعت منهم.
ـ عالخير. . الأهل مينحملون.
ـ خالة نشمية، يريدون يزوجوني لواحد يبيع دهن ودبس بالعماره.
ـ وصدكَتي؟ يمكن النهار كله حافي، ورجليه مفطّرة. . والعماره وين صايره؟ الاهل يكذبون. ماكو واحد يغلبهم بالكذب لما يريدون يكسرون رگبة البنية،

الاعور يسوون عينه مثل الساعة، والشايب إبن العشرين، والركّاع قندرچي، وابو بيع بزاز بسوگ الجده.. سووها بيه.. اعرفهم.. قق.. قق (الكلمتان الاخيرتان موجهتان للديك الذي اراد ان يصعد الحائط مرة اخرى)

ـ خالة نشمية، شفته مرة وحده واخترعت. دخلت للحجرة، وظليت النهار كله خاتله.

ـ حقچ، عيني حقچ

ـ بعمر ابويه، لحيته ضاربه صفح

ـ ومنين لاگيه؟. من يا زباله؟

ـ يجيب لأبويه دهن.

فتحت الخالة نشمية فمها لتقول شيئاً. وفي تلك اللحظة اطل على الباب رجل معقّل صاح:

ـ نشميه، هذا اشلون ويّه ديچچ؟

صاحت غاضبة:

ـ هاي اش بليتوني بديچي؟ ما حد عنده ديچ بالدنيا؟

ـ هو هذا ديچ لو بلا اسود

ـ يعني، شتريدون اسوي له؟ أخلي برجله كلبچة؟

ـ آخر ميصير يانشمية.. دجاجنا توجع من الكفش.

ابتسمت نشمية بنشوة، وتهدل لغدها، وقالت بصوت باسم:

ـ گل لي، اش اسويله؟

ـ لو تذبحيه، لو تبيعينياه احنه نذبحه

غاضت الابتسامة من وجهها في الحال، وصاحت بصوت مختنق

ـ روح، روح علي شغلك، والله لو تطيني خروف.

قال الرجل مهدداً:

ـ چا اشلون؟ خل يجي منا وغادي

قالت نشمية وهي تشير بيدها،

ـ عود گصوا....

وخجلت ان تذكر المقصوص، واختفى الرجل، وفرغ الفضاء وراء الباب، ولاح جانب درب متـرب، والنصف الاسفل من نخلة. نظرت الخالة نشمية إلى

سرب الدجاج، والديك يتبختر بينها مثل محارب ذي قلنسوة حمراء، وجبة بيضاء ينود برأسه في صلف وكبرياء. وشع الرضى في وجه نشمية، وانخفض انفها في برزخ وجنتيها الممتلئتين، وقالت في فخر:

ـ هذا اشلون ديچ!. . اشقياء يهز الگاع هز!

واستغرقت في لحظة اعجاب، ناسية ضيفيها. ثم تذكرتهما فقالت:

الچاي عالنار، ونهضت في جهد، وتماوجت الاليتان من ورائها. وركضت تماضر لمساعدتها. كان ابريق الشاي موضوعاً على موقد نفطي في زاوية في اقصى الليوان، قالت الخالة نشمية انها تضعه هناك خوفاً من أن يقلبه الدجاج «اللي مشعوطني وملعوطني. . . دجاج هيچي وكت». وعادت إلى مقرها. وضعت تماضر صينية الشاي على «طبلة» مخلخلة المفاصل. وهدأ الدجاج وانحصر في زاوية من الحوش الطويل يتحرك بهدوء، وكأنه يشعر بغضب صاحبته.

سألت الخالة نشمية وهي ترفع قدح الشاي:

ـ أي، عيني، حچايتنا. . وهسّه وين گاعدة؟

ـ خالة نشمية، بكم الارمن.

ـ وين صاير كم الارمن؟

ـ يم السدة، بعيد!

كورت الخالة نشمية شفتيها وقالت:

ـ أوه! وليش قحط حواش تروحين لسدة الهندية؟

ـ خالة نشمية، سدة بغداد. . بس بعيد، واحنه جينه عليچ، بلكت عندچ مكان.

صمتت نشمية، ثم سألت بمكر:

ـ ورفيچچ، محروس بالله، اش يشتغل؟

أجاب حسين:

ـ نجار، بس من صدگ!

ـ قالت الخالة نشمية:

ـ د يبين، محروس بالله.

والتفتت إلى تماضر وقالت:

ـ ولأهلچ. . ماكو رجعه؟

ـ خالة نشمية، بعد هاي هي. الاهل اللي يريدون يبيعوني لا اعرفهم ولا يعرفوني

ـ هذا يعود الج. بس اريد اعرف. وبعدين أطلع موخوش آدمية. ش تگول، محصَّن بالله؟

اجاب حسين:

ـ خالة نشمية، آني انجبر. من الشغل للبيت.

ـ اذا هيچي، اكدر اطيكم ذيچ الحجرة الفارغة. الحوش بيه حجرتين. حجرة الكم، وحجرة اليّ. تعالوا شوفوها.

ونهضت من التخت. وقالت قبل ان تتحرك خطوة:

ـ بس اريد اگول الكم شي.. الدجاج تره ماجوز منه! اش عندي بالدنيا غير الدجاج!

قال حسين مبتسماً:

ـ خالة نشمية، البيت مالچ. ان شا الله تربين طيور.

أهت الخالة نشمية، وقالت وهي تتحرك نحو الجانب الآخر من الليوان.

ـ طيور؟!.. ياريت!

واطلقت زفرة. وتدحرجت لتريهما حجرة مستطيلة مبلطة بالطابوق يتدلى مصباح كهربائي من وسطها. وعلى بابها اتفقا على الايجار. قالت الخالة نشمية:

ـ آني حالفه يمين ما أجَّرها لأحد. بلاكت الله غفور رحيم يعرف شكو بگلبي... آني اعرف دگايك الاهل. يريدون يكسرون رگبة البنية مثل ما كسروا أهلي رگبتي، وآني بنية مثل الگمر. بلاكت شوفتهم نجوم الظهر. وذاك الوكت خوب مو مثل هالوكت. البنية ما چانت تگدر تفك حلگها. والمريه هسه تطلع بالجادات.

ضحك حسين وقال:

ـ وتروح للسينمات.

فحدجته تماضر بنظرة. وقالت نشمية:

ـ اي عيني، محصَّن بالله. كل شي تگدر.

قالت تماضر:

ـ خالة نشمية متغيّر شي..

ردت نشمية

ـ لا، عيني، لا . . ليش احنه مدا نشوف!

وضحكت ضحكة ذات معنى

ـ ٦ ـ

ـ سليمة خاتون!

سمعت سليمة هذا النداء على غفلة منها، في لحظة غياب ذهني بعد أن ارمضها طول الانتظار، وسحقت صبرها ايام ثلاثة ثقال.

كانت تقلب الرز في موقد من التنك قرب التنور الهامد. وعرفت صاحب النداء في الحال. ومَنْ ينعم عليها بلقب «خاتون» غيره؟ القت «الچفچير» من يدها. وقالت بقلب خافق:

ـ منو، عيني، منو؟

ـ آني مصطفى. . نسيتيني؟

ولم تعرف هل تفتح الباب رأساً أم تتريث متظاهرة بعدم المبالاة. ولكنها خافت ان يراه احد في الجانب الآخر من الباب. كانت هي وحدها في البيت. فتحت الباب فمسّاها بالخير. وقادته عبر الحوش، واجلسته على الجاون. كان الوقت عصراً. والشمس تلون رؤوس الحيطان. وتمنت من الله ان يبعد شر حسين عنها. وجلست أمام مصطفى جلستها الأولى: الجسم ملفوف بالعباءة، واليد محشورة تحت الفوطة، والفم العريض مطبق، والعينان متدثرتان تحت جفنين سميكين.

ـ آني متأسف، سليمة خاتون، أتأخرت عليج.

قالت:

ـ لا، عيني، بس خليتني بالواهس.

فهز رأسه وقال «حقچ!». ثم القى نظرة عريضة على التنور، وقال:

ـ يبين ممشتغله اليوم.

لم تقل شيئاً عن ليالي سهادها، عن اللهفة التي زرعها في صدرها. بل قالت له كما قالت للناس الآخرين:

ـ أها! . . إش حالي؟

ـ خير، ان شا الله!

ـ صحتي، ابو ابراهيم، تلف

ثم استدركت وهي لا تريد ان تُبدي ضعفاً امامه:

ـ الانسان خوب مو مكينة يشتغل اربع وعشرين ساعة. لازم يستراح.

قال مصطفى:

ـ حتى المكينة لازم تستراح.

ونظر إلى المكينة في خبث، كانت مكورة امامه سوداء من طول ما اخترقت، لا يرى منها غير عينيها الخربتين مثل مقياسين من مقاييس أية مكينة تالفة.

وخلال ذلك، أنَّبت سليمة نفسها على قولها الذي بدا ليس بصالحها فقالت:

ـ باچر راح ارجع للخبز.. عيني، ليروحون يسحبون الاجازة مني.. وهي مدا تتحصل الا بالبراطيل.

وانتظرت مفعول كلامها فيه. ولم تكن النتيجة مشجعة. بدا لها بارداً بطيء الحركة، معقود اللسان. وكانت تريد ان يقول لها فوراً ماذا جاء به لها. ولكنه ظل على برودته، ولم يحل كلامها عقدة لسانه. خلع سدارته الشبيهة بسدائر اليهود، طويلة يبرز طرفاها من امام ومن وراء. ووضع السدارة على فخذه ومسح صلعته بظهر كفه، واخرج سبحته وعلبة سكائره بحركة مزّقت اعصابها. وقال ببطء قاتل:

ـ آني تأخرت عليچ.. بلاكت النبي عليه الصلاة والسلام قال لتستعجلون فان العجلة من الشيطان. والآية الكريمة تقول وعسى ان تكرهوا شراً وهو شر لكم.. الحاصل كل تأخيري وراه خير.

فاتجهت اليه بكل جوارحها. فتحت قوقعتي عينيها اللزجتين، واخرجت يدها من تحت الفوطة. ولاح الترقب على وجهها المنتفخ عارياً من كل خبث. وانفرج فمها العريض في بلاهة وكأنها تريد ان تتلقف كل كلماته، وتمسكها بين اسنانها. وحدس مصطفى ذلك فأطال صمته، وانشغل عنها بلف سيكارته حتى خانها صبرها، فقالت برعونة:

ـ وهسه صارت؟

ضحك ضحكته المكركبة، وقال بثقة:

ـ صارت ونص.

ـ إي!

وفي «إي» كشفت عن كل تلهفها، عن سهادها وانتظارها الممض. قالتها بقوة وكأنها تطلق زفرة كانت تجثم على صدرها.

ـ خاجيك ما جان متأكد راح يشترون منه الانكليز صمون لو لا.

ـ وهسه؟

ـ وهسه متأكد. البارحة جاء له كتاب من الضابط الچبير أبو سبع نجمات. يوميه الف صمونه. والحبل عالجرار. سليمة خاتون، الله رايد لچ الخير.

رفعت سليمة خاتون جفنيها السميكين في محاولة فاشلة للنظر إلى السماء دون ان ترفع رأسها مخافة ان تكشف عما في سريرتها. ولكن التلهف كان مرسوماً في كل ثنية من ثنايا وجهها. ولم يكن هناك ظل لريبة.

عرف مصطفى ذلك فقال لها:

ـ ان شا الله الفلوس حاضره.

وعلى ذكر الفلوس خفق قلبها، وساورها شكها الموروث فقالت:

ـ بس مو لازم اشوف خاصيك؟ مو لازم اعرف اشلون؟

قال على الفور:

ـ لازم.. لعد اشلون؟ قابل تذبين فلوسچ بالشط؟

ـ اي، عيني، احسن.

ـ اذا تريدين باچر الصبح آخذچ عليه لذاك الصوب.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت معه إلى «ذاك الصوب». وبعد الظهر كانت فرحة نشيطة مثل صبية في ربيعها السادس عشر، تتحدث كثيراً، وتشمر بيدها، وتضحك، ولا تستقر في مكان.

كان التنور ملتهباً تخبز عليه بدرية بنت اسومه العرجه. وكانت الفتاة تشكو من العجين «التلف» الذي يسيل من بين يديها، ولا يلتزق بالتنور. وكانت خيرية زوجة رزوقي قد جاءت من الخان، ورفضت الجلوس قائلة «الانسان من يگعد يدبگ»! ووقفت منفرجة الساقين كالبرگال حتى تسمح لمزيد من الهواء بالدخول بين ثيابها. وكانت سليمة الخبازة منصرفة عن «تلف» العجين، ولزوجة الحر إلى سرد جانب من رحلتها الميمونة إلى ذاك الصوب.

ـ عيني، خيريه، هاي بغداد اشلون صايره؟

قالت خيرية وهي تمسح العرق من وجهها الاحمر؟

ـ اي، عيني، الحكومة الله يسلمها خوب مو مقصره؟ واحد يحچي الحق. هالجادات العريضة، والقصور الحلوة. والحدايق اللي ترد الروح، والسيارات . . .

فأتمت سليمة :

ـ والانكليز، والسيك ماليين الدنيا.

وكانت قد رأتهم بأم عينيها ما ان غادرت حيها القديم. كانت سياراتهم تنطلق في شارع الرشيد مجنونة، وجوههم حمر، وشعرهم اشقر. . . كلهم زبائنها. . رأت بعضهم يتجمهر عند باب سينما الوطني. «كب، تب، بب» هكذا كانوا يرطنون. وفي الارض الفضاء مقابل الجسر الجديد رأت الگرگة والهنود جالسين على رفارف سياراتهم أو واقفين «يگرگرون» سود الوجوه، مستديرو الرؤوس، حليقو الشعر، وأحياناً، بلحى تكفي الواحدة منها لحياكة عباءة.

سألت خيرية :

ـ عيني، ام حسين، ليش وين رحت اليوم.

ـ رحت للقصطخانه اداوي عيوني. وشفت اللي شفته.

شافت الجسر الحديدي الذي لم يهتز أو يتأرجح بها مثل جسر الكاظم. وكانت السيارات رايحة جاية. وشافت الصالحية. وابو حصان فيصل. وركبت سيارة ام العانة، ومرت بجادات عريضة، وحدائق واسواق، وأناس بعدد النمل، وكانت تحسب كل بيت مهيب جامعاً، وكل حشد من الناس سوق هرج، وكل دخان تنوراً. وكان مصطفى إلى جانبها يحدثها عن بغداد، ويدلها على الأماكن حتى داخت، واوشكت ان تفرغ ما في معدتها في حضن رجل مقابلها. واختلط عليها كل شيء، واصبح رأسها مثل صندوق الولايات. وآذت الشمس عينيها فدمعتا، وغشت الدموع على كل شيء. الا ان عينيها في هذه اللحظة كانتا صافيتين. نظرت خيرية اليهما فلم تر اثراً لقطرة، فسألت ملحاحة :

ـ اسم الله على عيونچ. . ليش اشبيها؟

قالت سليمة وهي تكبت موجة فرح جديدة :

ـ شرح! ليش التنور يخلي عيون سليمة؟!

قالت الفتاة وقد حركت جوف التنور فالتهب

ـ لو مو التنور چان شكلوا الناس؟ هالصامرن الأسود اللي يلعب النفس؟

تضايقت سليمة فقالت:

ـ الخبز مو احسن من الصمون. . آني خبازة واعرف.

وكانت تعرف ماذا تقول. منذ اليوم اخذت تؤمن بالصمون ايماناً عنيفاً. آمنت به منذ أن خرج خاجيك من الفرن مثل فأر خارج من كيس الطحين، صغير الجسم، مثلث الوجه، يهز رأسه كثيراً. وبعد ان وقفوا قليلاً في الطريق دعاهما إلى الفرن. وكان الفرن جهنم فاستجاروا إلى حجرة ضيقة لصيقة به، وتمت الصفقة خلف بابها المغلق. في البدء خافت سليمة الخبازة حين اغلق مصطفى الباب عليهم، وعرق وجهها حياء. ولكنها، بعد خمس دقائق، ايقنت من ان اغلاق الباب كان ضرورياً.

قالت مدافعة عن شغلتها الجديدة:

ـ الصمون ينباع اكثر من الخبز. . عيني الناس تمدنت.

قالت خيرية مؤيدة:

ـ صدگ. رزوقي، الله يسلمه، ما ياكل الا صمون. والمدير ماله، ذاك المدير الجمّار اللي الله يرضه عليه ويفتح له قصر بالجنة، ما ياكل الا صمون. . اي، عيني، الموظفين ما ياكلون الا صمون.

ركبت الفتاة رأسها، وشمرت يدها وقالت:

ـ والله لو اموت ما آكل صمون. . إخِيه!

ـ ليش والله، ورزوقي يجيب النا يومية من الدائرة صمون عبالك بالوته.

وبلغ الغضب بسليمة اشدَّه، واندفعت إلى غرفتها واخرجت لخيرية صمونة مقطوعة من رأسها:

ـ شوفي هالصمون. . ياخبز احسن منه؟

ـ اي، عيني، الصمون للمحتشمين. احنا موظفين ونعرف. . الحكومة الله يسلمها تسوي ميتين فرن، ولا تسوي تنور واحد.

واصرّت سليمة:

احنه نظل بهالعقل؟ ذوكَي. . عليج الله ذوكَي. .

وكانت سليمة قد ذاقته من قبل، وهي في الغرفة. جاءها خاجيك بهذه الصمونة من فرنها طازجة حارة تتهافت بين يديه، وأطعمها اياها قائلاً «. . ذوگي! . . ! اشلون صمون احنه نسوي»

قالت فخرية:

ـ لا، عيني، عبالك شكر لمه!

ولكن الصغيرة ظلت مصرة. عندت عناداً شديداً اتعب سليمة الخبازة، واتعبها ايضاً. وجعلها تتصبب عرقاً.

ـ خلّيه بالچاي شويه، وشوفي اشلون يصير حامض.

ضحكت خيرية ضحكة مكتومة، واشاحت بوجهها لتخفي ضحكتها. ونظرت اليها سليمة بعتاب. كانت الفتاة تقف امام التنور في ثقة، وفي عينيها بريق تحد، وشفتاها تتحفزان لتقولا شيئاً.

الا انهم سمعوا صوتاً من الشارع ينادي خيرية، فلوت هذه رأسها نحو الباب، وقالت في اعتزاز «شوفوا، عيني، مثل الولد الجاهل، من يجيء من الدائرة ما يگدر يبقى دقيقة من غيري.

وخرجت مستأذنة، ولمع ذيل ثوبها الاخضر في وهج الشمس عند الباب. كانت عباءتها قصيرة تنحسر عن طرف ثوبها، وعن ساقين بضتين.

جلست سليمة الخبازة على الحصير. كان الحصير حاراً. هزت عجيزتها عليه بخفة الفرح، ولذة الانتصار. وكذلك كان خاصيك خفيفاً مرحاً، رجلاً قصير القامة، ضئيل الجسم، ارمنيا ابن ارمني. تكلم بصوت عصفوري عسر عليها أن تفهمه. ولكنها فهمت حين تحدث عن الافران والانجليز. كانت الافران، زمن العصملي، قليلة. ولما دخل الانكليز دخلت معهم، مثلما دخل تمثال الملك مود، وابو الحصان فيصل. وصار الناس يأكلون الصمون اسوة بالانكليز. والصمون خلق للانكليز، وللمحتشمين، وحتى للذين يريدون ان يكونوا محتشمين. وصدقت بالكلمات التي قالها خاصيك، وفسرها مصطفى. في محلتها لا وجود للانكليز، ولا للمحتشمين واهل محلتها، لهذا السبب، يتمسكون بأكل ارغفة الخبز بشكل عنادي، ويعتبرون الصمون أكل النصارى. تعودوا على ثريد «الباچة» ونقيع الباقلاء، واتخذوا الشاي اداماً للخبز، واتخذوا الخبز اداماً للبصل، بل وأكلوا الخبز بلا ادام غير الماء. ذلك لانهم لا انكليز، ولا محتشمين، ولا يريدون ان يكونوا محتشمين. ولكن الحرب ارسلت إلى بغداد الانكليز، والهنود والگرگه والسيك، واصنافاً اخرى من خلق الله. وتمدن الناس قليلاً، وصارت ارغفة الخبز عجيناً اسود مثل صمون السجون. نخالة نوى وتراب. وما زال اهل محلتها مصرين على الخبز. الا أن فرنها ليس في محلتها، قرب حمام سيد رؤوف، ولا بعگد المعدان، ولا

بالعوينة . . بل بذاك الصوب . !

ولاح الرضا على وجهها. ونسيت حرارة الحصير الذي فخرته الشمس. وفكرت بخاصيك. كان عاقلاً، وخجلت أن تكون «معيدية» ومشايفة امامه، وهو جالس وراء الطاولة، وامامه دفاتر طويلة، واقلام، مثل احسن مأمور بلدية. وسلمته الثلاثين ديناراً. فتناولها مصطفى بسرعة:

- اشو اكتب سند للخاتون.

قال خاجيك بصوته العصفوري:

- آني يكتب بالارمني . . . شيعرف عربي!

اعترض مصطفى «الله يرضى عليه»

- لا، لازم بالعربي، الخاتون متعرف الا بالعربي

قالت:

- لعد شتريدني اعرف، مسقوفي؟

وكتب مصطفى ورقة بقلم حبر لا بالبصمة. وآمنت، واستعملت «اي، عيني!» كثيراً. وعاد بها مصطفى إلى الصالحية. سألها قبل ان يودعها:

- ندليتي الطريق؟

قالت كاذبة:

- مو كلش

- مرة اللوّخ تندلين كلش زين.

- عيني شسم المحلة؟

- الارضروملي

وتعذر عليها نطق الكلمة فتحولت في لسانها إلى «الرضرو ملي» ثم انقلبت عند الجسر إلى «الرضوملي» وعند سينما الزوراء إلى «رضومي». وهي الآن تفكر أهي رضومي أم رحومي؟!

ولكنها الآن تملك نصف فرن. والحقيقة انها لا تعرف أتملك نصف فرن، أو ربعاً، أو سبعاً. الا انها شريكة في فرن وكفى!

سمعت بدرية تقول:

- هذا اشلون عجين عيني؟ . . مينلزم بالايد.

ورأتها تخرج خبزاً مقطع الاوصال، مكوراً كالصمون. وقالت للفتاة:

ـ آني أخليه بالتنور، وعبالك شكر ويموع.
قالت سليمة في انفعال شديد:
ـ يعني الصمون مو اشرف؟ احنه نظل بهالعقل؟
نظرت اليها الفتاة نظرة شاردة. كان وجهها شاحباً، وفي عينيها ظل لحيرة، وشفتاها الرقيقتان منضمتان في عناد. وتحولت إلى التنور تخرج منه كتلاً من العجين هي بمشاريع فاشلة لأرغفة خبز. وارتجفت الشفتان في اختلاجة، وادارت وجهها إلى سليمة متوجعة:
ـ هذي آخرتها؟! آخرة التعب. اشراح اگول لأمي؟ أوف، خالة سليمة، لو تدرين اشلون حصلت عالـطحين. لجـان بچيتي عليّ. طلعت من الغبشـة، والضـوايات بعدها ممطفية، والدرابين ما بيها الا الچرخچية اركض حتى اوصل للعلوة ساعة كبل. ولما وصلت شفت الناس نايمين بالگاع، بايتين من البارحة. وكعدت إلى أن فتحوا العلوة. وبدا التدفع والصياح والهريسة. وانكسرت عظامي لما حصلت جارك طحين. وأجي اخبزه يطلع هيچي.
قالت سليمة من طرف لسانها:
ـ ما ادري الله اش راح يسوي بالدنيا
وتابعت الفتاة كلامها:
ـ وتگـولين عالصمون!.. الصمون مو أحسن من الخبز. هذا فرن سينما الزوراء. تكعدين ثلاث ساعات يله تحصلين صمونتين ثلاثة، صمون السجون أحسن منها.

ـ ٧ ـ

كان مصطفى أحمد من اصل كوفي جاء إلى بغداد وهو فتى في العشرين من العمـر مؤملاً فيها مغنماً، وحياة عريضة. وتقلب في اشغال شتى، وجاب بغداد رصـافتها وكرخها. ولكن مسعاه كان ينتهي دائماً بالخيبة والخذلان، في اللحظة التي يحسب فيها أن نجم سعوده يوشك أن يطلع. وكانت كل خيبة تترك جراحاً في جسمـه وروحـه. اشتغـل مصـطفى، ضمن ما اشتغل، في علوة للمخضرات، وتسلق، من مجرد كاتب يسجل الخضروات، إلى وسيط لا غنى لكل تاجر عنه. ولما اوشك ان يصبح تاجراً رفسه حصان كان يحمل طماطما حتى كاد يفري مثانته،

واصاب الشلل مصطفى فكان يحمل في نقالة. وصرف كل ما جمعه على الاطباء. وقضى فترة من الزمن عاطلاً حبيس البول، محني القامة. وفي تلك الفترة اصابه ورع فجائي، وتقوى جعلته يغشى مجالس الذكر والدعاء على الحسين حتى حفظ بعض الآيات القرآنية هي الآن ذكرى من ماض سقيم. ولما اعتدلت قامته اشتغل في كَراج للسيارات يسجل صناديق البضاعة، ثم دلالاً. وفي تلك الفترة تعرف على عليوي زوج سليمة الذي كان صاحب سيارة. وتعلم مصطفى السياقة، بل واشترك مع رجل آخر في شراء سيارة عمل فيها زمناً في طريق بغداد ـ الكوت، وبعدها احتال على شريكه فاشترى حصته، ووضع أول قدم في طريق الغنى. الا ان النكبات توالت عليه. تصدت له كوكبة فرسان مسلحة ما بين العزيزية ونقطة الشادي، وأوقفته عنوة، وسلبت فلوسه وفلوس ركابه السبعة، وشقت بالخناجر اطارات سيارته. ومرة غطست سيارته في الوحل قرب ديالى، وتفرق الركاب يخوضون في الوحل إلى أقرب مكان مأهول خوفاً من أن يجمد البرد اوصالهم وأصرّ هو على ان يبات في سيارته، وقضى ليلة ليلاء في العراء الزمهريري حتى اصيب بالحمى، ثم بالتيفوئيد. وباع السيارة بثمن بخس. وجاءت فترة بطالة انتابته فيها نوبة ورع ثانية انتهت حين اشتغل عند الانكليز كسائق لوري. وهناك ذاق الويسكي، وطعم المعلبات يشتريها من الجنود الانكليز المفلسين حتى ظفر به ضابط محملاً بالمعلبات حمولة تكفي سرية كاملة من الجنود فطُردَ، وعانى البطالة مرة أخرى. ولكن عمله في الجيش البريطاني دلّه على تجارة رابحة لا تكلف غير رأسمال متواضع، واستخدام ذكي لبعض ذوي الصلات والخبرة بالجيش الحليف. وكان خاجيك من هؤلاء.

التقيا بعد يوم واحد من زيارة سليمة الخبازة لذاك «الصوب». وكان اللقاء في مقهى في الشواكة يتردد عليه عاطلون يلتقطون اي عمل عابر لقاء وجبة طعام، وسواق سيارات ما زالوا وراء مقاود سياراتهم، وآخرون يحلمون بها. وكان المقهى خالياً حين جلسا ينتظران حتى سمعا خرخشة الساعة المعلقة على بعد ذراعين من مجموعة السماورات. وكان مصطفى متمالك الاعصاب رصيناً بادي الثقة بعكس خاجيك الذي بدا متوتراً ممتقع الوجه يكثر النظر إلى الساعة. طلب مصطفى ماعون كباب والتهمه بنهم، ثم طلب شاياً «يكَعد الراس» ولما فرغ منه دقت الساعة الواحدة وبعدها بقليل جاءوا.

في البداية جاء شاب قصير بلا رقبة يشمر ردني ثوبه الازرق عن عضلتين مفتولتين، وسلم وجلس إلى جوار مصطفى. فنظر اليه خاجيك بعينين قلقتين وسأل:

شنو اخبار؟

ـ كل شي زين.

الا ان مصطفى نظر في وجهه وسأل في ثقة:

ـ شفت المستر گلاب؟

ـ اليوم الصبح وصلته لمعسكر الرشيد.

ـ اي؟

ـ احنه متفقين.

مدّ خاجيك عنقه وسأل في تطلع:

ـ هو يشتغل بالمخزن إلى هسه.

قال الشاب:

ـ لا، بلاكت شعليك؟... جيب فلوس اشتري لك معسكر الصالحية كله.

هزّ مصطفى رأسه وقال:

ـ هاي معروفة.. ميراد إلها روحه للقاضي.

وبدأوا يتوافدون على المقهى واحداً بعد الآخر. سواق سيارات ما زالوا وراء مقاود سياراتهم. وكان على كل واحد منهم أثر من الجيش الحليف: قميص أو بنطلون أو حزام أو حذاء خاكي اللون.

قال احدهم وكأنه يهدد:

ـ والله، عرش الملك.. عرش الملك همينه.

ـ اش بيه عرش الملك؟

ـ اكدر اشتريه.. عاد شكر وجگاير وملابس وويسكي.

قال مصطفى:

ـ لتطلع حسك.

وبدأت العملية في اليوم التالي. جلس مصطفى في مقهى في الشواكه. وارسل خاجيك في مهمة تسلل إلى الذين بايديهم مفاتيح المخازن. ونجحت المهمة. وبدأ السواق يتوافدون تقف السيارة على بعد من المقهى حيث لا يراها

أحد. وينزل السائق منها ويناول البضاعة ملفوفة. وعند العصر تحولت دنانير سليمة الخبازة الثلاثين إلى سيكائر، وشاي، وسكر، ومعلبات وويسكي سكوتش.

وتجمعت البضاعة أمانة في دكان حلاق. وفرك مصطفى يديه وهو ينظر اليها منتشياً. وناجى نفسه: خلي ابدأ من جديد، واشتغل بعقلانة، وما خليها تفوت مني. ايه يا دنيا آني الج!

وقبل ان تدلف الشمس إلى خدرها دلف مصطفى وخاجيك إلى حانة قرب سينما الملك فيصل الثاني في جانب الكرخ. كان النهار في خارج الحانة. وكان الليل في داخلها هرماً. الموائد حمراء مثل عيون محتقنة، مبتلة وقذرة عليها أكوام من القشور واعقاب السيكائر، وفضلات كؤوس مراقة. وكان الساقي يروح ويجيء بين الموائد والمنصة حيث وقف رجل اصلع مدبب الانف.

استقبلهما الساقي بترحاب. واختار لهما مائدة فرش عليها مفرشاً جافاً. وسأل مصطفى:

- اشو اليوم خبصه؟.. الليلة مو ليلة جمعة.

قال الساقي ولهجته لا تنم عن شكوى:

- عمي، يايوم ما بيه خبصة؟

جلسا على كرسيين متقابلين. واحنى الساقي رأسه متسائلاً فقال مصطفى:

- نص اليّ، وربع للأخ من الأصلي

قال خاجيك معترضاً:

- آني يشرب نص ربع

- نص ونص ربع، ومزة من اخ لأخوه

قال الساقي:

- تؤمر ابو ابراهيم

ارتفع صوت مكروب بأبوذية من اقصى الحانة. وكان بالقرب من البار سكران يترنح ويجادل بنوعية العرق الذي قدم له. وكان دخان السيكائر الذي تنفثه الافواه يظل معلقاً فوق الرؤوس لحظات ثم يتصاعد ببطء نحو المصابيح.

جاء لهما الساقي بالمشروب، وبطائفة من الصحون الصغيرة صفها على المائدة الحمراء.

قال مصطفى:

ـ عاشت ايدك . . لو هيچي المزة لو متراد .

ـ على بختك ابو ابراهيم . . هذي كل الاصناف اللي عدنه ، وخلّ يموت ابو خشم الدرنفيس

قال مصطفى وهو يرفع زجاجته من عنقها كطائر اسود ذبيح :

ـ بس الثلج وازنه بالمثاقيل .

ـ ابو ابراهيم وين اكو ثلج هالايام . . اسأل عالخام ولا تسأل على الثلج .

ـ زين روح جيب إلنه فصين ثلاثة

ـ على كيفك ويايه ، وكل شي يجرى لك .

وانسحب الساقي . افرغ مصطفى ثلث زجاجته في قدحه . ووضع قطعة ثلج بتؤدة ، وصب على الكأس ماء فلاحت الخمرة بيضاء مزرقة يلوح الثلج من خلالها مثل قطعة بلور . ورفع الكأس بمحاذاة حنكه ، وقال :

ـ يله ، ابو فلان ، صحتك

بدا خاجيك يهيء كأسه بيد مرتجفة . كان كما رسمته سليمة الخبازة ضئيل الجسم ، مثلث الوجه . وانسلت الخمرة في حنجرته لاذعة فشمها في خياشيمه . وقال مصطفى بعد ان تسلق ضباب إلى اليافوخ :

ـ اليوم خوش بدايه بدينه

ـ معلوم ، انت ميصدگ .

ـ هاي شنو منك أبو فلان؟

ـ شنو شنو؟

ـ يعني لو ما الفلوس اش تگدر تسوي ؟

ـ انت يروح ويجي عالفلوس .

ـ لتسوي قنزه ونزه . . لو مالفلوس ما صار شيء . . صحتك .

ابتسم خاجيك مسايراً وقال :

ـ مو كل الفلوس على راسي (يعني ليس بالفلوس وحدها تسوي الامور)

ـ شن هاي منك ابو فلان؟ يعني احنه ما خاشين ما طالعين؟ انت صحيح تعرف مستر گلاب وجم واحد . . بلاكت آني هم عاجنهم وخابزهم . عندك درهم يقدروك على گده . سيد خاجيك الدنيا واكفة على فلوس مو على گرن ثور . . وانت شم عرفك اشلون رحت على كرايبي ، وسويتها مثل البرغوث المفروك؟ تركض

والفلوس شادتهـا بالفـوطـه. وآني خوب ما راح انسـه فضلك؟ كل شي حساب وكتاب. . صحتك!

ورفع كأسه، ورأى عيني خاجيك الحزينتين. كان خاجيك عابس السحنة، ينظر اليه وهو يعب الخمرة اللاذعة بيسر فقال:

عبالك يشرب ماي.

- وهذا هم تحسبه عرگ؟ . . مغشوش . . الله وكيلك كل شي بالدنيا مغشوش

وكان يشعر بخدر العرق مثل جيش من النمل يتمشى في اوصاله. واستقر رأسه على الحائط، وراح يفكر بالدنيا المغشوشة. نظر إلى نقطة معينة من السقف ومرت سليمة الخبازة في ذهنه. ماذا تفعل الآن؟ ساءل نفسه، وبماذا تفكر؟ ألعلها ستعود إلى الخبز لتكسب موردين في آن واحد، أو تخلد إلى الراحة مؤملة أن يدر لها فرنها في الارضروملي، أو الرضروملي كما سمعها تقول. ومن يدريك! فقد تنسى الاسم رغم أن خاجيك ليس في الارضروملي. . كل شيء جائز. ما دامت تحسب بيت السـويدي جامعاً، وحشد العاطلين امام المفوضية الانكليزية سوق هرج، وعربات القير تنانير. والتعامل معها أسهل. وسرته النتيجة ومرّ العرق على ظهـره لمسـات عاطفية. فخـاطبهـا. . هلو سلومي! خاطبهـا مغمض العينين، مسترسلاً مع خدر العرق والعاطفة ونشوة الظفر. سويتي نفسچ متعرفيني! عجيب! متذكرين لما چنت آني وعليوي نسكر بالظلمة بالسطح؟ عجيب! انسي احسن، وخليني بفكرچ ابو سبحة سودة، قاري قرعان. چنتي مثل الحزوره ملفوفه بعبايه سوده، تحچين، وأنت يم الدرج، يم الجداري والمواعين وحسين مكسور الركّبة. واحنـه نشـرب العـرگ يم الـطوفة. وكان يحملق، آنذاك، في الظلمة، والخمرة تخشب عينيه. كان لا يرى غير قامتهـا الفارعة تروح وتجيء هناك. وكان يحس بالسطح يهتز تحت قدميها الحافيتين في رنين بديع فيتخيلها لابسة خلخالاً. وكم تمنى لو رآها سافرة. ولكنه رآها يوم دفنوا عليوي. . . اوه، انه لا يريد ان يتذكرها بتلك الصورة لا يريد.

وهز رأسه نافياً الافكار. وفتح عينيه، ونظر إلى كأسه الفارغة في امتعاض، فادهقها ثانية وشرب نصفها

وسأله خاجيك:

- الغراض يبقى عند جاسم المزين؟

قال مصطفى :

ـ لا ، لازم نشوف إلها مكان أمين .

قال خاجيك :

ـ بالبيتي

ضحك مصطفى ضحكة مصطنعة وقال :

ـ يامعود، لحلك السبع؟

ـ ما حد يگدر على انت

ـ العفو، مستر خاجيك ، بس الانكليز زعلانين عليك شوية .

وفكر، وكان التفكير غائماً كالحلم . واجتاحه فرح عفوي آت من لا مكان ، ولـذة استـرخـاء . وعاد يفكر بسليمة مرة اخرى . نظر إلى خاجيك وهو مسترخي الجفنين ، ثم فتح عينيه المحوصلتين وقال :

ـ گرايبي وآني أعرفها

ـ انت يروح ويجي على گرابيك

ـ ماكو احسن من هالمكان ، حوش چبير وهي وابن رجلها ، ولو ما ادري شنو حسبته ، و . . . واكو حجرة فارغة .

وأسند رأسه إلى الحائط فرأى للمصباح قروناً ضوئية . وفكر. محلة أمينة لا يعرفها أحد، وسليمة كنز لا يفنى . الدينار يجيب عشرة ، وارتاح لذلك ، واعتدل في جلسته فقابله وجه خاجيك العرق فقال له في انفعال :

ـ خاجيك ليش زعلان؟ قابل عندك أحسن من هالمكان؟ محلة مستوره ماكو بالدنيا أحد يعرفها . انت سامع بصبابيغ . . . . المثقال؟ . . سامع بطولة حاج . . . رشيد . . . خاجيك آني اعرف ذيجي الصفاح . . احسن منها ماكو، محلة محشوگة بفـد زوية . وأهلها ملتهين بلگمتهم . وميعرفون اش يجري بالدنيـا . لا يعرفون عمك شرشل ، ولا ابن خالك هتلر.

وشعـر بارتخـاء مخـذول ، وكسل عن تحريك لسانه . وانسحب إلى عالم افكاره حتى اخرجه منه صوت بالقرب من اذنه :

ـ آني اعرفكم منو . . من جماعة هتلر. هيع .

نظر مصطفى إلى يساره فرأى رجلاً قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، متهدل الجراوية كان يميس قرب المائدة ، ويتفوق بدون انقطاع .

قال مصطفى في صوت ممطوط :
- يا معوّد . . .هالطلابه شلك بيها؟
قال السكران بعد أن ماس ميستين :
- يعني هاي هم يريد لها روحه للقاضي؟ هيع . . هسه
قال خاجيك بارتباك :
- دير بالك . . يحچي حچي !
وكأن السكران عثر على لقطة . ماس ميسة واحدة واستدار نحو خاجيك، وحدق به لحظة متكئاً بيده على الطاولة وقال وهو ماض في تفوقه :
- عينـا . . هيع . . . نواية ومقسومة قسمين . . . شكلك شكل هتلر هيع، هالحنچ، وهالعيون، وهالهيع النازل على الگصة، وهالشوارب السودة . . لتنكر؟ هيع !
نهض مصطفى وأطل على السكران من عل :
- ليش تبلي الرجال بطلابه؟ . . هو وهتلر شنو؟
رفع السكران اليه عينين حمراوين وقال من اقصى حنجرته
- واشدعوه تنكرون؟ تخافون، هيع، يروحون جلدكم للدباغ؟ أشو الفاو مثل حمام العليل، هيع .
جاء صاحب الحانة على الصوت يخفق كرشه أمامه وقال :
- ابو فتوحي، اش بيك اليوم دتعـارك؟
قال ابو فتوحي بصوت مخن :
- مادا اتعارك ابو رمزي . . هيع . . بس ميعجبني واحد هيع يخاف . . نازي، هيع، يگول نازي . . شيوعي يگول شيوعي . . اروح فدوه لهالخشم اللي عبالك رحاتي . .
كان صوت السكران يرن في الحانة المستطيلة كلها . فتحولت اليه الانظار، وقال احدهم من اقصى الحانة :
- اش دعوه مخششين راسكم بالعليجه؟
فنفى ابو فتوحي ذلك قائلاً :
- كل عليجة ماكو . . . بس الأخ، هيع، يشبه هتلر.
قال مصطفى :

ـ وانت تشبه موسوليني !
فارتاح ابو فتوحي لهذا الشبه وقال منتشياً :
ـ ارجوك، خلي جلدنه ساتر علينه
قال مصطفى :
ـ كل الطليان لهالطريق
وتفوق ابو فتوحي وفوت عليه فواقه فرصة الرد. فعاد مصطفى يقول :
ـ روح اشرب لك كاس حتى تروح الشهيگة
قال ابو فتوحي :
ـ يعني نجوز من الحسبة؟
فنعق احدهم من مكان قرب المنصة :
ـ حيّ العرب
قال صاحب الحانة متوسلاً بمن حيا العرب :
ـ سيد مختار، دخيلك
فزعق آخر من وراء صاحب الحانة
ـ ظلمت حي العرب، وجنود هتلر يتراكضون گدام الجيش الأحمر مثل الغنم؟
فالتفت صاحب الحانة في رعب :
ـ ارجوك خليها سنطه
قال له السكران في مرح وهو يهزّ له اصبعاً عرجاء :
ـ كل الصوج من عرگك. . طابور خامس!
وقال سكران آخر لم يرد ان تهدأ الضجة .
ـ يعني ، هيچي ، يروح هتلر بوله بشط؟
حاول ابو فتوحي ان يحتج فتفوق. فقال الذي اعترض على «حي العرب»
ـ النصر لنا، ولحلفائنا. . نخب الجيش الأحمر.
فظل صاحب الحانة يدور برأسه ذاهلاً، ويهدىء زبائنه بحركات عصبية قصيرة من يديه، فقال ابو فتوحي مغتاظاً :
ـ هاي شيفلها وياك؟ انت بيا صفحة؟ اشو هتلر تخاف منه، ومن الجيش الأحمر ترجف. . يعني شنو مقصودك؟ نخب ابو صماخ؟ لا سيد، الرزق عالله .

صاح ابو «العليجة» بصرامة هذه المرة:

ـ خاطر الله، اشبيكم مخبوصين بالسياسة؟ فكروا بالتموين، بالغلا الاسود، وبالطحين المغشوش، والصابون، بالشخاطة اللي اشتريتها اليوم بسطعش فلس.

رضى مصطفى بهذه الفكرة وقال:

ـ بنا موسي تمام.

فقال الذي شرب نخب الجيش الأحمر:

ـ صدگ، خلصت گلوبنا من الحرب.. ياربي اش وكت يموت هتلر، وتفرج علينا.

ـ ٨ ـ

قبل ان ينزل مرهون من السطح ليعد الخيول والعربة للمرة الاخيرة صعد الطابوقتين الموضوعتين في اسفل الطوله الفاصلة بين الطوفة وبيت سليمة الخبازة، ونظر، ورأى السطح فارغاً الا من حسين وتألم. كان بحاجة إلى ان يتحدث اليها، إلى تلك التي كان ساعتها التي لا تؤخر ولا تقدم. فهذا اليوم الاخير من حياة الطولة يأتي، وقلبه مملوء بالشجون، وهو وحده مع الخيول والعربة.

اشرأب ونظر إلى صحن الدار فرآها مقرفصة هناك قرب النخلة القمئة حاضنة ركبتيها بين يديها، تطيل النظر إلى النخلة جامدة فعجب بما رأى، وخاطبها في سره، هاي إش صار بيج سليمة، مثل حظي؟.. بعد ذيج الهمة والفلوس الحلوة والناس خاشه طالعه تصيرين هيچي؟ شكو وره هالصفنه؟ «نزل من الطابوقتين، وهبد الدرج خائباً مدمدماً، واتجه نحو المعالف، واخرج الخيول منها، وقادها إلى الحنفية وسط الطوله وغسلها. ودلك جلدها بكيس اسود، ثم تركها تعود إلى معالفها. كانت مثله تعرف اين المعالف، واين الحنفية. بل وهمّ احدها، ذات مرة، بان يصعد الدرج عندما كان حصاناً فتياً. وملأ مرهون صفيحة بالماء، واخذ يغسل العربة. وبعد ان فرغ من عمله دخل الليوان، واشعل الموقد النفطي، وهيأ الشاي. وجلس ينتظرهم. وقبل ان يصب قدح الشاي جاء حمادي بضجته المعهودة:

ـ وينك ابن الحجية؟ ما اجو الشرايه؟

ودخل، وتلفت في الطوله وقال مرهون:

ـ مد تشوف بعينك

ـ لتزعل ابن الحجية! . . اشو صب لي چاي

وجاءوا بعد ارتفاع الضحى. اثنان احدهما اصلع. والاسود موفد من حاج احمد اغا. وفحص المشتريان العربة طويلاً، وصعدا عليها، وهزّاها حتى قال العربنچي في سره «راح يكسروها!» وبعد ان نظرا اليها من وراء ومن خلف قال الاصلع «برشقه!» وتحولا إلى المعالف وفحصا الخيول الثلاثة بدقة. فتحا فكوكها، وعدا اسنانها، ورفعا الذيول، ونظرا. ثم ضربا على اعجازها. وقال الاصلع «كلها فوگ العشره» عجبا اشگد راح تعيش؟» وبدا عدم الرضى على وجهَيْ الغريبين. وجالا ببصرهما في ارجاء الطوله. فرأيا على اليمين اشلاء عربة متربة ملقاة جنب الحائط. عجلتان صغيرتان. . ونصف رفرف قديم، وهيكل صدىء لمقعد. نظرا اليها وهما لم يبرحا المعالف، وزاد من يقينهما بأن كل شيء في الطوله مستهلك وغير صالح للاستعمال. كان سقف المعالف فوق رأسيهما مبقوراً، والحصيرة الهرمة تتدلى في وعيد، والأعمدة الثلاثة التي يستند اليها السقف سوداء منخوبة في الوسط. وكانت احجار الحيطان كلها مخلخلة لا يشد بعضها إلى بعض شيء. تفحص الرجلان كل شيء في الطوله بعيون قلصها وهج الشمس. وكان مرهون وحمادي والاسود يتبعونهما اينما اتجها. وعادا إلى العربة ثانية، ثم إلى المعالف، ثم نظرا باتجاه الحنفية. ثم قال الأصلع في سلطة:

ـ زين احنه نتفاهم ويه الحجي

وصر الباب خلفهما. وصاح العربنچي وهو يمسح يده بدشداشته:

ـ عبالك ديشترون الدنيا! . . صار لهم ساعتين يروحون ويجون. . وهي حصونة ثلاثة مبينة حي عالصلاة، وعربانه تنعرف من غمزة وحدة.

واتجه إلى الليوان في زعل. وكان مرهون مايزال ينظر إلى الخيول. ناداه العربنچي

ـ يله ابن الحجية، خلّ نكمل الچاي

قال السايس:

ـ هذا يا چاي اكشر!

ـ يله، خوب ما نموّت نفسنه. . سليمة الخبازة من مات رجلها مسوت هيچي.

وصب له قدح شاي بارد، ووضع في فمه ملعقة سكر أحمر، وجرع جرعة

كبيرة. وجلس مرهون على الارض. وقال:

ـ شوف الأسود، كلمة وحده ما حجه ويانه. . اشدعوه!

ـ ميخالف ابن الحجية، ظلت على هذي؟

فغضب مرهون فجأة على لقب «الحجية» فقال في زعل:

ـ هاي، اش باليها لأمي وهي بگبرها؟

ـ ليش داسبها؟

ـ منين جا لها الحجِ، وهي للنجف مرايحه؟

ـ يعني اذا عدها عُشر ما عد حاج احمد اغا مراحت واخذتك وياها؟

ـ راحِ تأخذني هسه.

ـ ظلّ اسحن.

ـ حمادي ليش متروح تسكر. . اليوم ما عندك شغل

كشر حمادي عن انياب ثلاثة ضائعة في فم اهرت، وطاب له الاقتراح وقال:

ـ هاي انت مثل ام خشم الاقچم (يقصد زوجته) تسوي من الحبه كبه.

خاطب مرهون نفسه «هاي ياحبه، ياكبه. . هاي بليه سوده»

ونهض ماداً بصره عبر الطوله. كانت الشمس تزحف باتجاه العربة، والخيوله ساكنة مسبلة الذيول، والحنفية ترسل بقبقتها الابدية، مشى مرهون يجيل البصر فيما حوله. هذه القطعة المستطيلة من الارض، المسورة بصفائح نخرة، المكشوفة للحر والبرد كانت ماواه، وشاهدَ ايامه الماضية. جاء اليها حين كانت الحياة ربيعاً، والطوله في سامق عزها. وكان مثل السلطان على مملكة. كانت هناك سبعة خيول، وعربتان، وعربنچيان، وسائس آخر. وكان الحاج أحمد اغا لا يبارحها، ويشتري لها ما تحتاج اليه. اذا فطس حصان جاء بآخر في حوله الخامس، واذا بلي شيء من العربة اسرع في تجديده. وكانت الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس. وللفلس قدره، والاربعة فلوس توصلك للكاظم. وذراع الخام الابيض بأثني عشر فلساً، ورغيف الخبز بفلسين. وحين كانت العربة في الشارع يصفق لها الاطفال. ثم جاءت الحرب، وهزت كل شيء من الأساس، وجعلت الاسعار في نار. والأكثر من ذلك حملت حاج احمد اغا إلى ذاك الصوب. وصارت الطوله، مثل مريض بـ «ذاك الداء» كلما مرّ الزمن اعرجِ، وتحولت العربة الثانية إلى اشلاء ملقاة الآن في الطرف الثاني من الطوله، وأستغني عن سائس وعربنچي. والآن يأتي يوم

القيامة، ويضيع . . .

ـ ابن الحجية آني رايح

أجابه دون أن يلتفت:

ـ شعليه منك، روح.

وكان يحس بالعرق يتحدر على حدبته، وبحرارة الارض تحت قدميه. وعاد إلى الليوان. وكان لا يعرف ماذا يفعل. دخل الغرفة إلى يمينه. فحياه السقف بحفنة من تراب ناعم نزل على حدبته. فرفع رأسه إلى السقف، وقال في نكد «هذا حظي . . حفنة تراب؟ . . الحمد لله والشكر». كانت الغرفة مربعة الشكل، فيها سرير خشبي عار، وصندوق قديم قرب السرير عليه «بشطمال». وكانت على الارض مشربة، ونعال بُني، وعلى الحائط علقت دشداشة چيت أسمر إلى جانبها حزام عريض في مسمار آخر، وعرقچين، وفي الزوايا مخطان الشيطان.

جلس مرهون على سريره، وتلفت في ارجاء حجرته وكأنه يريد ان يحكم، هو الآخر، على طولة الحاج احمد اغا. وبعد ان ادار رأسه قال في استسلام «صدك يا به صايره عتيگه . . وباجر عگب باچر توگع من كيفها . . من يذكر على طولة حاج احمد اغا؟» وعاد يرمق الجدران، وينظر إلى الشمس تنحدر على ذرات زرق من «السماية» فتكشف جانباً من الحائط المنفوخ اسفله بالهواء. وهزّ رأسه وقال:

ـ بلاكت هم لگت شرايه . . الطوله انباعت، والحصونه والعربانه راح تنباع . . بلاكت انته يابن الماكلها الدود من يشتريك؟

وصمت لحظة وكأنه يفكر في الشاري. وخاطبه هاجس في داخله:

ـ هَمْ اكو!

ـ منو؟

وسمع الهاجس يقول:

ـ الموت . . . احسن مشتري.

ـ ايه، ميخالف.

وتنهد مرهون متحسراً. فقال له الهاجس:

ـ على ويش دتتحسر؟ . . اش عندك بها الدنيا حتى تتحسر عليها؟ خايف تفاركها؟ ماما، بابا؟ ولد، تلد؟ . . . خلگك دشداشة تلفها على بدنك وتنام، وذيچي النومه.

ـ اي، هذا هم نصيب
ـ كل شي قسمة ونصيب وارادة الله.
قال باحتجاج فجأة:
ـ وشمسوي لله حتى يطيني هيچي قسمة؟ سبيته؟ حچيت عليه؟
ـ لتكفر مرهون، لتكفر
ـ والله اريد أكفر بلكت يصير براسي خير. . . ليش حاج احمد اغا مچان يكفر يوميه؟

بعد يومين جاءوا ليتسلموا الحصانين والعربة. وتركوا الحصان الثالث لمرهون ليأخذه إلى وراء السدة، ويتركه في البرية هائماً حتى يفطس، فقد كان حصاناً عجوزاً حسبوه لا يقوى على جر عربة. وخلت طولة حاج احمد مما تعودت ان تضمه اكثر من ربع قرن من الزمن. وبدت هرمة فارغة مثل فم عجوز، ساكنة لا يتحرك فيها الا تلك الحنفية وسط الحوش ترسل بقبقتها الأبدية.

وبعد اسبوع جاءوا ليقلعوا الطولة من الوجود. وكانت مستسلمة متخاذلة. فكوا بابها الصفائحي في الصباح، واستباحوها وفي ايديهم المعاول، واعملوا الهدم فيها. بقروا سقوفها، ونفذ الهواء النقي والشمس إلى الأغوار العفنة الكسيحة. وفي الضحى تجمهر عدد من اهل المحلة قرب دكان صاحب ابو البايسكلات، وظلوا يحدقون بها في دهشة وامتعاض، وكأنهم احسوا بوجودها لأول مرة وبكل ما يحمل هذا الوجود من عفونة وقذارة وقبح. حدقوا صامتين في أول الأمر. ثم امتلأت نفس خيرية بالمرارة وقالت:
ـ عيني، هاي اشلون عتيگة وجيفة ولعبان نفس! . . زين سوت الحكومة الله يسلمها!
التفت اليها صاحب ابو البايسكلات وقال:
ـ لا تخافين، لو يهدون بيوتكم، لا سامح الله، چان شفتي نفس الجيفة!
تحركت رديفة زوجة حمادي العربنچي وقالت في حرقة:
ـ اي، عيني من المايات
صاحت «الحكومة الله يسلمها»
ـ لا، من الوساخة والتگرفع.
ـ من المايات والسيان المالي البيت والعگد.

صاحت سليمة الخبازة، وكانت قد خرجت ايضاً لتودع جارتها الجنب.
ـ اسكتوا عيني! . . خل نشوف اش راح يبنون بمكانها!
قال صاحب:
ـ مدرسة بنات.
أهت رديفة وقالت:
ـ الدورة راح يخششون براس البنات جني (ربما كانت تشير إلى اسطورة قديمة هي أن الطوله مسكونة بالارواح)
هزّ صاحب ذراعه:
ـ الجني براس الجاهل مثلج . . انت عمرچ شفتي جني؟
ـ اها. . . يعني الله شافوه لو بالعقل؟
قالت سليمة الخبازة:
ـ اكّـو جني؟ اشو ست سنين اگعد يوميه مرتين بالليل، وما تراءى لي أي جني. . يمه اصل الايمان ال بالگلب.
انتهزت خيرية هذه الفرصة لتوقع غريمتها أكثر:
ـ بعد ظلّت جناني، والحكومة الله يسلمها ماليه الدرابين بالضوايات؟
اغتاظت رديفة فقالت في برود وسخرية:
ـ صدگ نسيت. . . الحكومة الله يسلمها لمت الجناني من الدرابين.
قهقه صاحب وقال:
ـ هسه گمتِ تفهمين
وخجلت خيرية لأن النكتة موجهة اليها فقالت مستميتة في الدفاع عن الحكومة:
ـ الحكومة كل شي تگدر تسوي. . الله يرضه عالحكومة.
فانبرى صاحب لها:
ـ متسكتين، ملة تلفخ! حكومتچ مثل طولة حاج احمد اغا جايفه يراد لها شلع من الاساس. . لتخلينه نحچي ويعتبرونه نازي!
قالت خيرية متأففة وقد عكفت بيديها تحت ثدييها الناهدين:
ـ أوي عيني. . انتو متتخششون بالعب.
فخشـت سليمة الخبازة في الحديث وتساءلت مرة اخرى:

ـ اسكتوا عيني . . . لو يسوون قصطخانة يداوون بيها عيون الناس .

قالت خيرية :

اي ، هاي المريودة من الحكوْمة . . . أكو كل عيون مخنفسه ولا اللخ .

وكانت تشير بذلك إلى عيني غريمتها رديفة ذات العينين المغوليتين مثل شقين في خشبة سمراء . ولكن سليمة الخبازة حسبت انها تعنيها ، فنظرت في عتاب وقابلتها عينا خيرية الواسعتان السوداوان .

ـ مو الله يطي الجوز للما عنده سنون !

قالت رديفة مؤيدة :

ـ الله يرحم والديچ . . الزمال هم عيونه چبيرة

قالت خيرية

ـ أها . . . سوتنه زمايل !

قالت رديفة :

وانت منو وياچ . . انت وحدچ عيونچ چبيرة . قحط !

ـ رديفة . . الطوله راحت ، ليش متروحين وياها؟

ـ لو تموتين . . راح اگعد على گلبچ

ـ اي ، الذبان من يگدر يكشه؟

ـ الذبان انت والخلفچ .

صاحت خيرية :

ـ رديفة ، تسكتين لو أجي أشككج وصله وصله .

قال صاحب في سخرية :

ـ اي ، مكتوب بالتواريخ . . من تنهدم الطوله يصير دمها للركاب .

ـ ٩ ـ

كان حسين ينظر باتجاه الشارع العريض . وكان يرى من مكانه على سرج دراجة مسندة على الحائط صبياً يحاول ان يمتطي دراجة «ام الثمانية والعشرين» بالقرب من الطوله . ويحاول ان يصعد على السرج ، ولكنه يتمايل في الحركة الثانية ، ويرتطم على الارض على بعد ذراع ، ويترك الدراجة ممدة على الارض ، ويتحسس يده . خمن حسين أنها مقشوطة . كان يعرف ذلك من تجربته ايام زمان .

ورأى الصبي يرفع الدراجة مرة أخرى، ويعيد الكرة ويرتطم. كان حسين يحس بصوت الارتطام دون ان يسمعه. وقال في نفسه «لو يشوفه صاحب چان تخبل». ولكنه لم يجد الرغبة في ان يقول له. بل فكر كم من الوقت قد مرّ دون ان يركب دراجة. وعجب من نفسه كيف ماتت تلك الرغبة الشبيهة بالادمان. وقال وكأنه يتابع سلسلة افكاره:

ـ اش گد چان يعجبني اركب بايسكل!

ـ وهسه؟ سأله صاحب دون ان يرفع عينيه عما بين يديه

ـ كل شي ميعجبني. كبرت بالعجل.

ـ چبير. لو ما مرة ابوك چان اخذوك جنديه

كانت تلك الحقيقة توخزه. وتابع نظره إلى الشارع. كانت الدراجة ملقاة على الارض. ربما هذه هي السقطة الخامسة. ونهض الصبي شابكاً يديه. فخمن حسين بأن يد الصبي دامية الآن ما محالة. ولكن الصبي اعاد الكرة. وقال حسين في نفسه «مو هذا الوكت ديروح عليك» وشعر بثقل الزمن. هو الآخر يفوت الوقت عليه ولكنه يشعر بتراخ وهو على السرج. والآن اراد ان يتحدث.

ـ ما ادري اش گد راح تظل گاعدة ام العيون المنتفخة.

ـ گعدتها عجيبة، متعرف السر؟

ـ علمي علمك

ـ متحچي؟

ـ لا، خاشه بالسبت. النهار كله مطروحه على الحصير، مثل المريه الگامعة رجلها.

وتخيلها منطرحة على الحصير قرب الغرفة الخالية. وذكره ذلك بشيء

ـ وگعدت رجال بالحوش

ـ نِزل؟

ـ تگول ميبات بالحوش، بس يخلي غراضه بالحجرة.

ـ ومنين هذا،

ـ چان دلال مال سيارات. تگول يعرف ابويه.

ـ وبعد هالسنين الطويلة؟

قال حسين بغيظ:

ـ بكيفها، كل شي تسوي . . عبالك الحوش مال اللي خلفها
قال صاحب وهو يلقي عقب سيكارته، ويلقي نظرة على الشارع:
ـ اشو انت تروح وتجي على الحوش . . شنو فكرك؟
ـ والله لو ظل بعمري قد يوم لبيعه وأهجولها . . هالدمبلة اريد اتخلص منها.
ـ الحوش صار دمبله؟ حقك مجربت مذلة العيش كل شهر بحوش. متعرف غصة اول الشهر وابو الحوش يدك عليك الباب.
ـ وآني اش عندي بالدنيا حتى أأجر حوش؟ بطرگ نفسي . . طير وين ما وكر انام.

وصمت صاحب. وفكـر حسين بالحجـرة المـرصـوفة بالطابوگ والمصباح الكهربائي، وزادت كراهيته للبيت فقال لصاحب:
ـ هو اشلون حوش! يذكر عالعصملي
قال صاحب: وخلّي . . مو فوگ راسك سگَف؟ . . هذا هوه
وفكر حسين في نفسه «حگه . . مذايك سكن الكرادة»
وقال صاحب مرة أخرى:
ـ انت بدل متفكر بالحوش، دوّر على شغل، اتعلم صنعه . . تظل تعتمد على مرة ابوك؟
ـ راح ادور . . . رايح هسه لـذاك الصوب . . بس اطيني ربع دينار

والقى نظرة خاطفة دون ان ينتظر الرد عليها. كان يراقب الغبار المتصاعد من الطولة ويشمه. سمع صاحباً يقول:
ـ عجيب أمـرك! . . بلوعـه مال فلوس؟ يوميه ربـع دينار . . عل هالحسبه فلوسك مراح تطوِّل شهر . . بعدين شتسوي؟
ـ واذا يراد لي؟
ـ حسين اخاف تعلمت تشرب؟
ـ وداعتك ابو مهدي مستحيل اشرب.

وكـانت تمـاضـر ملء خياله. أحس برغبة في ان يتباهى بها، ويقول هي السبب. ولكن نظرة صاحب الجدية جعلته يقول:
ـ ابو مهدي لدقق ويايه.
ـ آني على مودك. والفلوس فلوسك وممشغلها بالتجارة . . البارحة استحقت

عليّ كمبياله لحسقيل الياهو. . وماهلني آخذ فلس منها.

وعدّ له دراهم خمسة. فنزل حسين من سرج الدراجة وقال:

- رايح للوكَفه.

- روح. . صير رجّال

القى حسين نظرة أخيرة على امتـداد الشـارع. كان الصبي قد اختفى. والـظاهـر انـه وفق في ركوب الدراجة آخر الأمر. وكانت الطوله ترسل غباراً مثل الدخان الذي يتصاعد من نار أُطفئت بتراب. وخلف النقاب الترابي بيته، و «ام العيون المنتفخة». وأحس بنفور، سار في خطى متخاذلة حتى رأى امرأة تخرج من حمام النساء فصرفته عن نفوره. كانت تبدو حمراء منتفخة الوجه. حدق بها وقال في نفسـه «اش عجب طالعـه من وكت؟». ولمـا اقتـربت منه عرف انها خيريه «الحكـومـة الله يسلمهـا». مرّت به تخطر موردة مكشوفة الصدر، فوّاحة بالبخار وصـابون ابو الهيل. فقال لها «سلّمي على رزوقي» وعرفت ما يعني فلم تجبه. ورزوقي زوجها. وظلت رائحة الصابون عالقة في أنفه. فقال لنفسه «لا تخاف» هسـه يجي المغرب وتروح الها. . هسه انت بالشغل «نجار صاحب مصلحة. . طيط. . ام العيون المنتفخة خلتني اتعلم صنعه؟» ومرّ بسينما الزوراء دون ان يرفع رأسه إلى الاعلان. راح ذاك الوكت - قال لنفسه - كبرت بالعجل، وصار عندي مرية. . مالتي. . آني دشنتها! ومرّ بسينما الوطني. فلم روسي حربي. ومن على الجسر كان في وسعه ان يرى درب الحطب قرب المسبح المكتظ بالناس. نقط سمراء وسط شريط الشمس الفضي المتـلألىء. وشمّ رائحة الماء الزفرة الطينية الحـارة. ونازعته نفسه إلى ان يكون هناك. وقال لها «العصر أسبح قبل ما روح لتماضر» وفكر بتماضر. يوم امس كانت تشمه كالقطة. ورأى انحناءة النهر. وهي هناك. ثم جاءت سينما، وحانة الملك فيصل، وتمثال الملك فيصل. ثم المفوضية البـريطانية على اليمين. وهنـاك رأى السـاحة تفور بالناس، والباب الصغير في اقصاها مغلق. دار حول الجميع يبحث عن منفذ ليقترب منه فلم يفلح. اجسام على اجسام. وأخيراً استقر قرب شاب هزيل الجسم وسأله:

- متعرف اش وكت يفتحون الباب؟

- بالتسعة.

- وبالتسعة اشلون وهسه فوكَ العشرة؟

وادار الشـاب اليه وجهـه الهزيل المستطيل. ولكن حسين لم ير الا حول عينيه. كانت العين السليمة تنظر اليه، والعين الحولاء تنظر باتجاه آخر.

قال الاحول وقد احس بتحديق حسين:

ـ تريد الصدگ؟.. يفكوها على مزاجهم.. اشوكت ميريدون ناس.

ـ ومتعرف ياناس يريدون؟

ـ كل واحد عنده مصلحة.. سواق، فيترچيه، نجاجير، حداده

ـ ومسجلين؟.. سمعت يريدون مسجلين

ـ تعرف انكليزي؟

ـ لا.

ـ لعد اشلون؟.. انت راح تشتغل عند انكليز خوب مو بعلوه؟ على الاقل تعرف ارقام.. وان تو ثري.

فقال حسين في سره «شوف ابن الزفره د يقنزح عليّ» ثم قال بصوت مسموع:

ـ اگدر أتعلم.. بس أكو فايدة من هذوله؟

ـ تريد الصدگ؟.. كل شي قسمه.. اني بصف ثاني متوسط، وصار لي عشـرين يوم اجي للوگفـه، ومـا حصـل شغل. وأكو ناس ما عدهم اي شهادة، وحصلوا شغل بنفس اليوم.

كان على مقربة منهما رجل يلف رأسه بكوفية. كان يتصنت اليهما صامتاً. فلما فرغ الاحول من حديثه التفت اليهما وقال مؤيداً:

ـ صدج يابعد رويحتي صدج.. خريبط يانوبة ما تناها. حذف حياره وطاح على درهمين بالنهار. وآنه هالتشوفني. الخلگ تروح وتيـي وآنه جاعد بحدر الباب

قال الاحول:

ـ انتظر وانت تطيح.

ـ آنه طايح الحظ مني طايح.

وفتح الباب الصغير في أقصى الساحة، وخرج جندي انكليزي يتدلى على فخذه مسدس ذو قراب أبيض معلق بحزام ابيض أيضاً. وكان إلى جانبه شاب أسمر صغير. وتحركت الساحة. وماج الناس. ورطن الانكليزي ثم قال الاسمر:

ـ منو فيتر؟

وكان في الساحة فيترچيون كثيرون صعدوا الدرجات الأربع في صف واحد،

وغابوا في الداخل.
وبعد قليل عاد الأسمر يقول:
ـ منو سايق؟
وتدافعوا. وابتلعهم الباب. ثم اغلق. وتعالت اصوات في الساحة.
وقال الاحول للعجوز:
ـ شفت؟ ليش متصير فيترچي؟
ـ والله، ياعمي، لو عارف أصير قندرچي چان صرت.
ـ مو قندرچي، فيترچي
ـ الحاصل محفوظك ما يعرف غير المسحاه. والمسحاه منها نافعة بهالايام.
قال الاحول يقلد لهجته الجنوبية
ـ كل شي منّه نافع بهالايام
وحدق حسين بعدم ارتياح، لأن العجوز صرف الاحول عنه. فقال بسخرية وترفع:
ـ اش جابك لبغداد، اشجابك؟
هزّ العجوز رأسه وقال:
ـ سالفه طويله
ـ خلص الزهدي؟
كشر العجوز عن اسنان تالفة وقال:
ـ ما يخلص. بس الناطور يزكَط.
ـ زحاره التزحرك.
ـ شني؟
ـ اكول اش لون الصحة؟
ـ هالتشوفه.
ـ تشبه بدر لاما.
ـ شنهي؟
ـ يافيلم يعجبك: ممنوع الحب لو الوردة البيضاء
ـ مني فاهمك
ـ كان الاحوال يضحك في سلطنة. وشعر حسين بسيطرته، وتابع مناكفته:

ـ ليش متركب فد گفه منگوبه؟
ـ لوين؟
ـ للفناهره.
ـ جا يحصل شغل؟
ـ ابو الدفرة.
ـ والله، يا بعد شيبتي، مني فاهمك.

اكتفى حسين بذلك، ونظر الى الاحول بانتصار. ولكنه نظر إلى الباب المغلق واغتم. كانت الشمس لاهبة تنفذ إلى الجسم عرقاً لزجاً. وكانت انفاس الناس مثل زفرات تتصاعد مخلوطة باصوات كالهمهمات. وانتظر في أمل كاذب أن يفتح الباب. وسرعان ما أحس بالشمس على علباته. فتأفف كالآخرين. وغاضت من نفسه تلك النشوة الطافية التي خلقتها مناكفته للعجوز. واشتبك الاحول في حديث مع رجل. كلاهما قال للآخر «ها.. لسه ملگيت شغل؟». واشعره حديثهما باليأس. اذن سيظل مثلهما ومثل العجوز يأتي كل يوم إلى الساحة، ويحترق بالشمس ونار الانتظار الطويل دون ان يحصل على عمل. تلك تجربته الاولى في البحث عن العمل. أحس بثقلها ومرارتها. ولم يصطبر لها. ونظر إلى الجانب الآخر من الشارع. في الجانب الآخر من الشارع ظل ومقهى وعفيفة اسكندر تذيع مونولوجاتها. وقرب المقهى عربة سيفون، وأبو لوبيه. والتفت ورأى الاحول يمسح عينه السليمة بباطن كفه، ويرنو مثله إلى الجانب الظليل. هو الآخر قد ضجر. وقال حسين «الله يساعده.. لو آني مثله چنت اقتل نفسي». وكان يحس باطمئنان غريب، وبأنه احسن حالاً من كل هؤلاء المتزاحمين السابحين بعرقهم. لماذا؟ على الأقل عندي حوش. وانزاح جانب من ثقل الخيبة. ونظر إلى الجمع المحتشد في حياد عاطفي. وراقب الاحول يتحرك نحو الجانب الظليل ببطء فلاحت قامته أكثر نحافة. والبنطلون الفضفاض يخفق على عجيزة فارغة. وقرفص الاحول قرب ابو اللوبيه. واشتهى حسين ان يفعل ذلك. وتململ. وترك العجوز يثرثر بلهجته الجنوبية خلفه. ولكنه احس بالعطش أكثر من الجوع فأكتفى بان شرب زجاجة سيفون وغادر الساحة.

عاد إلى البيت عند الظهر. دفع الباب ودخل. لاحت امامه النخلة، ثم الحصيرة فارغة. فسأل في نفسه «وين أم العيون المنتفخة؟ طالعه؟» واحس بفراغ

الحوش وسعته. وقال لنفسه «لو ينباع اش گد يجيب له؟ مئات» واستدار إلى ليوانها فرآها منكبة على ثوب بنفسجي تخيط شيئاً فيـه، ثوب لم يذكر انه رآها تلبسه. لم يذكر قط انها لبست ثوباً ملوناً، وكأنما فتح عينيه ورآها في ثيابها السود.

رأتـه يحـدق بالثوب بريبة، فضمته بين فخذيها وكأنها تخجل من ان يراه وسألته بلهجة حيادية:

ـ ها. . أشو اليوم من وكت؟

قال:

ـ جوعان.

ـ هسه خلّصت من چاي الصبح. بعد الظهر ما صار

ـ ساعة ثنتين

ونظرت إلى الحوش لتعرف وقتها من موقع الشمس

ـ الشمس بعدها ما كسرت عالنخله

قال في ضيق:

ـ ليش تعاندين؟. . گولي ممسويه اكل. . مشتغله بالتطريز

القت الثوب من يدها، ونظرت اليه في عتاب وقالت:

ـ حسين، انت هوايه تظلمني. يا تطريز هذا؟. . طلعت النفنوف حتى أصبغه.

صمت قليلاً ثم قال لها:

ـ بيش أجّرت الحجرة؟

ـ بيش ما چان.

قال بقسوة:

ـ إليَّ نص الايجار.

قالت محتدة:

ـ خلف الله عليك. . هاي بدل متجيب لي فلوس وتعيشني. . المختار باچر يجي عليك عالجندية. . منو راح يخلصك؟

ـ ١٠ ـ

في الأصيل كانت النسمة تهب من النهر عبر شجرة توت معمرة تماوج الذهب على ذوائبها الغربية. وكان قلبها اسود انطلق منه سرب من العصافير، ووقع على

أرض الحوش في زفرة حادة. وجفل الدجاج. وتذكرت تماضر شجرة التوت التي كانت تتسلقها في بيت الخالة نشمية عندما كانت صغيرة، وتختفي بين اغصانها الكثيرة.

ـ خالة نشمية تذكرين النبكه؟

كانت الخالة نشمية جالسة على التخت إلى يسارها وفي يدها قدح شاي فارغ، فقالت وقد ارتج القدح بين اصابعها

ـ أها. . فتحت عيني عليها.

ـ وراح كَصوها. .

ـ همّ ركَبتي كَصوها. . عاد النبكة!

ـ خالة نشمية، الأهل يغدرون.

واضطرب القدح حين وضعته نشمية على «الطبلة» المخلخلة. وقالت وهي تتلمض:

ـ الأهل يريدون صخول مو بنات حتى اشوكت ميريدون يذبحوها.

ـ خالة نشمية، انت متدرين اش سووا بيه أهلي.

ـ آني ادري بدگيك الأهل. . تعلميني بيهم؟

ـ چانوا يريدون يلبسوني عبايتي، ويدزوني للعماره.

قالتهـا بلوعة، وكأنها تخاطب احداً غير الخالة نشمية. وكان بصرها عالقاً بالباب، وقدح الشاي الفارغ في يدها فأدركت الخالة نشمية مبلغ ما تكابده. وقالت مواسية:

ـ حقچ. . العشگ شيحمله؟

قالت تماضر بين العتاب والاستغاثة:

أوي، خالة نشمية، على بختچ.

فكورت الخالة نشمية شفتيها وقالت:

ـ اسألي مجرب، ولا تسألي حكيم. جنت ما اعرف اشوكت تكسر الشمس، واصعد أرش السطح، وأشوفه فوگ الشناشيل.

عرفت تمـاضر عمّ تتحدث الخالة نشمية. قصة حب قديمة سمعت عنها اقوالاً متضاربة. الا انها الساعة لم تجد ميلاً لأن تستوضحها. كانت مستغرقة في شيء تملك كيانهـا. وفي مستطيل الباب الترابي الذي تتسرب حياتها عبره مرت

عجلتـا عربة قادمة من مكان لا تعرفه، وذاهبة إلى مكان مجهول لها. فزرع ذلك الشوق في عينيها، ونهضت من التخت، ووقفت في مكانها، وعيناها شاخصتان إلى الباب، وفي نظرتها كل روحها. وسمعت الخالة نشمية تقول:

ـ هسه على جيَّه.. ما تشربين استكان الچاي الا وتشوفيه جاي...

أمالت ببصرها نحو الخالة نشمية باسمة ابتسامة استشهاد. وذهبت لأقصى الليوان لتمـلأ قدحَيْ الشاي. بينما تابعت الخالة نشمية قولها وهي تنظر إلى دجاجها.

ـ چانت كل شوفــه ترد الـروح. چان يوگف فوگ السـطح بطولـه الحلو، والدشداشة البيضه، وعرقچين الكلبدون وبنات الطرف كلهن يعاينن عليه. وليش هو داير الهن بال؟ وچنت أشيل راسي، واشـوفه عبالك طير أورفلي وهو يشوفني ينكس عرقچينه على عينه. يعني: مرحبه ويگوم يناغي الطيور: أروح فدوه لأبو زلف وترچيه، ياابيض يازاجل يابو عيون الوسيعة خُذْلي المحبوبي تحية.

رنّت ضحكة تماضر في اقصى الليوان، فقالت نشمية:

ـ لتضحكين.. مو بس انتو!

وجـاءت لهـا تمـاضر بقدح الشاي باسمة، وقد زال من عينيها السوداوين الواسعتين ذلك الشرود القانط، وحلّ حنان ندي. وجلست تشرب الشاي مرسلة بصرها إلى قلب الشجرة الأسود. كانت هالة النور قد بهتت، وسرت الظلمة من القلب الأسود إلى الاطراف. ولكن العصافير مازالت تزقزق.

جاء حسين قبل غروب الشمس. وقف في مستطيل الباب الترابي، ونادى:

ـ تماضر!

ـ تعال، عيني، تعال! البنية د تنتظرك.

ودخل بقامته الربعة الممتلئة يرتدي بنطلوناً رمادياً وثوباً ازرق طوى ردنيه، وقلب ياقته على قفاه. وكان شعره الأسود الكثيف قد صفّ فوق رأسه كالاكليل. وسلّم، فقالت الخالة نشمية:

ـ محصّن بالله.. يلمع!

وفي سرها قالت «بعده أخضر. شوارب ما عنده.»

قالت تماضر:

ـ ما شاء الله، اليوم من وكت

ـ حتى لتزعلين. . . اخذت رخصة من الشغل.
ـ وسابح بالشط؟
وشمت رأسه، فقالت نشمية من مكانها:
ـ أفيّش. . اشلون ريحه حلوه! أويلي عاللي عشكَوا وما ذاكَوا
ـ خالة نشمية، هي ما دا تشمني، تشم الشط.
ـ اسكت، عيني، تريد تعلمني؟. . يعني اذا باچر سبحت بالشط. راح تشمني هيچي؟
واشفعت قولها بضحكة. كانا في الطرف الآخر من التخت متشابكي الايدي، متلاصقين بانسجام تام. وكان يبدو أقصر قامة من تماضر، وأكثر امتلاء، بل واصغر سناً. حتى لعجبت من جسارته، وتساءلت مع نفسها: عجباً أهله يعرفون؟. . مستكَعد وحده؟
ـ خالة نشمية، شوفي اشلون يلعب اذنه.
وجرّته إلى الخالة نشمية، فحرّك اذنه ثانية وقال:
ـ خش باذني ماي، ودانظفها.
فقالت خالة نشمية وقد ازعجها هذا الدلال:
ـ جريه من اذنه، وخششيه بالحجرة.
ضحكت تماضر، وحاولت ان تمسكه من أذنه فصدها. وبدا امام الخالة نشمية مزاح بالايدي حتى قالت:
ـ عيني، لتخرعون الدجاج.. اذا دجاجة ضاعت بالليل منو يلكَيها؟
وفي الحجرة سألت تماضر:
ـ أصب لك عشا
ـ لا، تعالي اكَعدي هنا.
فجاءت تتهادى نحوه إلى السرير. وكان قرب الباب.
ـ انت تعرف حچاية الخالة نشمية؟
ـ منين اعرف
ـ چان تحب واحد مطيرچي
ـ عال!
فهمست: اصيح إلها تحچي لنا؟

ـ لا، سدي الباب وتمددي

ـ بعد وكت.

ـ تعالي، احجي لي انت شنو قصتها!

ـ مثلي، چان أهلها يريدون يزوجوها لواحد متحبه.

ـ ومثلچ وگفت على باب السينما؟

ضربته على يده، وابدت له وجهاً عبوساً. فقال لها:

ـ لا تزعلين.. منين چان أكو سينما ذاك الوكت!

نهضت، وهمت بالخروج من الباب، فامسكها من يدها. واجلسها على السرير، وسحبها نحوه، وقبلها من عينيها بممانعة

ـ بالعجل تزعلين.

ـ قاسي هوايه.

فطوق رقبتها بذراعه، وأغلق الباب باليد الأخرى، وبحث عن شفتيها في الظلمة.

تمتمت: ماريد، ماريد

قال بحدة: اكو واحد ميريد. وأصر على ان يقبلها

ـ راح أصيح.

ولكنه كز على اسنانه حتى وضع رأسها على المخدة

ـ الا هيچي تريدين؟

وشعرت بثقل جسمه عليها، فمانعت، وحاولت بكل قوتها ان تخرج من تحته. كان ابزيم حزامه يوجع بطنها

ـ حسين، جوز عني.

ـ ما جوز.. لو السما تنگلب.

فظلت تردد:

ـ حسين... حسين... حسين... تنزع بنطلونك!

وكم كانت مشتاقة اليه. كم كانت تترقب مغيب الشمس وحضوره. والآن تحسه ثقيلاً عليها، ومضجراً: تأوهت. وأحست بانفراج حين نزل من السرير. وضربها على ردفها. اغمضت عينيها. وظلت كما كانت مستلقية على ظهرها. ثم شعرت بموجة ضوء باهت تمر على جفنيها حين فتح حسين الباب. واستلذت

بالظلمة حين اطبق الباب، ظلمة هشة مثل قطن اسود تغوص فيها. وطاف في خيالها ذلك السرب الخائف من العصافير الذي رأته يفر من قلب الشجرة الأسود. ثم تذكرت «نبگة» الخالة نشمية. وتخيلت نفسها مختفية بين الاغصان كما كانت تفعل وهي صغيرة. تذكرت كم كانت خفيفة، وطليقة في صغرها. كان الناس يسمونها «أم عيون» لأن عينيها واسعتان كحيلتان من غير كحل. وتذكرت، والذكرى تسلمها إلى ذكرى، كيف كانت تحب ان ترى عينيها في مرايا الجيران. كانت حلوة وذات خصر نحيل، وصدر ناهد. مكتبلية، ولو كان ابوها عطاراً. كانت تحب الوقوف في عنق الزقاق ساعة خروج الطالبات من مدرستهن لتختلط بهن، وتشم رائحة عباءاتهن، وتشعر بلذة لمجرد التخيّل بانها واحدة منهن قائلة لنفسها «يعني شكو فرق بيني وبينهن؟ . . قابل كلهن بنات الشابندر؟ ماكو وحدة ابوها عطار، نجار، رگاع. . زين اكو بنات يلعبن النفس، لو مصويات لو وجهن مرگع، لو عيونهن مثل عيون الجريديه. وآني عبالك مدامه. لو أكبر أسبي الناس سبي».

وتذكرت، في غيبوبتها الحالمة، أول عشيق لها. ذات مرة رأت تلميذين يتجادلان في حماس وهما منكبان على دفتر مفتوح بين ايديهما، فاقتربت منهما وتجرأت ان تقول لاحدهما «انت ساقط بالحساب». رفع التلميذ اليها عينين صغيرتين مبهورتين تدلت على احداهما خصلة شعر كثة، وقال لها «وانت ساقطة من فوگ السطح» وضحك منها هو وصاحبه. ولأنها أمية لم تكن تعرف ان الانسان يمكن ان «يسقط» من السطح ايضا. فقد دهشت لجوابه، وارتبكت. وفي ذلك اليوم عاودتها حسرتها «لو آني بنت مدرسة چنت أحچي مثل حچيه». وفكرت بتينك العينين الصغيرتين، وخصلة الشعر السوداء الكثة، ولم تغب عن فكرها حتى بعد أن أوت إلى فراشها.

وفي اليوم التالي وقفت خصيصاً له، ولم تحفل بالطالبات حين مررن بها، بل استثقلتهن حتى جاء مع تلميذ آخر يتجادل. ومرّ بها دون ان يلحظها تاركاً في قلبها لوعة. فتى يميل إلى الطول ذو وجه شاحب مصفر، وعينين صغيرتين لامعتين، وشفتين ذابلتين، وشعر غزير. وفي اليوم الثالث رآها فسألها «ها سقطت من السطح لو بعدچ؟» قالت له بصوت لم تكن فيه جسارة المرة الماضية: «ماكو ساقط الا انت» قال لها «اليوم أخذت خمسة وثمانين» فقالت «أهب!» أجابها بحماس وكأنه يجادل تلميذاً مثله «تريدين تشوفين بعينچ؟ هاچ شوفي» وفتح لها دفتره. ورأت تماضر سطوراً مكتوبة بقلم رصاص، ودائرة حمراء. ولم تفهم شيئاً بالطبع. ولكنها قالت

تغيظه: «چـذب!». قال لهـا «مـدا تشـوفين؟!.. مو عيونچ، ما شاء الله، مثل الساعة». ألعله حسبها تلميذة مثله؟! وتركها. وهرعت هي إلى بيت الجيران لترى عينيها في المرآة، لأن في بيتها لا توجد مرآة. ساعة. قال لها عيونچ مثل الساعة. واضرمتها الجملة بلهيب، وجعلت تنتظره كل يوم. ونشأت تلك العلاقة الاولى. همّ هو بأن يقبلهـا من خدهـا فصـدتـه، وهمت هي بأن تجذب شعره بنوع من التجميش. ثم كانت رغبات كل واحد منهما مقبولة لدى الآخر. وكان العصر أجمل اوقـاتهمـا حيث كانا يسرحان بعيداً عن أعين الرقباء. وولع الفتى بتقبيل خدها، وشغفت هي في العبث بشعـره الكثيف. كانا يجلسان في خلوة على دكة قديمة كانت من قبل مسقى ماء للسابلة. فيطوق ظهرها بيد، وينهال على خدها تقبيلاً. وكـانت هي تعبث بشعره متحسسة خشونته بيدها؛ فرحة باستسلامها له، مستلذة برائحة الطباشير التي تشمها في شعره، حتى رآهما، ذات مرة، احد التلاميذ. وفي اليوم التالي نشر الخبر في المدرسة. ولما تخاصم هذا مع فتاها ذهب إلى امها ليشتكي «روحوا شوفوا بنتكم اش د سوي بالصقخانه!» وحبست تماضر في البيت، واخذتها أمها في جولتها على البيوت لبيع الدبس.

وتنهدت تماضر نافضة الأفكار عن رأسها. وقالت لنفسها «عندما چنت بنية چنت اسوي كل شيء. ولما كبرت خطبني بياع دبس ودهن بالعمارة، وهسه رفيجة واحد ما أعرف الا اسمه»

- ١١ -

سمعت سليمة صوت مصطفى خلف الباب.

- يا الله!

فلبست عباءتها على عجل. وقالت من مكانها: تفضل ابو ابراهيم! ودخل مصطفى يحمل كَونية ينوء ظهره بها. ولما اقترب رأت وجهه العرق غير الحليق، وجبهتـه العريضة الملساء، والسدارة تكاد تسقط من رأسه. بدا لها في انحناءته تلك، ورقبته المتوترة وساقيه الطويلتين النحيلتين رجلاً شغولاً يحمل الدنيا على منكبيه. قالت في اشفاق:

- ابو ابراهيم اساعدك

- لا، أم حسين، أشكرچ. الحماميل صايرين هالايام ميتحچون.

وألقى الگونية عند باب حجرته. وزفر من خدين منتفخين، ومسح عرقه،

واخرج المفتاح وفتح باب الحجرة. وقال:

ـ هسه جاي لج.

تراطم شيء زجاجي في الكَونية حين رفعها، فثبتت سليمة بصرها في الكَونية دون ان تفكر بشيء. ودخل مصطفى الحجرة، واغلق بابها عليه. وظلت هي في انتظاره قرب ليوانها وهي تقول لنفسها «يبين رجّال انجبر يتعب هواية. هالكَونية حمال ـ ارادت ان تقول زمال ـ ميشيلها، وهو شايلها على ظهره.. هذولة الرياجيل من صدكَ.. ينحطون بالعين.

وخرج مصطفى يمسح العرق بمنديل قذر وقال:

ـ وين انت ام حسين؟

ـ بالليوان.. هنا أبرد.

ـ شلون حر هذا؟ من هذا العراقيين ميخافون من جهنم.. متعلمين.

فابتسمت له وقالت:

ـ عيني، اجيب لك الجاون تكَعد عليه؟

لا، ام حسين، الحصيرة أبرد.

وبرك على الحصير بجانبها. وتربّع. ولّمت هي نفسها في طرف الحصير. وكان واضحاً لعينيها الكليلتين وضوحاً حاداً. كانت ترى رقبته الهزيلة مثل رقبة ديك مسلوق، واستدارة حنكه الطويل، والشعر النابت على وجهه، والانف الصغير، والصلعة، وذراعه الطويلة كانت ملقاة على ركبته باسترخاء مثل حبل مبلل متين رأته ذات مرة في احدى الدوب عند شريعة السيد سلطان علي. وبدا لها هزيلاً جداً، قفصاً من العظام الطويلة. ورأت على وجهه ابتسامة حلوة رغم تعبه وهزاله. وكأنما باطراقته يفكر بشيء مفرح بهيج. وتركته غارقاً في تفكيره، وفي ضوء الضحى الساطع، استطاعت حتى ان ترى تمتمة ابتسامته السفلى. ولاح لها وهو متربع على الحصير، مثل فتاح فأل يكشف عن بختها.

بعد دقيقة تمطت حتى صارت دهراً رفع فتاح الفأل رأسه، وقال كمن يتذكر شيئاً:

ـ ها.. نسيت ـ ودس يده في جيبه واخرج ورقتين نقديتين ـ هاي دينارين من خاجيك.

فتناولتها قائلة:

ـ اي، عيني، فدوة أروح لك.
ـ واني ممنون ـ ثم تمتم في صوت خفيض ـ ما طول الانكليز بالوجود.
ـ من أجل خاطري، وآني حرمه.
ـ ربنا يسمعك.

ارتفعت ذراعـاه الـطويلتـان قليلاً إلى الأعلى ثم وضعهمـا على ركبتيه المطويتين فتصورته مثل ايراني يلطم على الحسين.

ادار رأسه اليها دون ان يحرك جسمه وقال:

ـ أم حسين، لو ما الانكليز چان هسه ميتين من الجوع
ـ صدگ ـ وافقته بسهولة ـ بس اش گد راح يبقون؟
ـ يبقـون، أم حسين، يبقـون ليوم القيامـة... الانكليز ميدخلون ولاية ويطلعون منها. انت تفطنين عالانكليز؟

كان يريد ان يقنع نفسه قبل ان يقنعها. نطق بالكلمات بقوة واصرار، ومن وراء شفتيه المزمومتين كزّ على اسنانه وقال يخاطب نفسه:

ـ الدوره هم تفلت؟

فسمعته:

ـ ش يفلت؟
ـ هيچي، ام حسين، دا احچي ويه نفسي. آني ما افطن على بغداد بليه الانكليز.
ـ لا، من يفطن؟
ـ لعد خليهم، وخلّ الشغل ماشي.

تلك كانت رغبتها. ولما كانت لا تعرف ماذا في قلبه اعجبها ان يكون حريصاً على مصلحتها على هذا النحو. وتذكرت كيف اصرّ على ان يكتب الوصل بالعربي «الخاتون متعرف الا عربي». والآن تطلعت إلى شفتيه.

ـ مو طلعوا شهر واحد. اش صار بغداد؟ فرهود.
ـ ودانات وضرب الرصاص ـ أيدته في قوله ـ چنت الليل كله ما انام.
ـ شفتي ام حسين. واكو ناس يگولون الانكليز مو زينين.
ـ منو عيني، ماكو غير اللي ما عدهم عقل.
ـ أكو، ليش ماكو، اشو هسه طلعوا نازيين وما أدري شنو.

ولم تفهم من اولئك الذين يتحدث عنهم. ولكنها قالت له:
ـ العدو اللي تعرفه احسن من الصديق اللي متعرفه
فحدجها بنظرة رأت فيها عدم الرضا. فقالت تصلح خطأها:
ـ ما ادري اشلون ينگال المثل.
قال مصطفى:
ـ لا، ام حسين، الانكليز مو اعداء.. ماكو عدو ينفع. وانت دتشوفين.
واحست به ينظر إلى يدها الماسكة بالدينارين. وساورها شعور غير مريح. أحست بأن عليها أن تفعل شيئاً بيدها. ولكن لم تعرف ما هو بالضبط. وانبّت نفسها لأنها لا تعرف كيف تتحدث. شعرت بأنها قالت ما لا يجوز ان يقال. ولكن ما هو؟ وكيف تصحح خطأها؟ وعاد مصطفى إلى اطراقه. ووجدت نفسها مسوقة إلى ان تقول له لترضيه:
ـ عيني، ابو ابراهيم، اسوي لك چاي؟
ـ لا، ام حسين، الدنيا حارة.
واسكتها بهذه الجملة القصيرة، وأرادت ان تقول شيئاً ولكنها رأته ينهض من جلسته، ويدير لها ظهره فقالت وكأنها قد زعلت:
ـ عيني، هالدينارين مال اشگد؟
ـ شنو مال اشگد؟
ـ يعني، كل اسبوع كل اسبوعين؟
قال بلهجة جافة؟
ـ حسب الشغل. الرجال خوب مو عنده حوش وماجره؟
ومرة اخرى افحمها، قالت:
ـ اي عيني حتى اعرف.. ارجع للشغل لو لا؟
ـ والله اش أگول لچ.. احسبيها برانيه.
ـ يعني ارجع؟
ـ احسن ليش تظلين منتچلة
وانطوت يداها على صدرها بحركة لا ارادية. ونظرت إلى علباته النحيلة، ورأسه العاري. وجمد تعبير قانط على وجهها المنتفخ. ولما فتح باب حجرته، وغاب فيها داهمها شعور بالذنب. وكأنها كفرت امامه.

اقفل مصطفى عليه الباب. كانت الحجرة مربعة الشكل عارية الا من صندوق خشبي من صناديق الشاي الفارغة موضوع في زاوية. وكيس جنفاص من أكياس الحنطة ذات الخط الأحمر، وصرة ملابس كبيرة، وحذاء عسكري جديد. وجلس مصطفى على لوحة خشبية كانت موضوعة بين الصندوق والكيس قرب الحائط المثقب بعشرات الثقوب، ومال بجسمه على الكيس. وأرسل صوتاً ممطوطاً مثل الصوت الذي يرسله عطشان وقد بلّ غلته بالماء. وعاد يقول لنفسه «هالدوره هم تفلت؟.. هالدوره اعضها بسنوني.. هالدوره أريد اطلع حك الرفسه، والتسليبه، وكل سنين القهر.. بس عاد.. بيزي قهر.. صار لي عشرين سنة أدك وكل شيء ممحصل.. لا بيت ولا مريه ولا فلس جوه المخده. والدنيا مال فلوس.. صدك اللي ما عنده فلس ميسوه فلس.. ومحد ينفع بالدنيا مثل متنفع الفلوس. ومنو أغنى من الانكليز.. نص الدنيا الهم.. ويعيشون ناس من الملك ورئيس الوزراء وانت نازل إلى سايق السيارة.. ظلت علّي.. آني المنكَوب بنطروني!.. بيزي.. بيزي قهر.. خل أدخل وياهم.. وچم واحد إغتنى منهم؟.. ياما سووا بيوت..

- ١٢ -

سار حمادي العربنچي في شارع المحلة العريض سكران يترنح، وقد وضع «چراويته» على كتفه، واغمض عينيه نصف اغماضة اتقاء لوهج الشمس. كانت الساعة في نحو الثالثة، والشمس تلهب كل شيء، ولا تترك الا ظلاً هزيلاً قرب الحيطان. ولمّا مرّ العربنچي من حمام النسوان وشمّ بخاره داهمته نوبة غريبة من الطرب فأنشأ يغني دون ان يرفع عينيه من الارض.

شفته بعكَد الخلاني صدر بصدر لاكَاني
ردت بوسه ما طاني صغيرون شوفوا شكَده

ومضى يغني حتى دكان صاحب ابو البايسكلات. ولما سمع صاحب صوته الأخن الخدر، اطل من دكانه على الدرب فرأى حمادي في سلطنته:

- هاي شنو، ابو فلان، متونس؟

عند ذلك رفع العربنچي بصره، ولم يثبته بشيء، بل قال بصوت حنون:

ـ اي ، والله ابو مهدي . . داعيك متونس
ـ شنو . . د تحضر لرمضان؟
ضمّ العربنچي شفتيه ثم بدأ يتحدث :
ـ رمضان على راسي ، وانت على راسي ، وكل الراس على ناسي . . حتى حمام النسوان على راسي . . بس هالابن مروگي جوه كالتي . . . زمال مربوط من اذانه .
ـ شنو غشك . . اخذ فلوسك؟
ـ لا ، أبو مهدي ، وداعتك . كلما أروح عليه أشرب حليب السباع يطيني ابو الكلبچة ويغشني . يوجع راسي .
ـ وبها الحر؟!
ـ أوه ، ابو مهدي ـ وزفر حمادي زفرة طويلة ـ اش اسوي ابو مهدي . لو انت بمكاني چان شربت قرابة عرگ .
ـ ليش؟ . . مقهور عالطوله؟
ضحك العربنچي وقال :
ـ قحط! . . گعدتي مطولت اسبوع . . بغداد مليانه طولات لعد ليش؟ . . على مرهون؟
ـ لتخاف على ابو قنبورة . طلع لي صايم مصلي من أول باب . وملازم الجامع يضرب بها التمن والدجاج على روح الميتين .
فأثار السكران فضول صاحب . نظر إلى وجهه الاشيب العرق . وتبسم له في اشفاق وقال :
ـ تعال خش من الشمس . . احچي لي شنو القضية؟
ـ ميخالف . . الشمس متوجع راسي . . اليوم مو جمعه؟
ـ بلي . .
ـ ركبت عندي خاتون .
ـ اي . .
ـ اي وداعتك ابو مهدي مدام من أورزدي باك .
كان صوته نشوان خدراً ، وعيناه متقلصتين ، والشمس على علباته . ولما فتح فمه في ابتسامة لاحت انيابه الثلاثة المتباعدة في اللثة العليا .

ـ گمر خوب مو گمر؟
ـ شنو لقضية حمادي؟ . . اشو اليوم صاير غرامي؟
ـ مو بالحيف أبو مهدي؟
وعادت انيابه الثلاثة إلى الظهور
ـ وبعدين؟
ـ وبعـدين گلت إلها: وين تريدين تروحين خاتون؟ گالت للعلويه. گلت عمله لو بليه عمله؟ . . گالت: أوي عيني، اسطه عربنچي لتعاملني.
قلّد صوتها الممطوط بصورة مضحكة، وحيّا العتبة تحية كلفته ترنحاً:
ـ تؤمرين خاتون، وديخ! والخاتون ورايه. وبعد اشويه اسمع حس مثل حس سليمـة باشـا، من فضلك اسـطه عربنچي نزلّ السگف، مقتنحمل. ونزلت من العربانه، ونزلت إلها، وشميت ريحة جمار وورد جوري
وصمت محدقاً بالعتبة، وكأنه يشم الرائحة التي لعبت بدماغه:
ـ تعال خش، تعال. . طلعت قصة عنتر.
ـ لا عنتر ولا شبمّر. . وداعتك ابو مهدي كلكم على راسي.
ـ وتاليتها؟
ـ مشينـــا شويه، واشـو: أوي عيني اسـطه عربنجي من فضلك متصعـد السگف. . الشمس راح تحـرگني. ونـزلت من العربانه وصعّدت لها. واشميت ريحـة الجنـه مرة اللخ. صدگ، حقها. . الشمس تطير اليافوخ وهالزبد اشلون ميموع؟ ـ قال الجملة الأخيرة كمن يخاطب نفسه. وبدا متقطع الانفاس مبهوراً.
ـ تعال خش
مال حمـادي بجـذعـه إلى الـوراء، وأشـار إلى عتبة الدكان واستعظم ان يصعدها. وتابع كلامه دون ان يرد على صاحب:
ـ وبعد شويه صاحت: عيني، اسطه عربنچي لتصير زحمه عليك، متيجي تصعد لياه. . راح أختنك. . وأمري لله صعدت إلياه مره لخ. وعالهالديدنه حتى وصلت للعلويه يمكن آني عشرين مرّة مصعد منزل. وخشمي وقبغ راسي وحلگي امتله بالورد والقداح. ولما نزلت نقّدت لي درهمين. . حلة البركه خاتون.
وحيّا العتبة ثانية، وكان بصره ما زال يتأرجح. على الأرض
ـ تؤمـرين خاتـون. . . وبعـد ما راحت جرّيت حسـره. وگلت ابن الزفره

ياحمادي، هاي مريه، ومرتك أم خشم الاقچم مريه؟ وفوگ هذا يوميه زعلانه عليك.

وبدا مجهداً عرق الوجه ضئيلاً حتى اشفق عليه صاحب، فقاطعه وهو يفتح فمه:

ـ فهمت القضية. . وبعدين رحت لابن مروگي.

ـ اش أسوى يا يابو مهدي. . من حُرگتي

ـ دير بالك لتوگع.

ـ مو بالحيف

وساد صمت فجائي. وعاد صاحب إلى عمله يكتم في نفسه شعوراً بالألم والأسف. كان العربنجي عاري الصدر يلمع العرق على نحره، ويلوّن وجهه بلون سقيم محتقن. جاهد لكي يرفع بصره ويرى وجه صاحب. ولكنه رأى السيكارة البيضاء تطبق عليها شفتان مزمومتان. وقال:

ـ ها، ابو ابراهيم، كلامي غثك؟

ـ لا، بس أريد أسأل جبت مصرف للبيت؟

ـ مو بالحيف ابو مهدي. الدرهمين بجيبي.

هزّ صاحب رأسه في غير رضى وسأل:

ـ وبيش العرگ؟

ـ هيهو! هو نص ربع.

ـ بيش. . أريد أعرف.

ـ ابو مهدي لتخششنا بايراد ومصرف. . لعد في مال الله.

ودارت الجدران حين دار. وسار بخطى غير موزونة حتى وقف عند طولة حاج احمد اغا. ورفع بصره. ورأى اكوام التراب والحجارة قرب الباب الصفائحي المخلوع. والعمال منشغلون في الداخل. وقف مهزوز الرأس لا يكاد يثبت رأسه في بقعة واحدة. ثم أمسك نفسه في عزم، وكأنه تذكر شيئاً. وسار مترنحاً صاعداً كومة الاحجار. فطن العمال اليه وصاحوا: «هاي وين، هاي وين؟» ولم يرد عليهم بل تسلق التل بيديه ورجليه. وفي أعلى التل رآها هناك «حنفيته القديمة ترسل بقبقتها الحلوة في البرميل الصدىء المملوء من على عهده، في الماء. وأحس بعطش لافح عند مرآها. وراقبه العمال يهبط اليها، وينكفىء فاتحاً الماء على

آخره، ويغرق وجهه في رشاشها الحار.

بعد دقيقة رفع رأسه، وتنفس نفساً عميقاً، ونظر إلى العمال المتحلقين حوله وقال:

ـ ترد الروح.

وعاد من حيث أتى. وعندما وصل إلى الخان قال بصوت متهلل:

ـ سووا درب لأسطه عربنچي

أطلت «الحكومة الله يسلمها» على المجاز وقالت بصوت لا يسمعه «جت الخيل» ثم صاحت «تعال، خش» ودخل يترنح. فرأى سليمة الخبازة امامه تحادث خيريةّ والعوانس الثلاث. سلّم فردت عليه باقتضاب. وتابعت حديثها:

ـ اش كسبت من گعدتي؟.. صار لي اكثر من شهر گاعده. والله لأرجع للخبز وأطلع مصرف البيت.

وصل العربنچي إلى ليوانه منهوكاً مبللاً. وچراويته لم تعد على كتفه. ونظرت اليه زوجته مقبلاً على تلك الهيئة فعرفت أنه سكران. لمّت ركبتيها الممدودتين، ووضعت ابنتها على الارض. وهمت ان تقول شيئاً. ولكن خيرية كانت تنظر اليها تاركة سليمة واخبارها. فتركته ينبطح على الحصير قربها مغمضاً عينيه وعرفت أنه في منتهى السكر قالت بصوت مكتوم:

ـ حمادي.. اشگ هدومي؟

تثاءب حمادي مغمض العينين وقال لها:

ـ اسكتي لچ.. تره اطلكَچ.

ـ وي، يوم الأبيض.

ـ مروكَي جوه كالتي.

ـ ونظل عمرنا بيد مروكَى؟

ولم يجبها. دلّت رأسها عليه فرأت وجهه العرق ضئيلاً منكمشاً، وكان فمه مفتوحاً تبرز انيابه الثلاثة منه، وصدره عارياً يعلو ويهبط بشدة. وأفزعها منظره. فحدقت في وجهه صامتة. واثار اشفاقها عليه انفه المحزوز الذي كانت تعيره به عند صفاء البال. وانتظرت ان يحرك شفتيه الذابلتين. انتظرت في تفجع وهلع. وتسرب كل الحنق المكتوم من صدرها. وبقت تلك العاطفة وحدها ولم ترفع بصرها عنه حتى تلمظ وطلب ماء.

- ١٣ -

بدأت تماضر تمل حجرتها الجديدة. حسبت ان الملل سيتركها حين تغادر كمب الارمن وتنعم حياتها مع الخالة نشمية، والنهر منها قريب، وشجرة التوت تذكرها بمحلتها وراء عطفة النهر. ولكنها ضجرت بعد الاسبوع الأول.

حلمت، ذات مرة، بأنها في محطة قطار وحيدة مع صرتها، وهي لا تعرف هل القطار فاتها أم لم يات بعد. كانت المحطة فارغة لم تجد فيها من تسأله. واضطرت إلى الانتظار، ملتفة بعباءتها قرب صرتها التي كانت ثقيلة جداً لا تقوى على حملها. ففكرت، ترى هل سيأتي أحد ليعينها حين يقبل القطار أو تستطيع هي وحدها ان ترفعها إلى العربة. ولكن القطار لم يأت. ربما فات. كانت ضجرة وخائفة. وهبّت على صياح ديك الخالة نشمية. وقد أوحى لها بأنها في برية فعلاً. كانت وحدها في السرير. فتحت عينيها على حجرة فارغة، وتقلبت وسمعت الخالة نشمية تسعل سعالها الصباحي.

وفي المساء تشكت إلى حسين فقال لها:

- عاد شيفلها وياچ؟.. اش بيچ؟

- روحي محصورة

- مو أحسن من كمب الأرمن؟

- احسن.. بس ما ادري.. عبالك مثل العرب الشايله.

ولازمها الشعور بانها في محطة قطار. وهي لا تدري هل القطار فاتها أم عليها ان تنتظر. كانت تشعر بأن كل شيء في غير موضعه الصحيح، وبأنها ضائعة. حاولت ان تخرج إلى النهر لتتسرى، وترمق خط الشاطىء الثاني المنظوم بالنخيل. هناك خلف الجسرين أهلها، وذكرياتها. وهي هنا، وكأنها «خطّار». وكان الناس على شاطىء النهر كثيرين، منهم من غازلها، ومنهم مَنْ حدجها بنظرة مرتابة. ورأت في عيونهم الشاكة المتطلعة عيون أهلها الباحثة عنها. فكانت تعود مسرعة، وتجلس مع الخالة نشمية والدجاج، أو تنزوي في غرفتها تسترجع ذكرياتها حتى تختنق بثقلها.

جاءت تشكو إلى الخالة نشمية ذات مرة فاعطت لها الحق:

حقچ بنيّة حديثة! والانسان خوب مو دجاج وين ميوكر ينام! حتى الطيور يراد إلها حلّه. وانت گاعدة بحجرة عگب باچر راح يجي الشته، والهوه الجاي من الشط

يكَص العظام كَص. واشلون راح تكَضين عمرچ بحجرة فارغة؟.. دحچي، دگولي! والا هيچي الحب يعمي؟

ـ حب؟! وهو أكو حب بالدنيا؟!

قالتها بنفي قاطع، وكانها سلخت العمر كله بالبحث عن الحب. وكان في لهجتها عذاب ويأس وبوح معذب بشيء يجثم على صدرها جعل الخالة نشمية تحدق بها. وكانها وجدت الشيء الذي كانت تبحث عنه. حملقت بها فاغرة الفم متهدلة اللغد، مستديرة العينين، وقالت:

ـ خاطر الله متگولي لي منين تعرفيه؟

وكم اوجعها ذلك!

ـ خالة نشمية متعرفين اشسووا بيه أهلي.

ـ نزول على أهليچ.. وهو من طرفكم؟

اجهشت تماضر باكية، ولم تجب. قالت الخالة نشمية بحدة:

ـ تگولي عيني.. قابل سر؟ وحتى السر ينعرف.

صوت نشيج ثم:

ـ لا!

ـ لعد اشلون عرفتيه؟

ـ انهزمت من بيتي، وآني ناويه اذب نفسي بالشط.

ـ وشافچ عالشريعة ومخلاچ؟

ـ أوي، خاله نشمية، على بختچ!

ـ متگولي، عيني، مو مرمرت افادي.. وين شفتيه؟

ـ بالسينما!

ـ وچنت متعرفيه من كَبل؟

ـ خاله نشمية، چنت مثل المخبلة، ما اعرف وين أولي وجهي... وحاچاني..

ـ وحاچيتيه.. وبالليل نمت بحضنه؟

وانفجرت تماضر باكية. الآن وضح للخالة نشمية كل شيء. وهرعت تماضر إلى غرفتها، وطمرت راسها في المخدة، وبكت بصوت خفيض مبللة مخدتها. اين تولي وجهها لو أن الخالة نشمية تطردها من البيت في الغد، بعد ان وضح سرها

وعرفت من تعاشر؟ مَنْ ادراها بأن حسين سيظل معها إلى الأبد، ذلك الطفل الذي لا يحب الا أن ينام معها. وحين يتمتع بها يغادرها. ماذا ستفعل؟ تقف مرة أخرى على باب السينما لتلتقط رجلاً آخر؟ تعود إلى أهلها بلا بكاره ليقتلوها؟ أهلها الذين باعوها مثلما يبيعون صفيحة دهن فارغة؟ لا.. لن تعود. خير لها ان تلقي نفسها في النهر حقاً. ولما شبعت من البكاء تراءت لها صورة أمها وأبيها. كانت الأم تلح، والأب يهدد. وفي المساء عندما عاد من دكانه قال لها «تروحين للعماره حتى لو شدينـاچ من ايديچ ورجليچ.. ش تريدين أحسن منه؟ صايم مصلي، وحوشين بالعمارة وتجارة، وأبوچ گطه عمره نزل. ولو ما هوّه چان آني من زمان عزّلت الدكان. اشـو الدنيا قحط، وكل شي ماكو.. ويعني انت ش تريدين؟ مودلي؟ ويامودلي يقبلچ وانت بنت عطار تنكاته كلها فارغة بطَّرك لسان الثور وخوبة عجم؟!

وصعب عليها أن تتصور أنها ستقضي العمر كله مع ذلك العجوز الملتحي القادم من بلدة جنوبية. وفي اليوم التالي جاء الخطيب وسعل وبصق وقال «چاهيً العمارة وين؟! بتلفات الدنيا؟ والسيارات رايحه جايه؟» ولم تطق لهجته ولا صوته. ونفرت من عباءته وعقاله ووجهه المحروق عليه لحية تخيلتها قذره. ولكنها تظاهرت بالقبول، وطلبت أن تمهل. وبعد يومين سمحت لها أمها بأن تذهب لترى حفلة ختـان على مقربة من بيتها. كانت حفلة صاخبة رأت فيها شباناً نضرين حليقين وذوي بشرة لم تخددها الشمس، وأست لحظها، وحنقت. وارادت ان تنتقم من نفسهـا ومن اهلها فانسلت من الحفلة على غفلة من امها، وخرجت من حيها، وعبرت الجسر وجاءت إلى السينما.

في المسـاء سمعت الخـالة نشمية صوته قرب الباب. كانت جالسة على التخت في انتظاره، والدجاج يلملم نفسه في خنه. وتماضر ما تزال في حجرتها. وقالت له «تعال» يابه، تعال «ثم قالت لنفسها» وين لاگيها صندوق أميني البصره؟ زعطوط جواه وحده تسوه ولايه. يوميه يجي يگظي شغله ويروح. وباچر يزهگ ويعلگ.

- مرحبا، خالة نشمية.
- هله بصبري افندي.
- وين تماضر؟
- بحجرتها.

وعادت الخالة نشمية تقول لنفسها «وعود ابتلي بيها؟ انزل واصعد محاكم؟ وعلى ويش؟ على دينارين؟» وحين رأت تماضر في الليوان لتأخذ عشاءها هزت لها يدهـا محـرّضة «كَولي له، عيني، كَولي له. . لو تريدين آني اكَله؟» وبعد ذلك تصنتت وهي على تختها. الا انها لم تسمع الا همهمة متقطعة لا تشبه الشجار ولا حتى التوسل. ثم هبط صمت. وطال. ولم تسمع الخالة نشمية غير صوت انفاسها الخشنة. وقالت لنفسها «متريد تكَول له تخاف من هالزعطوط ابو كَذله». بلاكت آني الراح ابتلي. ورفعت جسمها عن التخت، وتدحرجت على الباب.

ـ الله مسيكم بالخير

رأتهما جالسين على السرير والصينية بينهما: حسين يرتفق المسند، وتماضر مطرقة.

ـ ها، اش بيكم خاشين بالسبت؟

ـ الخاتون معاجبتها الكَعدة.

ـ اشلون كَعده! بطركَ الچربايه مال الجيش.

ـ فقال حسين في جفاف:

ـ هذا اللي اكَدر له.

تدخلت الخالة نشمية بجسارة:

ـ هو هذا حچي، الله يسلمك؟

أجابها:

ـ منين اجيب فلوس؟ ابوكَ انهب؟

ـ محد رايدك تبوكَ.

ـ وآني مو ابن مير هلاي، ولا ابن الشابندر

ـ لو ابن مير هلاي چان مجيت علينا. . وابن الشابندر مو بس يلمع شعره. . عنده قصر كَاعد بيه.

ـ آني ممقصر.

ـ ممقصر ولسه هي بالنفنوف اللي جتك بيه من أهلها. ولسع بطَركَ چربايه مال الجيش.

وكأنما احرجته. رفع اليها عينين طفوليتين عاجزتين. ولكنه في اللحظة الثانية تصلب:

ـ مو آني داعيش حوشين!
خرجت تماضر من صمتها وقالت:
ـ هذا هَمْ تحسبه حوش؟!.. زين تزوجني ويصير عندك حوش واحد.
ولكنها شعرت بالارتباك والبؤس حين حدق بها تحديقة طويلة فيها كل تاريخها معه، تحديقة توقعت ان يقول بعدها شيئاً قاسياً وقبيحاً. فخفضت عينيها في ندم وانخذال، وشعرت بعرق بارد في اسفل رقبتها. ورأت الخالة نشمية حراجة الموقف فقالت بحكمة العجائز:
ـ الزواج ليحل وليربط.. اصل الوجدان والگلب. فقالت تماضر بتراجع
ـ خالة نشمية، وآني اش رايده منه؟
فغضبت الخالة نشمية عليها وقالت:
ـ لا، عيني، حقچ!.. حديثه تگعد بحجرة فارغة!
قال حسين:
ـ وشتريدين عود؟ كنتور.. ميز تواليت؟
ـ كل شي تريد.. المريه اللي تعوف أهلها وتسلم لك نفسها لازم تخليها بعينك.
ـ واذا ما عندي.
ـ عيب تگول ما عندي، وانت ما شاء الله رجّال.. ذراعك هالمتنها. الرجّال اللي يريد كل شي يسوي انت متريد
ـ من گل لچ ماريد؟.. يعني آني هم ميعجبني اگعد بحجرة فارغة.
ـ شفت؟.. يعني الها الحق.
ـ الها الحق.. بس إلگي لي طريق
كان يريد أن يعجزها. ولكن الخالة نشمية صمتت تفكر ونقلت بصرها بينه وبين تماضر ثم قالت:
ـ زين واذا گدرت ادبر لكم چم فلس؟
ـ كلش زين.
ـ بس عيني على شرط.. آني لاعرفك ولا استعرفك. وچم حسين بالدنيا؟ تمام عيني لو لا؟.. ومن يعرف باچر شيصير بالدنيا. البارحة چنه ويه هتلر واليوم ويه الانكليز، وباچر ما اعرف ويا من راح نصير.. اي عيني.. صدگ.

لتضحك. . لازم تمضي لي كمبياله، وكَدام شهود وأعرف أصلك وفصلك. . والله يعلم اللي بكَلبي. .

ـ ١٤ ـ

لم تعد سليمة إلى الخبز كما وعدت. جاء رمضان في اواسط ايلول، وهدّ الصوم حيلها، وضاعف من لذة الاسترخاء على الحصير. وكانت تأمل ان يأتيها القسط الثاني من فرنها في صوب الكرخ. كانت تنتظر ان يدس مصطفى يده في جيبه، ويقدم لها دينارين أو «اللي يقسمه الله». ولكن مصطفى صمت. بل بدا مشغولاً عنها بالكَواني يروح بها ويجي.

ذات يوم سألها مصطفى على غفلة منها:

ـ ها، أم حسين، أشو مقهورة؟

لم تعرف كيف خجلت وقالت:

ـ لا، عيني، ما بيه شي

ـ اخاف ديقهرچ حسين

صمتت لحظة ووجدت لسانها يقول:

ـ عيني، ميصوم.

ـ اعـوذ بالله. . أم حسين من آني صغير أصوم. . . ما كَطعت الصوم يوم واحد. . . حتى لمّا رفسني الحصان، وظليت نايم بالفراش ست أشهر.

ـ ياحصان، عيني، هذا؟

ـ حچـاية طويلة، أم حسين. . يامـا شفت عذاب. . لاكن فرض الصيام عليكم يا ايها المسلمون. اننا لله وانا اليه راجعون. . . سليمة خاتون ماكو أحسن من اللي يخشع قلبه للرحمن.

هبت على قلبها نفحة ايمان. وركزت حقدها على ابن زوجها:

ـ نزول على حسين. . ما أذكر يوم فتح القرعان وقرا. . آني اعرف القرعان وما أعمى عيوني عليه؟

ـ تمام! . . ماكو احسن من القرآن. . لعد اش يقرا؟

ـ اش يقرا. . يمكن نسه القراية. . النهار كله يغني.

ـ شوفي! والدنيا رمضان. . بالراديو غنوه وحده ماكو.

ـ اي، ولد سايب.

وقال في نفسه «نغل!» ومشى إلى حجرته آمناً من أن تقول له شيئاً.

وفي الخان صامت العوانس الثلاث دون ان ينقطعن عن العمل. ونقلت فتحية ام الباقلاء عملها إلى المساء. ثم تركته على مضض، لأن الناس لا يريدون ان يفطروا على باقلاء، فيضطروا إلى ان يعبوا الماء عباً. وصامت رديفة زوجة حمادي العربنچي لأن خيرية صامت، وهي، اي رديفة، لا تريد ان تكون أقل منزلة عند الله. ولكن خيرية بدت حزينة مغلوبة على أمرها. ولم ترفع صوتها وسط الخان كما كانت من قبل. وذات يوم انتهزت فرصة غياب رديفة ففاضت بمكنون صدرها للعوانس. كان ذلك يوم جمعة، ورزوقي، زوجها، يلمع دراجته ذات المرايا الخمس، والعوانس مصفوفات قرب الحائط. وكانت خيرية واقفة قرب البالوعة:

ـ متدرون ليش مقهورة هالايام؟

ـ ما ندري.. بس نگول لازم الصوم متعبها.

ـ الصوم ميتعب.. والله لو اصوم ميت سنة.. بس عيني نزلت مصيبة بالدايره مالت رزوقي.

ـ ليش؟

ـ متدرون!.. المدير مال رزوقي نقلوه.. وجابوا له مدير كلب بن سطعش كلب.. أگولها وآني صايمة الله يرضه على ذاك المدير العتيگ چان صايم مصلي. واشلون چان يداري رزوقي! يعزه ويكرمه. وميشرب گهوه اذا ميشربه وياه. والأكل؟!.. عيني الاكل!... هالبايسكل شاهد عليه. چان رزوقي يجيب له عالبايسكل من بيتهم ب.. ب... ب... رزوقي وين بيت مديرك العتيگ؟!

ـ العلوازية

ـ اي، عيني، بالعلوازية.. محلة محتشمين. والأكل مالهم خوب مو مثل أكلنا خبز وبصل. لا، عيني، تمن ودجاج. واحنه نطي البرتقال للوجعانين مثل الدوه وهمّ البرتقال والتفاح والعرموط ياكلوه مثل متكرزين الحب. وكل شي چان يطعمه لرزوقي.. ذاك المدير مال أوادم.. مو هذا اللي... اللي... اللي حرام عليه السكملي اللي يگعد عليه.. أريد اگولها وآني صايمه.. الله يسلم الحكومة اش يگطع عقلها.

ـ لچ خيرية وين الدرنفيس؟

ـ شوفه عيني بالرازونة.. هذوله مو محتشمين.. الله يعلم اشلون صار

مدير. . الله يسلمها الحكومة تتقشمر بالعجل. . اشلون مدير يلعب النفس؟. . رزوقي يگول راسه عبالك باچه مسموطة. . وأعمه ميشوف. لابس مناظر هالثخنه، مثل بطن السراحية اللي تكسرت قبل يومين. . بعد شنو رزوقي؟

كان رزوقي يمسح العجلة الامامية، فحول وجهه إلى العوانس، وخرقة المسح في يده، واخذ يمثل هيأة المدير:

ـ سمين، وبطنه عالية. مو بس شعر ماكو براسه. . حواجب ما عنده. وعينه من ورا المناظر مثل الحمصه.

ـ عوع. . قحط!

ـ يجي من الصبح، لا سلام عليكم، ولا الله يصبحكم بالخير. . رأساً للغرفة. . ورزوقي جيب لي گهوه. . ما يصوم!

ـ الله يسلمها الحكومة تجيب كفار وتسوّيهم مداره

ولم يصم حسين. في الاسبوع الأول من رمضان أخذ ثلاثة دنانير دفعة واحدة من صاحب، وذهب مع الخالة نشمية إلى سوق الهرج، واشترى بفلوسه وفلوسها سريراً عريضاً وكنتور «ابو مرايه» وفراشاً ومخدة طويلة ولحافاً وبساطاً مستعملاً. وحملها على عربانة «برشقة» إلى الكرادة. واستقبلته تماضر فرحة عند الباب، وكأنه جاءها بجهاز العرس. وقبلته امام سائق العربه الذي قال «كل بوسه تسوي كنتورا!». وبعد ان رتبا الغرفة استلقيا على السرير، واستمتعا بالتمرغ على فراشه الوثير. وكانا يسمعان نشمية خلف الباب تقول «الله يساعد الصايمين! النهار اش طوله!. . . كش كش. . من تصعد الطوفة الدوره أكسر رجلك» وكان التحذير موجهاً إلى ديكها!. وغفى حسين وتماضر ساعة رغم الحر. ثم صحا حسين اولاً ورأى تماضر ماتزال نائمة. تأمل جسمها الفتى الممد إلى جانبه، وثوبها منفرج عن اسفل فخذها. وقال لنفسه «كل شي ملكي!. . من هنا إلى هناك» من الشعر المبعثر على المخدة حتى رمانة ساقها الممتلئة البضه. . كل شي فيها يستطيع ان يمرر يده عليه. وقبّل ارنبة أنفها، وطمر انفه في الخندق المظلم ما بين كتفها المدور واستدارة فكها. واستيقظت تماضر وقالت «اش بالعجل غفيت؟!» فاشتهى ان يقبل شفتيها اللتين نطقتا بهذه الكلمات. وفعل دون أن يستأذنها. فقالت تماضر:

ـ هسه الخالة نشمية تحچي علينا. . . تگول لو ادري ما أطيهم الفلوس. . النهار كله راح يگضوه بالمصارعة!

وتألم. وفي اليوم التالي شعر بألم أمض حين قال له صاحب:

ـ ثلث دنانير بقت من فلوسك!

ومدّ صاحب يده في جيب داخلي واخرجها له. ثلاثة اوراق ضئيلة ذات لون واحد، بقية اوراق كبيرة ذات الوان كانت، يوماً ما، ثروته ومصدر استعلائه على اهل محلتـه. ومَنْ يملك منهم ثمـانية عشـر دينـاراً؟ فتحية ام البـاكَلة لو حمـادي العربنچي؟ . . حتى علوان ابو الجص بدا له مسكيناً بالنسبة له. ألم يقل له صاحب ذات مرة «كلّش كلّش تكَـدر تشتـري زمـالين وتشغلهـا بالجص مثـل علوان ابو الجص. . ليش ممعيش عشرة؟!» والآن انهار كل شيء.

وعاود الذهاب إلى ذاك الصوب في الاسبوع الثاني من رمضان. وكان يقول لنفسه حين يعبر الجسر اذا رأيت الأحول يعني ما أشتغل! ولم ير الأحول ولكنه وجد الفلاح. ثم ظهر الأحول في اليوم الثالث وذكر انه كان مريضاً، وظهره يؤلمه من الـوقـوف الـطويل. ورأى حسين في يده كتـابـاً انكليزياً. وقال الاحول لحسين برنـامجـه: يقف في انتـظار العمـل حتى السـاعة الثالثة، ثم يذهب إلى البيت ليستريح. وفي العصر يبدأ بدراسة الانكليزية حتى تظلم الدنيا. وقال حسين في نفسـه «يمكن ميشـوف بالليل». وكان الفلاح الجنوبي يترصد لهما. ويقف إلى جانبهمـا وكـأنـه يغيضهما. واعتبراه علامة شؤم وأرادا التخلص منه. اقترح عليه الاحول ان يذهب إلى امانة العاصمة ويشتغل كناساً، واقنعه بمشقة. فغاب يومين ثم عاد في اليوم الثالث، وقال: مكتوب «غطعه» على الباب، ما يريدون كنانيس. . حيف الدرهم. . چا ما له حوبه؟!»

وفي الاسبوع الاخير من رمضان اخذ الجو يبرد، ونزل الناس من السطوح. وكفّ حسين عن الذهاب إلى الساحة امام المفوضية البريطانية.

ـ اخليهابالخانة اللي يم الكَاع.

وفي ليلة العيد لم ينم الكثيرون من الاطفال استلقوا على فرشهم واضعين تحت وسائدهم أو بالقرب منهم اشياءهم الجديدة: حذاءاً أحمر، جواريب ملوّنة، دشداشة مقلمة جاءت من الخياطة تواً، وفيها رائحة قماش جديد مأخوذ ببطاقات التمـوين. وبسبب من تلك الجـدة لم يناموا، وظنوا ان الشمس قد تأخرت عن ميعادها. ولما غفوا قليلاً حلموا بالمراجيح، وبالعيديه وبحمير علوان ابو الجص ببراذع نظيفة، واجراس رنانة، واستيقظوا قبل الفجر، وجربوا احذيتهم وجواريبهم،

للمرة العشرين.

وفي تلك الليلة الاخيرة من رمضـان لـم ينم حسين ايضاً سهر يترقب قلقاً حالمـاً. بالأمس سمع خيرية تحث زوجة ابيه بالذهاب إلى الحمام في الفجر، ورآها فرصة لا تفوت للكشف عن محتويات الصندوق. كان يراقب الفجر في نفاد صبر. واغمض عينيه وتمثل العملية في ذهنه... أوه!.. اذا تتم بنجاح يقضي العيد فرحاً مع تماضر. وانقلب على جنبه الآخر، وحاول ان يغفو. ولكن جسمه كان متهيئاً لأن يقفز. كانت فيه حيوية مكبوتة. وانقلب إلى جنب آخر. هذا أروح. واسترخى. ولكن جسمه تمرد عليه في الدقيقة الثانية. وتخيل الصندوق الذي تضع زوجة ابيه فلوسها ملابسها فيه. ولكن!.. قد يكون مقفلاً. وانتابته موجة قلق أدار ظهره للحائط في ضيق. واستطاع أن يلمح مستطيل الباب شفافا. ربما هو الفجر في الخارج. وكانت الصراصير تغني في الليوان. وكان يعرف ان الصراصير تغني حتى تطلع الشمس. وانتـظر. وشفّ مستطيل الباب عن زرقة. وتوقع حسين أن يسمع صوت مزلاج الباب. هذا هو الفجر. هذا وقت ذهابها. ورفع جسمه عن السـرير وأرهف سمعـه. ولم تلتقط اذناه شيئاً. مشى حافياً حتى الليوان. كانت النخلة القميئة هناك. طلع الفجر من حيث لا يدري. ولكنها ما تزال نائمة. وهمّ بالرجوع حين سمع انيناً ممطوطاً أشبه بأنين دواليب العوانس. ولكن اليوم عيد. وليس من الجائز أن تعمل العوانس في مثل هذا اليوم. وترك الليوان. كان الأنين يأتي عبـر الجـدران على يمينـه، حيث حجـرة زوجـة ابيه وليوانها. ومشى نحو حجرتها. كان بكاء متهدجاً سمعه بوضوح وهو في الليوان الثاني. واقترب من باب الحجرة وصاح بصوت مهزوز:

ـ يوم!

انقطعت الولولة. انها هي، تبكي في صباح العيد:

ـ هاي اش بيج؟

ودفع الباب قليلاً فرآها في ضوء الفانوس النحاسي الكدر منكبة على المخدة في سرير عرسها الحديدي لافة جسمها في عباءتها. كانت كتلة سوداء متكورة مثل اجانة من اجانات العجين حين كانت تدثرها ايام الشتاء لتختمر. ودخل الحجرة واقترب من السرير فسمع نشيجها الخافت، وتنفسها الثقيل.

قال لها:

ـ هاي، اشبيچ من الصبح د تبچين، واليوم عيد؟

وكأن لهجته اللينة أججت بقية عبراتها فانفجرت باكية. بكت بكاء موحشاً ذليلاً أدهشه وأربكه. احس بألم وامتعاض فراح يهدئها حتى خفت صوتها، وركنت إلى الصمت. وكان يغالب نفسه في ذلك الوضع الذي لم يجابهه قط

ـ هاي شبيچ؟... منين متضايقة؟

ولما لم تجب أكمل:

ـ اخاف متضايقة مني؟

رأى يدها تتحرك وتمسح أنفها. وأخرجت رأسها قليلاً، وتنفست نفساً عميقاً كالحسرة.

ـ ليش مقهورة؟

ادارت له وجهها قليلاً فرأى انفها الأحمر المبلل، وعينيها المقوقعتين اللزجتين. وسمعها تجيب بصوت غير صاف:

ـ هيچي!.. روحي انحصرت.

ـ ميخالف.. كل شيء يتعدل.. أيامچ سعيدة!

ـ وأيامك

وأمتص بكلامه جانباً من وحشتها، فحسرت العباءة عن رأسها، ولاح له وجهها العرق متلوياً قبيحاً. قال:

ـ گومي غسلي وجهچ گومي.

وامتثلت له. نهضت من السرير، وخرجت. ولبث حسين في الحجرة دقيقة بعدها. أجال بصره فوقع على الصند وق الأسود هناك. لم يكن يتدلى منه قفل، وزم شفتيه في حنق مفيض. وترك الحجرة. ورآها تغسل وجهها عند النخلة القميئة. وتستنشق الماء، وتتغرغر به. واغتسل هو بعدها. ودخل حجرته يتخذ زينته القديمة. وفكر بها الآن. كانت تبكي بحرقة مثل امرأة مطعونة بكبدها. فلماذا؟ أحنت إلى الخبز، أو تبكي أباه؟.. كل ذلك مجرد تخمين. وأسف على فوات الفرصة. وسيمر العيد حزيناً. ونظر إلى وجهه الشاحب في المرآة. ثم سمعها تناديه:

ـ حسين!

أجابها فقالت:

ـ عبالي طلعت
ـ ومدت له يدها بورقة حمراء
ـ يمّه، ماريد فلوس
لأول مرة في حياته قال لها ذلك. ولأول مرة في حياتها أجابته:
ـ أخذ عيني.. منين لك فلوس بالعيد؟!

ـ ١٥ ـ

بعد انتهاء العيد عادت سليمة إلى الخبز. وحين استيقظت، لأول مرة، في منتصف الليل بعد أكثر من شهرين قضتها عاطلة، شعرت برهبة لا ارادية تزحف تحت جلدها. نظرت إلى الحائط الذي يشركها مع الطولة، والذي كان مرهون السايس يدقه في الشتاء بحجارة من الجانب الآخر فتستيقظ. الآن بدا لها فارغاً ميتاً. لا شيء الآن في الجانب الآخر غير الحجارة الباردة والابَالسة. وذلك اشعرها بالخوف على نحو أشد. هي وحدها الآن في سكون الليل من عالم الانس. واستعجلت في لمّ العجين. ولما اعوزها الماء خافت ان تخرج إلى الحوض المظلم، واكتفت بأن افرغت الماء من سخان الشاي، ومن دورق ماء الشرب.

ولكنها استيقظت عند الفجر. وحين هست النار في التنور هسيسها المعهود أحست بطمأنينة دافئة. وبعد قليل سمعت صافرة الچرخچي تعلن نهاية الليل. تناولت قطعة من العجين مسمية باسم الله، وراحت تطرقها. شفت في إعماقها فرحة مثل فرحة طفل وجد لعبته الضائعة. واستأنست بالطرق يملأ اذنيها، ويرن مليئاً بالعافية والخير، ويبدد وحشتها. أحست بالعجين رخواً، وتلذذت بمرآه ينداح مطواعاً ملء كفيها.

وبعد «الشجار» الأول استيقظ حسين. جاء يفرك عينيه مع أنها لم تقل له شيئاً عن رجوعها إلى العمل. وجلس على الارض متثائباً امام الخبز المنشور على عباءة سوداء. فوجدت في ذلك عذراً لأن تقول له:
ـ لتثاوب عيني، وتطير البركة.
ـ راح اغسل وجهي.
ـ روح عيني، اخذ لك غفوة!
ـ نظر اليها في حنق وعتاب. فنكست بصرها خجلاً. فلما جاء ثانية كانت

في ذهنها فكرة أخرى.

ـ شوف، عيني حسين، آني راح أعد لك الخبز

ـ عدّي.

ـ اي، أحسن، لا انت تتعذب ولا آني.

ولكنهما اختلفا عند الظهر. شهرا البطالة علّماها اشياء كثيرة، منها أن تصك اسنانها على الفلوس أكثر.

ـ سبعين كَرصة.

ـ خمسة وخمسين.

ـ عيني اشلون خمسة وخمسين.. كل شجار اثنعش كَرصة.

ـ كَلت لچ خمسة وخمسين.

ـ أوي، عيني.. اشو جيب الفلوس.. خليني وحدي.. عيني روح للكَهوة.

وتركها، ولو فتشته لرأت ثلاثة دراهم في جيبه. ولكن منظر الفلوس في الطاسة المعدنية ابهجها. غرفتها بيدها. كانت كثيرة. وانساها ذلك تعبها ووساوسها. فأبتهجت لعودة الفلوس من بعد غياب، ولما جاء مصطفى في العصر يحمل «كَونية» استقبلته ببشاشة، واستضافته:

ـ عيني، ابو ابراهيم، الچاي مخدر.. تجي تشرب استكان چاي؟

ـ اشكرچ ام حسين. أكو واحد يكَدر يرد الجاي من ايد حلوه؟

ابتسمت في فرح. وصبت له قدح الشاي. فتح مصطفى حجرته، ووضع «الكَونية» في الحجرة، واغلق الباب ثانية وجاء ينود برأسه:

ـ ام حسين، اش لون الانسان يجازيج، والله القائل وما جزاء الاحسان الا الاحسان؟

كانت جذلى للغاية:

ـ تفضل عيني.. متكَول لي منين تعلّمت ها الآيات الحلوة؟

قال لها وهو يخرج سيكارة من جيبه:

ـ كَولي غيرها أم حسين.. آني خاتم القرعان مرتين من آني جاهل

ـ وما نسيت؟

ـ اشلون انسه، وما أدري يا امام القائل: التعلوم في الصغر كالنقش في

الحجر. . ويا ويل اللي ينس القرعان.
تنهدت سليمة في حسرة وقالت:
ـ وين حسين حتى يسمع؟
ـ لازم د يعذبچ.
ـ مد ينام بالبيت. . ما أدري وين يبات.
ـ هاي بدل ميشليچ على راسه.
ـ يشيلني على راسه؟ . . خلي يفك ياخة عني.
ـ آني عندي خاتون مثل الوردة، وما حطه بعيني؟
تندى وجهها، وافاقت عيناها فاطلتا من جفنين سميكين. قال لها في ثقة رجل:
ـ يمكن يشوفچ وحدچ ويلعب عليچ.
ورأى وجهها يغيم، فأدرك أنها تأذت من حيث لم يرد.
قال ملطفاً:
ـ ما لازم تنقهرين! . . القهر ش يحمله؟ . . لو حطوه على جبل لأنهد عاد الانسان؟ وانت اش شايفه من الدنيا؟ . . بعدچ ما شاء الله. . . والشباب اذا راح لا ينفع ولد ولا تلد.
ناولته قدح شاي آخر. وانبسط وجهها مرة أخرى. وكانت على شفتها السفلى ابتسامة. . ربما هي ابتسامة خجل واعتذار من عمرها. فأسترسل في لهجة حنون:
ـ ام حسين. . ترى آني كل ما اشوفچ مقهورة انقهر آني هيمنةً.
تنهدت وقالت:
ـ لا، عيني، لو يش؟
ـ ما ادري. . يمكن اگول مريه حديثة لازم تفرح. لازم يكون قلبها خالي من كل هم. . . الله يرحم أبويه چان يگول القلب مثل الوردة اذا خش بيه هم ذبل، واذا ذبل بعد الدنيا ما تسوى شي. واحنه ما ،نديربال على قلوبنا. واحدنا عمره عشرين سنة وتشوفيه مثل الشايب. لويش؟ . . شايل هموم الدنيا على راسه، ودايماً يحسّب حتى يخلص قلبه. وبعد هذا كل شي ميشوف له طعم حتى الماي اللي يشربه.
قالت في حسرة:

ـ عاد جيب لك گلب خالي ، وسلمان من جور الليالي .

رد عليها بنبرة عاطفية :

ـ يعني اش تعتقدين؟ . . أكو واحد بها الدنيا گلبه خالي؟ صاغ سليم؟ . . ابـداً . . لتصـدگين ام حسين . يمكن انت تشوفيني أضحك، وأجيب بهالآيات تگـولين خيعـونـة لمصطفى . . گلبه خالي . . أبداً ام حسين! ما مستقر بالدنيا . واشلون استقر وآني غريب بهالولاية . . أعيش خمسين سنة وآني بلا أهل، مقطوع من شجرة، لا عندي بيت استچن بيه، ولا گرايب اروح يمهم . . اركض مثل حمالة الحطب وشم حصل؟ . . أبداً . . ويصير الليل ألف راسي وأنام بحجرة مثل هٰذه الحجـرة، يمكن أصغـر . وانت باسم الله؟ وتقـدمي لي چاي وتشريب طماطة ، والوجه الحلو يضحك . . بلاكت هذوله اللي گاعد عدهم نزل مثل الدايس على خوانيگهم ، من يشوفوني يتراكضون ، النسوان والولد ، وأخش بحجرتي ، والليل كله اسمع الجريدة . أم حسين لتهيجين نار گلبي!

أطـرق صامتـاً . ورفعت سليمة اهدابها فقابلتها صلعته الطويلة التي اطفأ غبش المساء بريقها . لاح لها مكروباً ذليلاً حتى احست بالاشفاق عليه .

خدرت ساقا مصطفى الطويلتان ، وهو جالس على «تخته» فمددها . واخرج سيكارة . وبحث عن علبة الكبريت فلم يجدها . قال لها :

ـ أم حسين . . متورثي لي الجگارة من اللمبه . . هالايام الشخاطة تعادل صمونتين .

تناولت السيكارة ، ورفعت الصفيحة المثقبة الحارة ، وأدخلت السيكارة في عين النـار ، وتـركتها تدخن ، ولما اخرجت كان نصفها اسود . وخجلت . ولكنها شعرت بالالفة نحو الذي قدمت له السيكارة . وكان التنور قد همد ، والمساء قد اقبـل . وكان كل شيء بيتياً . . التنور ولمبة الشاي ، والسيكارة ، ورجل وامرأة . . رجل ثرثار ، وامرأة خرساء لا تستطيع الافصاح عن نفسها . الوف من سني العبودية سلبتهـا نعمـة النطق بما يجيش في صدرها . ولولا ذلك لقالت : أنا ايضاً أحس بالوحدة يامصطفى . وفي يوم العيد بكيت لانني وحيدة في هذا الحوش الكبير ، ولان الشتاء سيأتي قريباً ، وسأسمع المرازيب واخاف .

في تلك الليلة سكر مصطفى عند «ابو خشم الدرنفيس» وأرقت سليمة في حجرتها . تقلبت على سريرها متأففة . ورفعت الشّف برجليها في ضيق . لم تكن

هناك سماء تستأنس بنجومها مثلما استأنست في ليالي سهادها الاولى. الفانوس النفطي معلق على الحائط، وذبالته خافتة، وعلى الحائط قمع من الضوء قاعدته تضيء دواسر السقف القريبة. استرجعت كلمات مصطفى الحنون الساحرة التي هزّت اعصابها الرخوة البطيئة الاستجابة.. الكَلب اذا خش بيه الهم ذبل، واذا ذبل بعد الدنيا ما تسوه شيء، حتى الماي ميصير له طعم. وصدّقت. في احيان كثيرة كانت لا تستسيغ طعم الماء. مراره. وفكرت في نفسها المظلومة، وحياتها تذبل في بيت موحش. هي ونخلتها تستقبل الصبح والليل، بلا طعم ولا راحة. وأي شيء رأت في حياتها؟ صحيح ماذا رأت؟ انتظرت الزوج طويلاً وصبرت صبر أيوب ولما جاء قالت هذه فرحة العمر... زوج عنده بيت وسيارة، وأي قسمة اروح من هذه القسمة؟ ولم تدر أنها ستفقده في ساعة مشؤومة.

زفرت سليمة وانقلبت إلى جنبها الآخر، وعيناها مفتوحتان. وعند منتصف الليل نهضت لتعجن العجين بيد رخوة. جلست إلى جانب الاجانات تحرسها رائحة الماء الحار من ابدية الليل البارد.

واطبقت رأسها على صدرها، ثم شعرت بوجع في ظهرها، فنهضت واستجارت بفراشها واسترخت وقالت لنفسها «جدة!.. مثل الجدة» وكأنها ولدت عشرة بطون! وقفزت إلى ذهنها كلمات مصطفى «مريه حديثه!» «وأخذت تسأل نفسها عن عمرها» اش كَد عمري عيني؟!.. ثلاثين؟.. من خطبني عليوي، الحجل چان برجلي، ومشيتي تهز الكَاع.. التنور اللي يهد الحيل، التنور اللي يكسر الظهر.. ست سنين ورا التنور، لا صيف ولا شتا استراحيت.. عبالي استريح.. أطيت الثلاثين دينار اللي جامعتها من عمه العيون، وكَلت راح اخلص من التنور. وهسه طلعت شريكه.. طلع الفرن مشتركين بيه عشرين واحد.

وصممت ان تفاتح مصطفى في الموضوع.

بعد يومين جاءها يحمل «كَونية». وقال لها عند الباب في لهفة:

ـ جبت لچ چاي من هذا الأصلي.. ممغشوش!

كانت وراء التنور، فمسحت يدها بثوبها الاسود، وتناولت الكيس الورقي الصغير. وفتحته وشمّت رائحة الشاي. ولاحت فرحة طفولية على وجهها المنتفخ

ـ ابو ابراهيم شنها الزحمه!

ـ كل زحمه ماكو.

ـ هذا الچاي مال أوادم . . مو ذاك اللي يبيعوه العطاطير . . كله بثن . . راح اشرب واندعيلك!

ـ تستاهلين صندوق چاي .

وخجلت . راقبته يفتح باب حجرته ، والشاي في يدها ووجهها يعبر عن أكثر من فرحة بكمية قليلة من الشاي . وقبل ان يغيب في حجرته قالت له :

ـ ابو ابراهيم خلّصت شغل ، وراح اخدر چاي . . تبقى تشرب چاي؟

ـ آني باقي .

خلعت الجـوربين الأسودين اللذين تلف بهما ذراعيها اتقاء النار، والثوب الاسود الذي تتسربل فيه ، وأسرعت تشعل اللمبة . وبعد زهاء ساعة كانت جالسة على الحصير، ومصطفى إلى جانبها ، ورائحة الشاي العطرية تفوح دافئة مهدهدة للاعصاب حتى قالت في لهجة رخوة :

ـ عيني ، هذا خاصيك يبيّن مو خوش آدمي .

ـ زنديق بن زنديق .

ـ يعني الثلاثين دينار تروح بوله بشط؟!

ـ على بختيج ام حسين . . وجعلنا على المؤمن قلبه حفيضا .

ـ شهرين ما استلم منه غير ثلث دنانير؟ . . هذا اشلون فرن أجرب؟! حتى لو چنت مشتركة ويه خمسين واحد .

ـ حقيج . . . أم حسين تره أحچي وجداني . . يعني قابل الارمني ابن أخويه؟

ـ لا ، عيني ، انت ش عليك؟

ـ والمؤمن للمؤمن كالبنيان المـرصـوص . . البارحة چنت يمه . . گلت له خاجيك طوختها ، ولعبت نفسنا . الثلاثين دينار لو مشغليها بالتجارة چان جابت ذاك الحساب . گال ابو ابراهيم انت تعرف الانكليز يوم وياك وباچر عليك . گلت له احنـه ش علينـا من الانكليز والمسقـوف؟ احنا اطيناك الفلوس ونريد حقنه . . ؟ وعليت حسي عليه طالبته بالفلوس ، وأنعلت أمه وذاك ابوه . . والله لا اشتكي عليه احجز عالفرن . . اهجوله تهجول.

قال كلماته الأخيرة محتقناً فهدأت . واستسلمت له وقالت بعد فترة صمت :

ـ وبعدين؟

ـ وبعدين نشوف . . خلّي يولي . . سلبوح السيان . . دشمـي شلون ريحة

الچاي؟ . . يگعد الراس.
ـ كلش خوش چاي . . منين اشتريته؟
ـ من تاجر بسوگ الشورجة . . اطانياه من راس الصندوق گبل ميخلطه بالسودا والبثل.
ناولته «استكان» الشاي. فمسح فمه بباطن كفه قبل ان يتناوله، ونقل مسبحته السوداء إلى اليد اليسرى. وسألها:
ـ اليوم مخلصة من وكت؟
يوميه راح اخلص هيچي وكت. . التموين قلل الطحين
ـ أحسن لچ.
قالت له متشكية:
ـ عيني، شم حصلة من التنور؟
ـ حقچ. . مريه حديثه تگضي كل عمرها بالتنور.
ـ والخبز ينراد.
خاف ان تعود ثانية إلى حديث الفرن فقال لها:
ـ تنگضي. . البارحة ام حسين غير منام شفت
ـ خير ان شاء الله.
ـ شفت نفسي. . . الله يرحم والديچ متورثي لي الچيكاره؟
ـ عيني، ما اعرف أورثها.
ـ شيراد لها. . تتعلمين.
تناولت السيكارة، ورفعت الصفيحة المثقبة وقالت:
ـ اي عيني. . كلامك مقطوع بخير. . اش شفت؟
ضحك ومصّ من السيكارة السوداء الرأس:
ـ شفت نفسي واگف ورا باب الحوش، والدرب چان يصوصي. دگيت الباب محد جاوبني. . صحت أم حسين آني مصطفى. . محد جاوبني. هوايه نقهرت بعدين انداريت من الطولة. . هم چانت مفلشة تشلبهت عالتيغة. . وشفتچ گاعدة بنص الحوش. وبصفچ فد سيد عمامته هالكبره. . صحت ام حسين ليش متفكي لي الباب؟ مو صار لي ساعة واگف بالدرب. . شنو زعلانة مني؟ مجاوبتني. نقهرت وروحي فرفحت، وحسيت ثقل على صدري. . ردت

اختنگ. . وبعدين كَبيت من النوم
ضحكت سليمة في نشوة وقالت:
ـ كل المنامات بالمگلوبي!

ـ ١٦ ـ

سألتها تماضر:
ـ من هذا تربين دجاج؟!
ـ لو اگدر أربي طيور چان ربيت من زمان، چنت آني مثل الريشة. هالسمن كله قهـر جاني لما تزوجت المرحوم رجلي ابو الچهره المزنجره. ويوم على يوم أتحصر، وتكَعد على أفادي حكَة شحم إلى أن صرت بهالحال. من آني صغيره چنت أطارد مثل الغزال. بس يصوفر لي رديف. وبعد دقيقة وحدة آني يمه. وجا يوم طيور ما كام يطير. كَبّت عليه عيطة الجوارين من الخايبات اللي ما چان يدير لهن بال. شنو يابه؟ ديعاين علينة.
ـ ومكَمتو تتلاكَون؟
نتـلاكَـه على عناد الظالمين. چانت بعگَدنه خرابة چبيرة. . انت تفطنين عليها، يم السقخانة.
ـ اي خالة نشمية افطن عالسقخانة ـ وتنهدت ـ ذاك اليوم فلّشوها!
ـ چنت أروح بحجـة أملي ماي، وأشـوفـه هنـاك بالخـرابة يطير طيارة أم السنـاطير. وام السنـاطير ما يطيروهـا الا ناس عليهم العمل. چانوا خمسة ستة يشتـركون بيها ويسووها. قوسها ثخين، اثنين يتكَابلون عليه يله يعوجوه. وخيطه متين. وچانوا يشدون حجارة بذيلها حتى تثگَل. وچنت اشوفه هناك لازم الخيط بايده الكَوية، وچاك الصايه مفكوك، ورمانة رجله مبينة هالمتنها. چان بس يعجبني أعـاين عليهـا، عبالك منحوتة من مرمر. وچان من يشوفني يسلم الخيط لثلاثه، ويجي يركض عليه بحجة يشرب ماي. وهناك نتناغى. چان يعجبه يشرب الماي من حلگَ المشربه. المشربه اللي لما چنت اشيلها على چتفي احسه ينفطر، چان يشيلها رديف مثل متشيلين التنكه الصغيرة، ويقرقر بيها إلى ان يرتوي. ؟ ويگول لي بحـرگة: اشلون؟ مو مرمرت گلبي؟ چنت اگول له: آني هم مرمرة. اطلبني من اهلي. فچنت أعرف أهلي مدبري لي حفرة يطموني بيها. چانوا يعرفون رديف ما

عنده الا الطيور وام السناطير، وعايش بيت مزة ابوه.

ـ چانوا يعرفون انت تحبيه؟

ـ وأكو واحد ظل ميعرف؟ چانوا يحيرون ش يسوون حتى ميخلونة نتشاوف. بلاكت اذا اثنين تحابوا يطلعون نگابير من جو الگاع.. شي واحد مگدرنه نسوية... منهزمنه!

زفرت تماضر، وتندت عيناها، واستدركت نشمية:

ـ ولو گدرنا نسويه چان سويناه. فد يوم جا عليه أبويه على غفلة، وگلي نشمية شفت لچ عرّيس صاحب بستان. بعد شتريدين؟.. بساعة الساعة گمت اشهگ وأبچي. گلي: احنه عارفيها من زمان. بلاكت هذا خملچ أزوچ لرديف اللي نهار كله سايب؟ بديعة! شديها من رجليها وايديها، ولتخليها تطلع. وشدوني من رجلي. وبعد يومين جا السيد للحوش، وعگد المهر. وكل شي صار على غفلة، وبالعجل، وليلة الدخلة مسلّمت نفسي إلا بعد ما جرّ الخنجر عليّ وخلاه على خوانيكَي. وأهلي من ورا الباب يتلاوبون ويصيحون: اقتلها.. هاي مو بنتنا.

سألت تماضر: ورديف اشصار منه؟

ـ ثلث تشهر من بعد الدخلة عتبة الدار مشفتها. وبعدين خلوني اطلع شويه. بلاكت عگبيش؟ رديف طلع من بيت مرة ابوه.. طلع هاج! وباع طيوره. ومحد يعرف وين راح.

ولاح ظل من الاسى في عيني تماضر، ولوت راسها في اشفاق. وكانت تفكر بذلك الشخص الذي رسمت له الخالة نشمية في خيالها صورة اسطورية. وبعد دقيقة صمت سألت بهمس شجي

ـ وراح للتالي؟

اجه للطرف بعد ثلث سنين. بلاكت الثلث سنين عمر. تزوجت بيها وحبلت وجبت ولد ومات. والتهيت باللهوة اللي مطلعين منها. وصاحب البستان طلع عنده حصة بستان صغير مال وقف. گلت لچ الأهل يكذبون. الركّاع يسووه قندرچي. ورديف مو ذاك الرديف. ابو صايه الترف، والطيور الحلوة، وام السناطير. جا لابس بنطرون اسود مركّع، ولحيته چبيرة. وآني يمكن تغيرت، الحاصل أول شوفه چانت صعبة علينا. وبعدين كل واحد مشى بدربه.

سهمت تماضر منكسرة الخاطر. وبعد لحظات تفكير هزت رأسها وكأنها

تطرد الأفكار عنه. لم ترد أن تصدق بما صار عليه رديف.

تحسرت وقالت:

ـ خالة نشمية، اذكر لما چنتو تسوون هريسة.

كانت صورة من صور ماضيها الحلو:

ـ چان رجلي مجنون بيها. بلاكت شنو الفايدة؟ چان الأغبر يگرط فلوسه گرط. وبدل ميصير غني مثل اخوته چان دايماً ينتظر فلوس الضمن. وبعدين حتى اخوته طردوه من بيتهم. وجينه گعدنا بهالبيت.

ـ والنبگة؟ . . أويلي عالنبگة!

حلمت تماضر بها. حلمت بكل الاشياء البعيدة وراء عطفة النهر. كانت تتسلق «النبگة» خلسة، وتجلس في المكان الذي تتفرع فيه الفروع وحين كانوا يحسون بها يطردونها. وكانت الخالة نشمية وحدها تدافع عنها.

ـ خالة نشمية من طلعتوا من البيت، ابداً مخشيت بيه.

وغرقت في حزن. ربما حلمت بمسقى الماء ايضاً. ربما شمّت رائحة الطباشير. والآن أصبح رديف أيضاً من فرسان أحلامها. كانت تتخيله أمام عينيها بصايته الحريرية، والحمام حوله. كان بطل اقصوصة مسحورة، مثل ابطال تلك القصص التي كانت جدتها تقصها عليها. حتى ليصعب ان تصدق انه هزم تلك الهزيمة الشنعاء، وجاء ببنطلون رث، ولحية نامية. حلمت به فارهاً جسوراً مهيب الطلعة. ولم تتصوره غير ذلك. ثم هو، مثل أبطال الاساطير، يتيم ومظلوم. ولا قلب يحن عليه. . ربما كانت هناك وشيجة بينها وبينه. فهي مظلومة ايضاً، ولا قلب يحن عليها. ويمكن أن يكون مصيرها كمصيره. واحبت ان تسمع المزيد من اخباره من الخالة نشمية. كانت المرأتان تجلسان طويلاً حول المنقلة، وكان الجمر يتوقد كالياقوت فتتذكر تماضر ذلك السلطان الذي كان يتدفأ بحرق الياقوت. حكاية سمعتها من جدتها عندما كانت طفلة. والآن تعود مع أحلامها. كانت الخالة نشمية تثير فيها الاحلام. كانت مثل صندوق الدنيا لها. كانت تلوّن الاشياء، وتبعثها إلى شيء مجهول حزين. وفي الايام الصاحية كانتا تخرجان إلى الليوان حيث الشمس عسجدية دافئة وفي الليوان يكتسي الجمر الياقوتي غشاء أبيض شفافاً ناعماً. وتمد تماضر يديها عبر النار، وتقول «اي خالة نشمية، احچي لي. منو نزل رديف من السطح؟»

ـ نزلن الجايفات، البايرات اللي الخطّابة ما شايفه عتبة بيتهم. هو يصعد على البرج وهن يتراكضن على السطوح يوقوفن مثل ما يوقوق الحمام. مثل ذاك المؤذن اللي حسه حلو. هو يوذن وبنات المحلة كلهن يشيلن راسهن وهو خايف من الله ميدير لهن بال. راحن اشتكن عليه عند السلطان. يابه شنو؟ المؤذن يعاين عليهن من فوگ المنارة!. راح السلطان منزله من المنارة. وگام يوذن بالسطح اشتكن عليه. يابه شنو؟ حواشنا ناصية، وبعده يعاين علينا. گام المؤذن يوذن بصحن الجامع. اشتكن عليه هيمنــه... عيني البنــات هن يسمعنــه يتصــورونـه واگف فوق روسهن... اي عيني.. حسه حلو! گل هم السلطان، متگولوا من الأول حسه حلو؟! والا رديف. أول مرة اشتكو عليه نزلوا من فوگ برج الطيور. گام يطير بالسطح ورا التيغة. ردوا اشتكوا عليه. والله شنو؟ ديعاين علينا من ورا التيغة. بعدين گامن يتحججن. كلما يسمعن حسه «عاع!» يگولن: هذا رديف.. ديصيح علينا!

وازداد سحر رديف في نفس تمـاضـر. وتخيلت نفسها في مكان نشمية. وعندما تفوق من غيبوبة الحلم ويقع بصرها على دجاج الخالة نشمية تحسبه طيراً. ألم تقل لها الخالة نشمية انها تربي الدجاج اكراماً لذكرى رديف؟ ويأخذها الاشفاق على الخالة نشمية أيضاً.

ـ خالة نشمية، اشلون مات المرحوم رجلچ؟

ـ مات؟.. كتلوه كتل.

ـ أويلي عليه.. منو كتله؟

ـ كتلوه اخـوتـه على عثگ تمر. چان أثول بيعار. چانو يبوگون كل حصته ويگول ميخالف هذوله اخوتي. چان يخليني بنفنوف واحد وحجل ماكو برجلي، ويتلفس فلوسه عالعزايم وعلى ولد اخوته. وآخرتها كتلوه على عثگ تمر. مريات اخوته چانوا يلبسن ويزوگن. وآني بطرگ نفنوف بالشتا ونفنوف بالصيف حتى عرفت الرياجيل مو مال حشمة! ما يجون بالعين والراس. يراد لهم دايماً حديدة حامية. چنت ازعـل، والـزعلة تجر اسبوع يله آخذ اللي اريده. اش عبالچ چان حسين اشترى لچ كنتور وچربايه لو ما شاف الحديدة حامية؟.

وفكرت تماضر بما قالت الخالة نشمية: صدگ! آني اله!

وفي المســاء حين جاء حسين ابـدت لهوجهاً مكفهراً، واعتصمت بصمت طويل. قال لها حسين:

ـ خير ان شا الله . . أشو معقوچه؟!

لم تجب

ـ شكو مايع افادچ من الجوع؟ . . ثلث دراهم متكفي؟

وأمسكها من يدها فتملصت بقوة وزعل. وعند العشاء استرخى على السرير ودعاها:

ـ مضوري!

ظلت صامتة.

ـ لچ تماضر! . . ام خشم المفروش!

نظرت اليه خزراً ولم تجب. ولما همّ بأن يمسكها هربت إلى الخالة نشمية، وبقيت هناك حتى شعرت به يغادر الحوش. رأت قامته الربعة عند الباب. ماذا لو يذهب ولا يعود؟ وجفلت. ورددت بلاطات الليوان خطواتها المذعورة حتى اوقفتها الخالة نشمية:

ـ وين رايحه حافيه؟

خالة نشمية طلع زعلان!

ـ وخل يطلع . .

ـ يروح ميرجع . .

ضحكت الخالة نشمية بخلو بال:

ـ وهذا خملچ؟

ـ شكو عند بالقيد؟ . . من يعرفه؟

ـ أهيه! ونشمية تذب فلوسها بالشط . . تعالي . . تعالي

قرفصت قرب منقلة الفحم قبالتها. كانت الخالة نشمية تنود برأسها، وتفرك يديها فوق النار التي توشك ان تخمد.

ـ اشلون خالة نشمية، تعرفين وين ساكن؟

ـ ماكو شي مينعرف بالدنيا.

ودهشت تماضر وسألت مستزيدة:

ـ تعرفين وين ساكن ووين يشتغل؟

ـ أعرف وين ساكن، بس اللي ما عنده شغل منين اجيب له شغل؟

ـ نجار . .

ـ نجار وله بيعار. . شعليچ تريدي يجي لو لا؟

ولم تجب تماضر فقالت الخالة نشمية:

ـ باچر تشوفي مثل الكرته.

وجاء حسين في اليوم التالي. جاء منكس الرأس. وكانت تماضر عند الخالة نشمية. فرفرفت فرحة. وقبلت نشمية في جبينها. فقالت لها هذه: لا تروحين عليه الا يصيح لچ

ولم تكذب خبراً. وبعد قليل صدر من الغرفة المجاورة صوت مخشوش مثلوم:

جاءت ووقفت عند الباب

ـ تعالي خُشي

دخلت صامتة واتكأت على الكنتور. وكان هو جالساً على السرير. أومأ اليها بأن تجلس على السرير. فهزت رأسها ولم تفعل.

فقال لها:

ـ زعلانة؟

لم تجب. فقال بلهجة لينة:

ـ غير واحد يفتهم سبب الزعل.

بعد صمت قليل، انفجرت قائلة:

ـ هذا نفنوفي مال الصيف. . والشتا جا. . والكنتور فارغ.

قال لها:

ـ ليش اللي يريد شي هيچي يسوي؟

قالت بلهجة مستعارة:

ـ واذا الرياجيل مو مال حشيمه؟

وبعد ايام كانت تماضر واقفة امام المرآة بثوب اخضر جديد مورد. كانت الورود تزين قوامها الممشوق. حاولت جاهدة ان ترى ظهرها، وارتفاع ردفيها. وقالت لنفسها «حلوه، والنبي حلوه!»، وخفّت وتجنحت كالفراشة، وركضت إلى الخالة نشمية:

ـ خالة نشمية گومي نطلع شويه.

ـ وين بهالبرد؟

ـ وين أكو برد؟! . . نشم هوا .

وعدتها الخالة نشمية بأن تأخذها غداً لتأخذ حصتها من الضمن . وكان الغد يوماً سعيداً لتماضر. عادت في العصر وقالت لنفسها في حجرتها «لو يوميه ألبس نفنوف چان سبيت الناس سبي» . واضطجعت على السرير. وهي ماتزال في ثوبها الاخضر المورد. وضعت يدها خلف رأسها، وحلمت بزيارتها اليوم . حلمت بالبستان الذي رأته عبقاً بفاكهة الشتاء . وقالت لنفسها «لو عندي مثل هالبستان چان كَضيت كل عمري بيه» وشمت روائح شتى . وكان لكل شيء رائحته حتى الدجاج له رائحة، وليس مثل دجاج الخالة نشمية! وكانت للتراب رائحة حادة منعشة، ولذرق العصافير، وللماء الموحل البارد، وللساقية، وللنفط الاسود قبل مكينة الضخ . وكانت زقزقة العصافير تملأ الجو. وفي السقيفة الصغيرة التي جلستا فيها لانتظار المضمنچي سمعت صوت صرصار. وعجبت أن يغني صرصار في النهار. عجبت من كل شيء رأته حتى من تلك البقرة التي مرت بها تسير في ونى واستغراق. عجبت من جحش ضئيل الجسم، أبيض البطن يمتطيه فلاح عجوز اعجبت من اللبن الرائب الذي شربته في ظمأ شديد. ولم يكن الانتظار مملاً. ولما جاء المضمنچي نظر اليها قبل ان يلتفت إلى الخالة نشمية. ربما لثوبها المورد، او لصباها. وقادهما عبر درب مترب إلى اقصى البستان حيث تجمع تل زمردي من البرتقال، شمت رائحته وهي على بعد خطوات. كان البرتقال كثيراً كثرة لم تر مثلها في حياتها. تل كبير يتوسط أربع اشجار ضخام . وقدم لها المضمنچي برتقالة ريانة ومثلجة. وركضت طويلاً في البستان لوحدها، ثم قادهما إلى اماكن أخرى. وكانت تحب ان تسير هكذا، وتسمع احاديثه ونوادره. ولكن الخالة نشمية انهدت على دكة وقالت «جيبوا لي عربانة! بعد خطوة واحدة ما اكَدر امشي» وضحك الرجل وضحكت. وتلاقت عيونهما. ورأت في عينيه شيئاً حلواً. كان رجلاً طويلاً ابن الاربعين جهير الصوت، ثابت الخطوات. وفي الطريق خيل اليها انه تهامس مع الخالة نشمية عنها. رأته يختلس النظر إلى ثوبها، أو إلى جسمها. وقالت لنفسها الآن «صدگ! لو يوميه البس نفنوف چان سبيت العباد سبي» وغابت في عالم مسحور وهي مستلقية في فراشها. ولم تدر كيف بدأ الليل يتكوم في الحوش، وكيف اضيء مصباح الشارع وراء تلك السدرة أمام الباب. وجاء حسين.

- ١٧ -

أصبح مصطفى معروفاً لدى جيران سليمة الخبازة يروح ويجيء بگونيته، ويتناول فطوره احياناً عند فتحية ام الباكَلة، وينغمس في الحديث مع هذا وذاك. وكان صاحب ابو البايسكلات اكثر من يراه من الناس. فكانوا يمطرون صاحبا بالاسئلة:

- عيني، متعرف وين يشتغل مصطفى؟

- اشمدريني، يمكن يشتغل بالسوگ السودا

- ليش أكو سوگ سودا وسوگ بيضه؟!

تساءلت اسومه العرجة، فقالت رديفة زوجة حمادي العربنچي مظهرة معرفتها بالاسواق:

- كل الاسواگ سوده! يعني سوگ العوينه اللي مليان سيان أسود خايس هم يسموه سوگ ابيض؟.. منين يجيله البياض؟

قال صاحب:

- السوگ السوده اللي يتاجرون بيها بالخفية

فعادت رديفة تعترض:

- وليش واحد يتاجر بالخفية؟ يعني عندك بضاعة هسه وما حد يشتريها منك.. عيني، الناس من الماكو تشتري الكحل من العين.

- لچ رديفة لتخوطين وتخربطين.. بالخفية يعني من غير تموين، وبيش ميريد يبيعها.

- أها!

- اي، اللي سعره درهم يبيعه بنص دينار

فقال خيرية زوجة رزوقي:

- عيني، والحكومة الله يسلمها، شلون توافق؟

- حكومتچ، يامّله تلفخ، تشتغل بالسوگ السودا

قالت خيرية نصف مهددة:

- عيني، لتحچي هيچي، دير بالك على مصلحتك.

وسألت رديفة:

ـ واش جاب مصطفى على سليمة الخبازة؟
ـ اشمدريني يمكن تحبه
فأستعظمت اسومه العرجة الأمر وقالت:
ـ أها! . . صرنا يهود!
فدافعت خيرية على صديقتها، والحق يقال:
ـ لا، عيني، هي والحب شنو، شنو هي بعمرنا؟ مأجرة له حجرة بس.
ـ زين والچاي والگعدة لليل؟
ـ ويعني شنو؟ عيني انتو كل شي تسووا له معنى!
وذات يوم مرّ مصطفى بصاحب:
ـ مرحبا سيد صاحب.
ـ أهلاً بيك.
ـبلّه متورثلي الجيگاره.
ـ تفضل!
وبعد ان اشعل مصطفى سيكارته، ومصّ منها نفسين أرسل بصره إلى الطولة، وقال والسيكارة في فمه:
ـ تعرف اش راح يبنون بمكان الطولة؟
ـ ما ادري. كل واحد يگول شكل.
هزّ مصطفى رأسه في عرفان وقال:
ـ راح يبنون معمل چيكاير
ـ ويگولون دنيا حرب!
ـ ياحرب. . راح تخلص.
ـ ربنا يخلصها، ويطلعون الگرگة والسيخ والانكليز. .
مصّ مصطفى نفساً عميقاً وقال:
ـ ياريت يطلعون. . بس شيطلعهم!
ـ يعني شنو يعمرون؟
ـ ليش العثمانيين مبقوا أربعميت سنة؟
ـ وبعدين طلعوا.
قال مصطفى في وقاحة:

ـ من طلعهم؟ . . احنه؟ . . ذاك مود شاهد .
ـ بس هالمرة راح نطلعهم بيدينه . . يراد لها رميثه
قال مصطفى :
ـ معلوم اذا ردنا نطلعهم .
فخزره صاحب بنظرة حادة تراجع بعدها مصطفى :
ـ أقصد . . بعدنا منعرف اشلون نطلعهم . . أبن عمتي جندي چان يحارب الانكليز يم الفلوجه، يريد يحتل سن الذبان . بعد اربعة ايام رجع من الفلوجة شايل عليجة . يابه هاي شنو؟ ﮔال مگدرنا وسوينا فرهود . . واذا بالعليجة مليانة صابون ابو الهيل! . وانت تعرف اش صار بغداد!
قال صاحب في حدة :
ـ بناموسي أكبر انكليزي ميگول هيچي .
ـ وآني مو قصدي ادافع عنهم . . قحط مدافعين؟ . . بس مقصود الحچي لسه منعرف اشلون نطلعهم .
ـ نتعلم . . الانسان ميظل جاهل إلى الابد .
قال مصطفى بعد أن أرسل الدخان من منخريه :
ـ هسه بدل منلتهي بالانكليز، نلتهي بشي آخر . . الدين مثلاً!
ـ هم أصل كل بلاء .
ـ شعليهم؟ همه بذاك الصوب، واحنا بهالصوب .
ـ هذا اشلون عقل؟ . . الغلا من سواه؟
ـ همّ؟!
ـ معلوم . . هالجيش الجرار ميراد له اكل؟
ـ اسكت عمي . . هالمعلبات الحلوة يعوفوها ويجون على خبز السجون؟
ـ صمون السجون النا والحنطة الكردية الهم . . النخاله النا والطحين الابيض الهم .
ـ وتنسى اشگد معيشين ناس؟ بالالاف! . . فيترچيه وسواق وعمال . . هذوله من يطلعون الانكليز راح يموتون من الجوع .
ـ لا تخاف، هذوله مچانوا ميتين من الجوع .
وساد صمت . وأقبلت رديفة زوجة حمادي العربنچي تشتكي لصاحب :

ـ عيني ، الشايب ما ادري اش بيه . . اشو لا حس ولا نفس . . وجعان راح يموت .

فوعدها صاحب بأن يأتي ليراه . ولما أنصرفت قال صاحب :

دَشوف!

ـ هم الانكليز وجعوه؟!

ـ همّ . . يشيلون خطية كل مريض . . كل فقير

فقال مصطفى مسك الختام :

ـ هذا أكبر نازي ميگول هيچي!

وانصرف .

ـ ١٨ ـ

خرج جنديان انجليزيان ثملان من نادي الجنود الانكليز في عنق الجسر وصعدا قليلاً . ثم فكّ احدهما فتحة بنطلونه ، وبال في خط طويل تحدر على جسر الملك فيصل حتى وصل إلى بائع «ابيض وبيض» كان يربض على الارض مع اربعة زبائن تحلقوا حول صينيته هم حسين ، وعاطل من محلة الدهانة ، وسكران خرج تواً من حانه ، وشرطي مولود في قلعة سكر .

قال حسين :

ـ شوف الأخ الكَحبه!

بدا الخط الأسود مستقيماً واضحاً في اضواء الجسر فوّاحاً برائحة خميرة ، متطفلاً لجوجاً . دخل بين ارجل المقرفصين على الارض .

فقال البائع :

ـ يابه تعالوا ليغاد .

ورفع الصينية وحملها منحني القامة إلى عدة أذرع . وسار الزبائن يلوكون بافواههم . وطق حذاء الشرطي على البلاط برنين موحش . وقرفصوا ثانية .

قال العاطل ابن الدهانه

ـ اهنا بارده شويه .

قال حسين :

ـ أكل وهسه تدفه .

وقال السكران:
- اشرب پيك عرگ وهسه تدفه.
- ومنين اجيب فلوس.
- قال السكران:
- من خوات الگحبه هذوله
وتمتم الشرطي بشيء من خلال فم مملوء. ورفع السكران رأسه، ونظر إلى الجسر وقال:
- طلعوا اثنين غيرهم.. سكارى... راح يبولون.. بغداد مراحيض مال انكليز.. شتگول عمي؟
سأل السكران الشرطي فقال هذا:
- اسكت أخير
- يعني تهددني؟
- منّي مهددك.. هانا جاعد حدر البول مثلك. خلّي آكل لگميتي.
- أكل وغمّس.. منو مانعك؟ بس انت تهددني
- آنا خرنوبة ما هدهدتها.. راحت الجلعة سكر من غير ما تگيلي، وزرعتني بهالولاية الضايعه
قال حسين:
- الحكَها!
مسح الشرطي فمه براحة يده وقال:
- انتو لبغاده! - ثم قال للبائع - چثر خيرك.
ونهض في ارتباك. وسار يطرق ارض الشارع بحذائه الثقيل الذي بدا زائداً عن حاجته. وقال السكران في رضى «هذا الشرطي على راسي». وضحك في نشوة. ومشى بالاتجاه الآخر في خطى حلزونية على جانبي الخط الاسود.
ونهض العاطل وقال للبائع:
- عاشت ايدك على الطرشي.
وسلّم على حسين. وقال البائع حين انصرف:
- أكل مال اربع نفرات.
وبقى حسين والبائع. راودته نفسه أن يأكل لفّة أخرى. لا. الفلوس تنراد.

ونهض مقاوماً الاغراء. اراد ان يعرف الوقت. في الشتاء يهبط الظلام مبكراً. واتجه إلى دكان بائع مرطبات في شارع الرشيد كان يعرف ان فيه ساعة. ورآها. كانت تشير إلى الثـامنـة. وأدرك ان الـوقت لم يحن. وتحيّر اين سيقضي السـاعتين الأخروين. سار في شارع الرشيد وهو يفكر. وبدلاً من ان يهتدي إلى حل فكّر بتماضر, سيغيب اليوم عنها. فهل ستفتقده؟ هل ستجلس في غرفتها بانتظاره؟ لا. كان في شبه يقين من أنها لن تكون في حجرتها. كم مرة رآها عند الخالة نشمية وناداها مرتين أو ثلاثاً حتى اقبلت. اين جالسة الآن؟ وراء منقلة النار تتدفأ قرب نشمية، وتسمع حكايتها عن رديف. وحقد. وقال في نفسه سحر؟! سألها ذات مرة فقالت انها تشفق على رديف لأنه مظلوم ويتيم. وهمّ ان يقول هو أيضاً يتيم وساكن مع زوجة ابيه. ولكنها ارسلت زفرة. وبدا وكأنها قد آمنت كلياً بان رديف هو اليتيم الوحيد في الدنيا.

كانت السيارة تمـر على يمينه في رنين معدني. وكان دهليز سينما الرشيد يفوح بدفء عفن. وعلى باب سينما الوطني رأى ثلة من الجنود الانكليز والهنود تسد الـرصيف الضيق. فنزل إلى الشارع ونظر إلى الاعلان الكبير. وقال في نفسه: «صار لي هوايه ما رايح للسينما» ثم رد على سؤاله بعد خطوات: «ظلّت سينما؟! ظلت فلوس اروح بيها للسينما؟ الفلوس راحت. وام العيون المنتفخة نايمه على الطاسه. ومن اتقرب منها عبالك تلدغها عقرب». وارتطم في عمود بينما هو يهم بالصعود إلى الرصيف ثانية في بداية شارع السلطان علي. وقال لنفسه «اشتعل ابوچ!» وكانت الشتيمة موجهة إلى زوجة ابيه. تراءت له الآن في ثوبها الأسود خلف التنور تصرخ به أن لا يقترب من الخبز. وكزّ على اسنانه وقال لها «نامي! . . .» وعبر مقهى المـلا حمـادي، ونـظر إلى اعـلان سينمـا الـزوراء «فيلم جهنمي مملوء بالمغامرات! . . .» وقال لنفسه «ومغامرتي اليوم؟ . . . تنجح؟» وتوجه إلى زوجة ابيه بالحاح «نامي! . . لسّه گاعده؟» وفي دكان جرجيس بائع العرق رأى الساعة تشير إلى الثامنة والنصف. ما زال هناك وقت كثير. ورأى نفسه في اول شارع الگيلاني فسار فيه نحو مقهى أحمد الچايچي.

ـ مرحبه ابو شهاب!

ـ ياهلا. شنها الغيبه؟

ـ والله مشغول.

ـ اشتغلت؟
ـ لا ، دا أدور على شغل . اللي يدور على شغل مثل اللي يشتغل .
ـ حساني چان يسأل عنك .
ـ خلّي يولي . يريد يشغلني سكن .
ـ فيترچي .
ـ وآخر عمري أصير مثل سلبوح سيان؟!
فسكت احمد الچايچي نصف دقيقة ، وكأنه يفكر ايرد عليه أم لا .
وبعدها قال :
ـ عرفت محمود بن الحوله اش سوّى اليوم؟
ـ لا!
ـ طبّر لك صايب الشعار تطبر .
ـ ها! وهذا شنو؟ رجل دجاجة ميحل! . .
ـ وانت تعرف سوالفه . شايخ بيها .

وذهب احمد ليصب الشاي لقادم جديد واخذ حسين يفكرّ الدنيا «يراد لها هيچي! . . » يراد؟ «وكان في قلبه شيء ضد الدنيا ، وضد هذه الجملة التي رنّت في قلبه مثل اسطوانة تدور على ابرة مثلومة . وتذكر ذلك المنظر الليلي الموحش . كان احدهما يقابل الآخر . وكان وجه صاحب عرقاً يلمع في ضوء المصباح . لاح له الآن بكل تقاطيعه فأحس بموجة حنان نحو صاحب تغمر كيانه . تذكر كيف كان يريد ان يدخله إلى مدرسة الصنائع . تذكر كيف توسل اليه ليبقى فلوسه ولا يبذرها . والآن؟ لا مدرسة ولا فلوس . الآن ينتظر لتنام زوجة ابيه . وقال لنفسه «الليلة جمعه . . الليلة لازم الخنفسانه تنام من وكت»

وفكر فيها «صدگ خنفسانه . لما توگف على التنور بثوبها الاسود المگرفع الواصل لچعب رجلها . ويديها بجواريب سوده . خنفسانه . عيناً . العيون منتفخة ، والوجه وارم . يله عاد خنفسانه . نامي! نام عليچ الشف واللحاف . . صارت الساعة التسعة» . وظل يفكر فيها . وكانت سليمة الخبازة ، في تلك اللحظة ، تفكر بمصطفى . جاء منذ العصر ولم يخرج حتى الآن . وضعت اذنها على باب حجرتها ، وراحت تتسمع . لا صوت . ولا بت سليمة الخبازة وقالت «لو عنده نيه چان طلع من زمان! من شوكت خلصنا الچاي . اشو خش بالحجرة والغطه غطه .

اذا جا حسين اليوم وعرف هنا اش راح يگول؟ اذا شافوا الجيران من الصبح اش يحچون عليّ؟ . . يلّه عيني على بختك مصطفى اطلع» توسلت اليه في سرها. وتحامل مصطفى على نفسه وحاول ان يطلع. عكف ساقه المطروحة على الأرض، وأعاد محاولته. ثم كفّ. خدر. والرأس يدور. سأل نفسه «هاي اش وهدني؟ لازم اطلع. لازم». وبدلاً من أن ينهض تلمس زجاجة الويسكي بيده اليسرى. كانت اليمنى مطروحة فوق «الكَونية» خدرة ومتعبه. وقال لنفسه «مصّه لخ. . نص مصه». حاول أن يقنع نفسه بأنه غير سكران. «افتح الباب على كيفي، وأطلع. . . بلاكت لا. راح هي اللي تفتح لي الباب. واش راح اگول الها؟ اگول الها كلامچ هيج نار فؤادي. والدنيا مغرب. وكل مغرب يغيّم عليّ غيم».

وفي المقهى سأل حسين أحد لاعبي الدومينو:

ـ هادي. . . خسرت ساعتك؟

ـ لا.

ـ ساعه بيش؟

ـ بالتعسه وثلث.

ـ ابو شهاب صب لي چاي.

وشرب مصطفى جرعة من الزجاجة. اطلع لو ما اطلع؟ . . . أطلع وتشوفني سكران، وتضيع كل اللوزينه؟ وتذب غراضي بالدرب. لا. ما راح اطلع اليوم. وخاطبت سليمة الخبازة نفسها أويلي هسه حسين يجي. يمكن ينصب لي عزا. وهو بلا شي يعيرني بحوش أبوه. الدوره ينام عندچ؟ عبالك آني رايدته ينام. اشو أجه العصر، وبيده الشكر. ويعني ما اگول له. . تفضل اشرب استكان چاي؟ وسوالف تجر سوالف. وعبالك قربة وانفكت. وخش للحجرة وبعد ما اطلع. وتأففت سليمة الخبازة. وهمس مصطفى في حجرته: سليمة خاتون آني مو سكران. وعيونچ آني مو سكران. بس شويه خدران. . . وعطشان. . وجوعان. . و. . وفتح الزجاجة وشرب جرعة اخرى. والشكر راح يكفيچ شهرين. . . شكر مال انكليز. والچاي مال انكليز، والويسكي مال انكليز. . وگولي الانكليز مو خوش أوادم. . أويلي!

أمتلأ جو المقهى الصغير بالدخان وسأل حسين هادي:

ـ هادي، لسه ما بعت ساعتك؟

ـ صار لي داسين غالب

- زين ݣل لي ساعة بيش؟
- بالعشرة.

راح يصير الليل - قالت سليمة الخبازة لنفسها - وآني سهرانه. ويمكن هسه مصطفى غاطط بالنوم. وتثاءبت. هذا الصايم المصلي. الخاتم القرعان مرتين ونص. بلاكت وين ينام؟ فراش، بطانيه؟ الا اذا نام بالݣاع. والدنيا باردة؟ هذا اشلون قهر؟ هسه اش ݣالت ضلوعه؟ هسه ثلج. آني بحجرتي الدافيه وأختض مثل السعفه. وأخذتها شفقة عليه. وقالت لنفسها «هالايام ميجي وايده فارغه. ومن يجي ينسيني هموم الدنيا كلها. اشلون لسان حلو عنده! الرجال... الرجال بالبيت شمعه. أوي عيني. هسه نايم بالݣاع. هسه يتوجع.» وولهت عليه «نزول عليچ سليمة تخليه نايم بالݣاع؟» وراودتها نفسها ان تحمل اللحاف اليه. ولكنها جبنت. وكان حسين يسير في الظلام خائفاً. كانت بغداد في الليل موحشة، وقذرة ومبللة بالمياه الوسخة، ومملوءة باكوام القمامة. وعند كل كومة كلب سائب، وقطة ضاله. وزايله الخوف بعد أن هزم وقع خطواته الأخن عدة كلاب وقططة. ورفع هامته وهز ذراعاً ودلّى أخرى على جنبه فعل الشقاة. وممن يخاف الآن؟ سيفتح الحجرة بالسلك الذي في جيبه، وينسل إلى الداخل، ويأخذ أحسن ما فيها وليفعل مصطفى بعد ذلك ما يشاء. فيقول له ان الدار داره. ولم تستشره زوجة ابيه حين اسكنته. في استطاعته ان يلقي غراضه في الدرب. في استطاعته أن يبيع الدار. وما نفع الدار له؟ هو لا يريد من دنياه غير غرفة صغيرة مثل غرفة الخالة نشمية. ومع تماضر بالطبع. يستطيع ان يستغني عن كل شيء الا تماضر. تماضر حياتي. تماضر تسوى العماره الصوبين! وحاول ان يتصور ماذا تفعل تماضر الآن. جالسة وراء المنقلة أو أمام مرآة «الكنتور». وهو من أجلها يكسر اقفال الحجرات. من أجلها يبيع الحوش. من أجلها يفعل كل شيء. الملعونه حلوه. تستاهل كل شيء. عرموط. زبد. وكانت الارض تحت عصعص مصطفى خشنة. وكان يضع رأسه على الݣونية بين اسلا به، مستسلماً لشيء لذيذ ومتوهج. مسح أنفه بالݣونية، وقال لها: أحبچ! وساورته رغبة في أن يغني. ياريت أنا بصوان حسن. كل البلام تمر حسن. ياهوى هذا ياموج؟. راحت تخبلني سلّومى. وعاد يبحث عن الزجاجة من جديد. وين راحت؟ أمتلأت يده بتراب الحجرة. تعالي شوفي بيا حال آني. كان متهافتاً وعاطفياً يريد ان يفعل اشياء كثيرة دفعة واحدة، وليس له القوة على اتيانها.

كانت الافكار تولد في ذهنه لحظة. ثم تموت في اللحظة التي تليها. كان مخذولاً وخـائفـاً. تطب عليّ وتشـوفني بصلاة التراويح؟. . خل تجي. هذا هو! شيريد يصير؟ وابتسم ابتسامة عمياء. وتشهى سيكارة، وجرعة اخرى من الزجاجة. أين هذه الـزجـاجـة؟ وخـرج كلب من زقاق على غفله. وقال حسين مرتعباً: عبالي مصطفى! وقالت سليمة الخبازة ماكو فايده. اليوم راح ينام هنا. وتثاءب مصطفى وبحث عن الزجاجة بعناد سكران. اليوم راح أنام هنا بالگاع. وقال حسين: هذا هو. لازم آخذ أحسن شيء بالحجرة. وقالت سليمة الخبازة لنفسها: اليوم سهرانه للصبح. ورأى حسين الضلفة الحديدية مسدلة. صاحب معزل. وكان المعمل قد نما. لاح في الظلمة أصفر. وضع حسين المفتاح بالباب مسمياً باسم الله الرحمن الـرحيم. وقالت سليمة الخبازة: اجه حسين. وعكف مصطفى رجليه. وتلمس حسين طريقه في الظلمة. وأطل برأسه في حذر على ليوان زوجة ابيه. رأى بابها مسدوداً يلوح من خصاصه ضوء الفانوس المخفض. وايقن انها نائمة. وتثاءبت في ضيق. وتعب مصـطفى واستدار على ردفه الآخر. وأحس بالزجاجة الفارغة بين فخذيه. رفعها إلى فمه وقال «راح تقتلني». وشرب جرعة كبيرة. وشعر بالقيء في الحلقوم. عض على شفتيه. وقال «راح أموت» ودخل حسين إلى غرفته خفيفاً مثل أكبر عصابيچي. ولم يشعل المصباح. وقف لحظة يفكر في الظلام. هو بحاجة إلى كيس. أين سيضع اسلابه؟ كيس. . كيس. . واهتدى إلى حل. تلمس الحائط حتى وجد دشداشته المعلقة على مشجب واحد. وقال: «هذي احسن كيس». وفي الظلام وجد ذراعيها والعنق. وشد الذراعين سوية مع العنق. وجرب الكيس في رأسـه. كان محكماً. وكان مصطفى خدراً ويحس بنعاس طاغ. ولكنه الآن يريدها ان تأتي. تأتي وتقول له: ابو ابراهيم نايم؟ لا أم حسين دا انتظرچ! هذا هو. آني ما خاف. هذا هو، ييزي قهـر. وتململت سليمة على سريرها. وأرادت ان تنهض، وتسأل حسين عن الساعة. ولكنها خافت، وقالت، لا. باچر الصبح اذا شافـه بايت يگـول چانت سهـرانه وياه. آني سهرانه. . بلاكت وحدي. . دايما وحدي. . نصيبي. وتوهجت الخمرة في رأس مصطفى توهجاً حاداً. وانسكبت هذياناً في لسانه أشبه بالأنيـن. وسلبته كل قوة على القيام. جلس على أمل ان تأتي اليه. وتوقف حسين وسط الحوش يشعر ببرد الارض تحت قدميه الحافيتين. واتجه نحو الباب. لا شيء غير النخلة، وبعض الصراصير تغني في أماكن متفرقة. وحين

كان على بعد خطوتين من الباب رأى صفحتها الباهتة. وقف امامها يسترد انفاسه. وتقدم. ومرر يديه على اطار الباب يتلمس القفل. ويده الأخرى تمسك بالسلك. ولم يجده. فأعاد الكرة. ولم يعثر عليه. خرط يده من فوق إلى الأسفل. ولم تصطدم يده بالقفل. وقف لحظة امام الباب حائراً. وين القفل؟ فكر واجف القلب. عجيبه. كان متدلياً على الباب عند الظهر. فهل يجوز ان مصطفى صنع قفلاً آخر. وحاول مرة اخرى. واصطدمت يده بالباب. واندفع الباب قليلاً. وجمد حسين في مكانه حائراً. وتردد أينكص بعقبيه أم يعرف جلّي الأمر. شاور نفسه. ولم يصدق أن الباب غير مغلق. وكان مصطفى قد حبس انفاسه منتظراً الخطوة التالية. جاءت أخيراً. وسأل حسين نفسه؛ يمكن شال؟. . اليوم؟ مو معقول! ودفع الباب بيده فأرسل الباب صريراً سمعته سليمة فقالت: اي عيني يمكن طلع. وسمعه مصطفى فتحامل على نفسه. ونقل ثقله على ردف آخر. وظل يترقب. وقرر حسين ان يدخل. دفع الباب ثانية. وتنبه مصطفى وفرح. ها هي اخيراً. لا تصبر. أكو مريه تصبر؟ وانتظر صوتها، واستبطأه. ولكنها صمتت. واعياه صمتها. كان يسمع حركاتها عند الباب. فقال «ها سليمة جيتي؟» وجفل حسين. وندت منه آهة ذعر. وترك الباب مهرولاً. وضحك مصطفى في نشوة. وقال في خدر ناعس: خافت. . . سافت!

- ١٩ -

في بداية الشتاء بدأت القوات الانكليزية تغادر بغداد. غادرتها بارتال طويلة متجهة صوب الغرب. وقل ظهور الجنود الاجانب في شوارع العاصمة، وتزاحمهم على دور السينما. وبدأت معسكراتهم تتقلص أو تنزوي في الصفوف الخلفية حتى فرغ المعسكر الموجود قرب دائرة السكك، ومعسكر الصالحية والوشاش. وترك الانكليز وراءهم السواق والعمال والموظفين والسماسرة الذين استقدموهم وبيوتاً سوداء، وبغايا. . . . وامتلأ مقهى الشواكه بسواق عاطلين جلسوا على تخوت عارية بالقرب من الكراج ليسهل عليهم اقتناص الشغل «وهو طاير». بينما جلس مصطفى يسبح بمسبحته السوداء، وعيناه مصلوبتان على الشارع. كان ينتظر ايضاً. وجاء سواق عاطلون آخرون وسلّموا وجلسوا ولم يحفل بهم. كان يحس بالجوع ولم تطاوعه نفسه ليأكل. ترك شايه يبرد ثم شربه جرعة واحدة، ووضعه على حصير

التخت فمال القدح ووقع. كان ينظر من خلال زجاج المقهى، ويحس بدفقات البـرد كلمـا ارتفـع ستار المقهى السميك، ودخل قادم جديد. ولكن الذين كان بانتـظارهم لم يأتوا. غابوا. ابتلعتهم الارض. وخرخشت الساعة الموجودة قرب مجموعة السماورات. ونظر اليها في غيظ. وسبح في مسبحته مهدئاً اعصابه. ونظر إلى الشـارع مرة اخرى. كانت الشمس صفراء في الجانب الآخر منه، والناس كثيرين. تمر السيارات بينهم بيضاء الذيول. ومرّت سيارة عسكرية انكليزية يسوقها جندي هندي تشق زحام الناس. وشعر بشيء من دفء الأمل. كانت السيارة تحمل صناديق. وفكر ما أثمن ما في هذه الصناديق! وراقب السيارة بفضول، ونسى لحظة أنه ينتظر، حتى غابت السيارة في الزحام. أختفت الصناديق الصفر ولم يلمح غير سطح قمرتها المترب. وعاد إلى انتظاره. لماذا تأخروا هكذا؟ وشكَّ في واحد منهم ولام نفسه على ثقته به. خرخشت الساعة عند مجموعة السماورات فنظر اليها في جهامة. ثم اجال بصره في الحاضرين. ونهض واقترب من شخص:

ـ جواد، شفت داود اليوم؟

ـ شفتة الضحى عند ابو الكبه.

ـ ليش ما راح للشغل اليوم؟

ـ ياشغل.. البارحة بطلوه

وأمتقع وجه مصطفى. واعتراه ذهول. وبعد لحظات ثقيلة قال:

ـ وهسّه وين اشوفه؟

ـ لازم تفتر على كَراجات الكرخ كلها.

فاستدار ومضى خطوتين ثم قال:

ـ وجاسم؟

ـ ما ادري بيه. المغرب تشوفه بميخانه

وكان على طرف لسانه شخص آخر. كان له مع ثلاثتهم ميعاد... وحساب. انتظرهم وراء حديقة غازي. امتلأ فمه بالتراب من كثر ما حدق بالسيارات القادمة. وحكتـه عينـاه ولكنهم لم يأتـوا. لم تستطع طاسات المياه أن تغسل مرارة فمه، وترطبه. كان قد احس بخوف متطفل منذ الدقائق الاولى من جلوسه في المقهى وراء حديقة غازي. ولكنه لم يعبأ به. عزاه إلى شائعات تتردد بين العاطلين في مقهى الشـواكه. وكان قد قلّص شبكة سماسرته كثيراً، واكتفى ببضعة سواق من

اوائل الذين اشتغلوا عند الانكليز، أو الذين استقبلوهم من الفلوجة كما يقول الناس سخرية. كان مايزال على يقين من ان الانكليز سيبقون. سيبقى منهم بضعة الاف على الأقل، وستبقى نوافذ خلفية لمخازنهم المتخمة، وسيبقى على صلة، وستبقى «الگواني» تروح وتجي.. وسيبقى... لماذا يبقى؟... سيبقى ينتظرهم: ولام نفسه كثيراً لأنه وثق بجاسم السكير. الكلب حلف اغلظ الايمان بانه يستطيع ان يفعل كل شيء. صناديق الشاي تحت تصرفه، والويسكي ملقى بصناديقه وراء المخزن... و... و... أين سيجدهم؟ بحث في گراج الرمادي وسن الذبان والحلة وابو عُگله. بحث في وقفة السيارات في علاوي الحلة، والارضروملي. بحث في مقاه كثيرة. ويئس من أن يجدهم. كأنهم فص ملح وذابوا. وفي مقهى النبگة رأى خماساً صديق داود.

- خماس مشفت داود؟
- سافر اليوم الظهر.
- لوين؟
- لعانه.
- الكلب! - ندت منه هذه الكلمة - وفلوسي؟
- يافلوس؟
- اطلبه فلوس

نظر اليه خماس في استفسار. كانت عينا مصطفى غامضتين جامدتين لا تنظران إلى شيء. ثم تحركت قسمات وجهه المتحجرة. ولكنه لم ينطق بكلمة. انصرف صامتاً. ماذا يقول له؟ اعطاه ثمانية دنانير ليشتري بها بضاعة من مخازن الحلفاء؟ وعاد إلى المقهى يسأل عن جاسم. وكان جاسم غير موجود. ولكنه عرف عنوان سمساره الثالث طه فذهب اليه. خرجت اليه صبية حافية القدمين في ثوب احمر قذر.

- ابوچ هنا؟

دخلت دون ان تجيب. وبعد دقيقتين جاء طه

- هلا بأبو ابراهيم.
- اشو اليوم مجيت؟
- بطلوني - هاي شنو؟... چم واحد مبطلين؟

ـ هوايه . . حقهم . راح يطلعون من بغداد .
تلك الحقيقة القاسية لم يرد ان يقر بها . وقف طه ساهماً امامه يضع يديه في جيبي بنطلونه . وبعد لحظة توتر قال مصطفى وهو يحاول ان يكون طبيعياً جداً .
ـ زين يابه . . جيب الفلوس لعد .
لم تتحرك اليدان من الجيبين بل تحركت شفتان ذابلتان
ابو ابراهيم ـ آني هواية خجلان منك .
تظاهر مصطفى بأنه لم يفهم .
ـ لويش تخجل؟ شي وما صار . والفلوس راجعه .
ـ هي على مود الفلوس .
ـ هالقوانه الجديده شنو؟
ـ الفلوس انصرفت .
ـ شنو، شنو؟ هذا بيافرهود؟
ـ اليوم جاني ولد جديد .
فأحتدم مصطفى غيظاً وقال :
ـ ويجي لك بفلوس الناس؟
ـ آني ما ناكرها عليك .
ـ يعوزك تنكرها . . صرت بن الشابندر .
ـ دين . . أول ما اشتغل ارد لك اياها .
ـ يادين هذا؟ واشوكت تشوف شغل؟ من يطلعون الانكليز يظل شغل؟
ـ ليش خوب احنه ما عايشين عليهم . . أنعل أبو . . . فقاطعه مصطفى صائحاً :
ـ اسكت عمي . . هاي فوگ مخلو بيدك سيارة؟
ـ وهسه وينها؟ الصبح جيت گل لي مستر جون شغل ماكو . سياره نو! وانتهت الحسبه . بعد ياسيارة؟
ـ هسه آني اش عليّ؟ جيب الفلوس .
ـ تعال خش بالبيت ودور . غير الربع دينار بجيبي . . . نزول على مرتي . . يوميه جايتني بطنها هالعلاتها . . أريد اجوزها من ها العادة ما دا أگدر .
ـ بالله طه لتأخرني .

ـ تريد أكتب كمبياله؟ آني مستعد. تريد اشهد أمام خمسه؟ آني مستعد. . بس الفلوس نصرفت.

ـ اشتري بعقلك حلاوه

ـ شوف لي مشتري

ـ لتأخرني ورايه شغل.

ـ اش وراك؟ انت هم راح تكَعد مثلي.

ـ لتجسر علي.

ـ ما اتجسر. بس انت مثلي.

ـ زين تجي الكَهوة؟

ـ أجي

ـ أمض لي كمبياله بخمس دنانير. . الفلوس خوب مبايكَها؟

وسار مبتعداً. نظر طه إلى قامته الطويلة تهتز على حركات رجليه وهو يتخطى برك الماء الآسنة. وهز رأسه في رثاء.

وقال مصطفى في نفسه «اذا طه المؤدب اكل الفلوس عليّ اشلون راح احصلها من السكير بن السكير جاسم؟ يعني الخمس دنانير راحت؟. . يعني الـ ١٨ دينار راحت؟ رأس المال راح؟ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . هاي بوجه من مصبح؟ هاي رفسه حصان چبيره! من رفسني الحصان بالعلوه چنت شاب، وقوي. وهس؟» كان تعباً محنى الظهر رخو الساقين، وكأنما كبر في كل ساعة من ساعات هذا اليوم المشؤوم. وكان الجفاف مايزال يعذبه ويلدغ حلقومه. وحين رأى حانة في اول شارع الصالحية فتح فمه في ظمأ. وكأنه رأى مسقى للماء في ظهيرة يوم قائظ. عبر مجازاً طويلاً مبلطاً ببلاط مهشم إلى ظليلة أسبل عليها چادر كبير. وانزوى إلى مائدة صغيرة في ركن، واسند رأسه إلى الحائط بعد كأسه الاول. كان وحده بلا خاجيك وبلا مشاريع، وبلا مستقبل. وفكر «هاي حوبة سليمة الخبازة لو آني حظ ما عندي؟ وين ما وجهها سوده مصخمة؟. . عبالي أصير تاجر؟» وحنق على نفسه وخاطبها «بيعار! اشلون تصير تاجر؟! والله لتركض كل عمرك والعشا خباز. . والله لتظل متهجول متعر ف باچر عندك فلوس الغدا لو لا. لتظل بهالبنطلون الاسود طول عمرك. ». نصيب! وشرب كأسه الثانية. مريره. مقززه مط لها شفتيه. ونظر إلى الكرسي الفارغ امامه. «خاجيك!» ناجى صاحبه القديم «راح

كل شي . . الصرمايه راحت، والانكليز راح يطلعون. قبل شهرين من چان يعتقد راح يطلعون؟ چانوا ماليين الدنيا والشوارع. حتى سليمة الخبازة چانت تگول: من آني صغيرة وهذولا الانكليز. حتى مرهون ابو قنبورة چان يگول الانكليز ونخلة سليمة الخبازة جو للدنيا بيوم واحد. وراح يظلون ليوم القيامة. من چان يصدگ؟» بلاكت راح يشيلون. وين يروحون؟ يخلوني اروح وياهم؟ وشيفيد اروح وياهم؟ راح اظل هنـا. اظل ويه الجوع. آني وسليمة الخبازة. وغص بشيء وتناول قطعة طرشي حمراء. وأحّ من حلقومه حين ابتلعها. وعاد يقول لنفسه «من يگول؟ سليمة الخبازة كنز. سليمة الخبازة بيدها صنعه. والله يعلم چم دينار جوه راسها. وعدها حوش. حوش چبير» وتهلل شيء في داخله. ورفع الزجاجة فكانت فارغة. تلفت يبحث عن الساقي ليطلب نص ربع آخر. كان الساقي عند الباب يتدافع مع متسولة لجوج تحاول ان تدخل الحانة لتستجدي. فقر. واشاح بوجهه ممتعضاً. وحاول ان ينظر إلى الخارج من خلال نافذة. وكان بالقرب من النافذة مائدة جلس اليها رجلان. ويحلق. بدا انه يعرف احدهما. كان يرى نصف وجهه ورقبته.

نهض متقدماً من النافذة حتى اذا ايقن انه هو توقف وسط الحانة وناداه:

ـ جاسم!

التفت جاسم ولكنه لم ينهض.

ـ جاسم، تعال اگول لك.

ولكن جاسم هزّ رأسه في طمأنينة باردة وقال:

ـ جوزو مني؟ تعبان

تقدم مصطفى منه. ليس هذا مكان للتحدث بصراحة ولكن! انحنى عليه وقال في شبه همس:

ـ اشو اليوم مجيت؟

ـ اذا بطلوني الويش اجي؟

ـ غير تجي تگول؟ ـ ثم وضع فمه عند انفه ـ عبّر الفلوس.

صاح جاسم بصوت عال:

ـ يافلوس؟

ـ اش! . . سكران؟

ـ يافلوس؟ الفلوس يجيب العروس.

وضحك في خبث، واغتاظ مصطفى وكانت الخمرة قد مدته بشيء من الشجاعة.

ـ لتصير أدب سز. . . الفلوس اللي اخذتها رجعه. . ماكو قانون؟

ـ وين أكو قانون؟

بدا جاسم صلفاً جداً.

ـ انت سكران لو تداهرني؟

ـ لا سكران ولا. . .

ـ شنو الفلوس بايكَها آني؟

ـ لا، اشهد بالله، اكسبتها من الحلال.

ـ اسكت. . . ولا كلمة!

ـ خوفتني. . روح بابا روح

ورفع جاسم اليه عينين وقحتين شريرتين اجبرتاه على ان يقول:

ـ جاسم لتعذبني

ـ روح عيني، روح. . . تريدني اكَول لحمزه اش چنت تسوي؟

ـ بب!

ـ وتريد اكَوله وين تخلي البضاعه؟

ـ شش.

ـ روح احسن لك.

ـ انت سكران كلش. بس عبالك اجوز منك؟!

ـ ٢٠ ـ

ـ خالة نشمية صار لي هوايه ما جتني العاده.

جفلت الخالة نشمية وقالت باستشهاد:

ـ اش گد صار لچ؟

ـ الله يعلم. . يمكن شهرين.

ـ خل يفرح أبو گذله!

ـ ليش خالة نشمية؟

ـ زرع ببطنچ فطر!

ـ أوي، خالة نشمية، شنو يعني؟
ـ يعني انت حبله
ـ وه! خاله نشمية، اشلون؟
ـ هذي اللي تفتح رجليها للرجّال. عبالچ ونسه؟ يوميه يخش عليچ وتريدين المي ميخضر؟ آني چنت اعرفها من گبل.

وكأن خالة نشمية هي الحبلى. جعلت تلوب في مكانها على الارض، وتدمدم. بينما راحت تماضر تنظر اليها ساهمة، وتفكر بشيء غامض وحزين. وتذكرت، بشكل عفوي، حادثة غريبة في حياتها الماضية كانت منسية فطفت فجأة على سطح ذاكرتها.

ذات مرة وقفت، وهي طفلة، قرب بائع «كركري» عجوز تنظر إلى الديكة الحلواء بتشهٍ. فأومأ اليها البائع بان تقترب. وقدم لها ديكاً بيد، ومدّ اليد الاخرى تحت ثيابها. وساح بها في انحاء جسمها، وقرصها. ركضت تماضر مذعورة، وبيدها الديك. وفي منعطف بيتها جعلت تمصه فكانت حلاوته مشوبة بمرارة. وبعد مصّات قليلة القته في الزبالة.

ـ اش راح اسوي، خالة نشمية؟
ـ شمعرفني شتسوين؟ وانت مال جيوبه؟ وين ذاك الرجّال اللي تعتمدين عليه؟ المريه اللي عدها رجّال بالحلال من يجيها ولد تشيل هَمْ. عاد انت؟ ويه هذا الزعطوط المفلس؟

وعادت إلى دمدمتها بينما لم تعرف تماضر أتحزن أم تفرح. انها أم مثل كل النساء. مثل الخالة نشمية في صباها. مثل اية امرأة تتزوج، وبعد شهر يرتفع بطنها، وتضع بكرها. وذلك شيء لطيف جعلها تحس بفرح مبهم مقيد، وفرح خجول مثل ذلك الذي احست به حين جاءتها العادة الشهرية لأول مرة. حينذاك لم تدر أتخبر أمها أم لا. كانت تصك ساقيها باعتزاز وبشكل لا ارادي حتى فطنت امها إلى ذلك. أما الآن فستضع طفلاً. لم تفكر بالحلال والحرام مثلما تفكر الخالة نشمية. ولكنها احست بأنها وحيدة لا احد يشاركها فرحها. واعتراها من اجل ذلك حزن خفيف مثل غلالة العرس، مثل «كلة» زوجين حديثين في فجر صيفي. ولأول مرة احست بالحنين إلى أمها بشكل طاغ أكثر من كل الحنين الذي احست به اليها وإلى حسين، وإلى كل شيء خلال الاشهر التي قضتها بعيدة عن أهلها. ولأول

مرة نفرت من الخالة نشمية لأنها تجسم مخاوفها، ولأنها تشعرها بأنها وحيدة. وتركتها. ولاذت بغرفتها. مرّت المرآة امام عينيها فلم تنظر اليها. ربما هذه هي المرة الأولى أيضاً. لمعت المرآة امام عينيها بذلة. واستلقت تماضر على سريرها. غالقة الباب خلفها. وحاولت ان تكثف حزنها. ولكنها وجدت نفسها تفكر بالوليد الجديد. كيف سيكون شكله؟ مثلها أو مثل حسين؟ له عينان سوداون، وانف مفروش قليلاً، وشعر أسود كثيف؟ أم سيكون بنتاً؟ وغاص قلبها. لا! انها تريد ولداً. ستسميه عليا. ستسميه رديفا. ستسميه. ماذا ستسميه؟ وامتلأت شعوراً بالوليد المقبل حتى أحست بثقل في بطنها. احست برحمها لأول مرة. وملأها ذلك رضى عن نفسها، وهوّن عليها كل شيء حتى قالت لنفسها «يعني قابل آني دون النسوان؟» هي امرأة مثل كل النساء الاخريات. امرأة تعيش مع رجل. وتحبل، وتنجب. ولو كان لها زوج الآن لزفت البشرى اليه، ولذبحا، دجاجة على الاقل، صدقة للفقراء. ولكنها وحيدة، وحيدة بشكل يأخذ بانفاسها، ويجعلها تنتظر بقلق مضن من تزف له البشارة، ويفرح مثل فرحها، ويفكر مثلما تفكر الآن بالوليد الجديد، بشكل عينيه، بشعره، بأنفه، بالملابس التي سيرتديها، بالمهد الذي ستهدهده عليه. ووجدت نفسها تترقب حسيناً. ومن عندها غيره؟ انتظرته بصبر ملول ضامة يديها على بطنها وكأنها تريد ان تحتفظ بالجنين لحين مجيئه. وحين جاء حسين هشت به أكثر مما هشت به طوال حياتها معه. وظلت الابتسامة لا تفارق شفتيها الممتلئتين، واليدان ما تزالان مضمومتين على البطن. وكان حسين قد قضى نهاراً متعباً في البحث عن عمل. فلما رأى وجهها مبتسما، وعيناها تتألقان نسى كل تعبه، وأرتمى على السرير، ودعاها اليه. وناغاها في حنان فياض، بل وشرح لها بعض احلامه:

ـ تعرفين تماضر؟ . . يمكن راح يجيني ورث.

ـ ورث؟

ـ اي! حوش ابيعه.

ـ اوه! اشگد راح تجيلك فلوس؟ يمكن ميت دينار ـ وزادت عيناها تألقاً.

ـ أكثر.

ـ واشراح تسوي بيها؟

ـ نعيش بسلطنه. نوفي الكمبيالات للخالة نشمية، ونشتري غراض وهدوم.

والبقية نخليها بالبنك. زين؟ خوش بشاره؟
ـ خوش! وصمتت قليلاً ثم اضافت ـ وآني هم عندي بشاره لك!
ـ شنو؟
اغمضت تماضر عينيها، واحست برهبة.
ـ ما اكَول لك هسه.
ـ شنو؟ سألها بلهفة
ـ بعدين
ـ كَولي هسه.
ـ لا . . . بعدين.

ـ ٢١ ـ

قالت أسومه العرجة لخيرية زوجة رزوقي:
ـ هذا ميخش بالعقل!
ـ ليش ميخش؟ اذا شي راح يصير.
ـ يعني انت منين سامعه؟
ـ منها! وداعة رزوقي هي اللي كَالت لي. چنا كَاعدين يم المنقلة. آني وياها. والحوش يصوصي. والمرازيب تدگ. ظلت ثلاث ايام مبطله من الخبز من طرف المطر. كَالت لي: آني داخاف. صرت اخاف من كل شي. بزونه تطفر كَلبي يطفر وياها. مرزيب يچقچق روحي تنقبض. ونص الليل اكَعد ألم العجين.. وجسمي يختض، وكَلبي يدگ مثل الطبل. عيني وحدي بهالحوش الچبير.
ـ أويلي عليها، يريد لها رجال يسليها.
ـ تكَول لي صار لي أكثر من ست سنين من مات عليوي ما كاسبه الا التعب. عيني خيرية أريد أستقر. أريد يهودر عليّ الليل وبالي خالي. وهو رجّال صايم مصلي يعرف حقوق الله. چان صديق عليوي. يمكن عليوي بكَبْره يفرح.
قالت العجوز في هلع:
ـ يمكن تحبه: اللهم عاف!
ـ أها. شنو صرنه يهود حتى تحبه؟
ولكن الشيء قد وقع فعلاً. جاءت سليمة الخبازة إلى الخان بعد يومين،

وأسرّت لخيرية بالنبأ. فهشت «الحكومة الله يسلمها» وبشت واطلقت زغرودة في صحن الخان تندى لها وجه سليمة الخبازة ارتباكا. وخرجت العوانس الثلاث على اثرها من وراء دواليب الغزل. وأطل مرهون ابو قنبورة من باب حجرته بوجه متشائم. وخرجت رديفة تحمل طفلتها. وقالت سليمة:

ـ تفضلوا عدنا العصر.

ـ هاي اشلون فرحه! ـ قالت خيرية في رياء مفضوح ـ فرحة العمر!

ـ الله يطول عمرج!

وانشغل وجهها كله بابتسامة. وادارت وجهها في ارجاء الحوش في فرحة خجلى وقالت:

ـ عيني تسواهن تفضلي عدنا انت وخواتچ!

ـ يوم زواجكم ـ شمّرت خيرية يدها متهللة الاسارير، وكانت بمنتهى النشوة.

ـ وانت عيني، رديفة. . تفضلي عدنا.

وعبست خيرية، وكأنما ضربت على علباتها. وادارت رأسها ببطء نحو حجرة العربنچي. وكانت زوجته قرب الباب.

ـ والشايب الوجعان؟ ـ قالت رديفة في شكوى ـ وين أوديه؟

همست خيرية لسليمة بتنفيس:

ـ اي، عيني، شايبها راح يموت.

الا ان رديفة صاحت من مكانها في عناد:

ـ بلاكت أجي (والتفتت لتسمع ما يقول زوجها) اي عيني روحي راح تطلع. وفتحية يمّك.

اجتمعن في حجرة سليمة. عند العصر جاء الملا وخاطب سليمة من وراء الباب المسدود حتى استدر منها موافقتها في المرة الثالثة من سؤاله. وكان مصطفى يسبح في مسبحته، ويفكر بشيء ما. ثم انفضّ الحفل. وخرج مصطفى ورزوقي وشخصان آخران حضرا المناسبة. وخلا البيت الا من النساء. فأعدت سليمة الشاي لهنّ، وقدمت الكعك. وكان البشر يطفح على وجه خيرية لسبب غير معروف. الا ان العوانس جلسن رصينات صامتات. وفكرت سليمة الخبازة بارضائهن. نظرت إلى ما بين يديها من الشاي والكعك وقالت لنفسها لعلهن غير راضيات من عُرس يقدم فيه شاي العباس! وفكرت. واهتدت إلى مخرج. بالامس

سلّم مصطفى لها مفتاح حجرته بعد ان دلّها على بقايا محتوياتها «هذا شكر! . . هذا جاي! . . . هذا شربت انكليزي!» ونهضت لتأتي به. وبعد دقيقة عادت تحمل زجاجة مربعة الشكل، حسنة التزويق فيها «شربت» انكليزي أشقر بلون الدبس الكربلائي. وعالجتها لتفتحها. ولما تعسر عليها ذلك قدمتها إلى خيرية قائلة:

ـ عيني، خيرية، متفتحين بطل الشربت هذا. . مال انكليز!

تناولت خيرية الزجاجة، وقلبتها بين يديها وقالت في استاذية:

ـ اي! هذا شربت من العال. قبل ما ينقلون المدير العتيگ چان كل اسبوع إلنا واحد.

حاولت ان تفتح الزجاجة بخفة، وعيون النساء متطلعات اليها في شدهٍ واعجاب. زجاجة انكليزية «سرمهر» أنيقة تنزلق بين اليدين جاهدت خيرية أن تثبت استاذية فتفتحها بمهارة. ولكنها فشلت فاستعملت اسنانها. وبعد لأي ازالت اكليلها الأحمر ولكن الزجاجة لم تفتح. رأت «رأساً» اشقر «عاصي جوه» فركته وحاولت ان تزحزحه ولكنه أبى. فقالت للنساء «اش بالعجل نسيت افتح البطل؟ . . المدير العتيگ ما صار له شهرين من أنقل» ونهضت وغادرت الغرفة. وبعد دقائق عادت بالزجاجة مهشمة الفم. كانت تشم رائحة غريبة منها. شربت بهارات! قالت لنفسها. ووضعت الزجاجة على البساط. طلبت اليها سليمة أن تأتي بالاقداح من الدولاب. ولما تهيأت في الصينية على الأرض صبت خيرية الشربت فيها. وكانت تحس بلذعة في أنفها. ومزجت السائل الاشقر بالماء فأرسل حبباً صغيراً. وأيقنت أنه غير مغشوش. لاح لها كالسيفون الراقي.

قالت سليمة في كرم وحسن ضيافة:

ـ تفضلوا عيني.

قالت رديفة زوجة حمادي العربنچي:

ـ يزيد فضليچ. . يوم اللي يجيليچ ولد!

ورفعت القدح إلى فمها فشمّ منخاراها المفروشان رائحة حارقة كالتوابل. شربت جرعة ارتدت في حلقومها. شعرت بها مثل نشقة عطوس قوية في أنفها ارتخت لها فانزلق السائل في جوفها دون ان تدري. ولاح الامتعاض على وجهها المستدير. وظهرت ثلاثة أنوف على وجهها: أنفها الاصلي ووجنتاها البارزتان.

مضت ثوان دون أن تدبـر أمرها لتنطق بكلمة. والعيون شاخصة اليها. ثم قالت بصوت أبح:

ـ أوي، عيني، هذا اشلون شربت؟

وضعت سليمة الخبازة قدح الشاي من يدها وقالت:

ـ ليش عيني اش بيه؟

ـ عبالك دوا

كانت خيرية لها بالمرصاد. وجدتها فرصة سانحة لتهزأ بغريمتها:

ـ الدوره دوا.. عيني احنا متعلمين على الشربت اللي مثل الدبس.

ورفعت القدح إلى فمها بجسارة. وشربت جرعة وقالت بلسان رخو:

ـ اشبيه عيني؟ ـ ثم بلعت ريقها ـ ريحة ترد الروح... بس آني أحبه ويه الشكر.

نظرت رديفة اليها بعينين دامعتين. وكان بخار غريب يطوف برأسها. وقالت باعتذار:

ـ قوي.

ـ هو هيچي! لعد ليش سموه مال انكليز؟

قالت رديفة في سرها: الا تعاند.. الا اشرب على عنادها.

شعرت خيرية بأن عينيها تحرقانها. فقالت وهي ترفع علبة السكر:

ـ خلو له شكر شويه.. اذا تشوفوه فاهي.

قالت زوجة العربنچي بجسارة:

ـ انت اشربيه بالشكر.. آني اشربه هيچي.

طافت خيرية بعلبة السكر على النسوان:

ـ عيني.. تسواهن، أميرة تريدون شكر؟

كانت العوانس ساهمات وأمامهن اقداحهن لم يمسنها.

رفضت رديفة ان تضع لها خيرية سكراً.

ـ خوب مو الانكليز وحدهم يگدرون يشربون هيچي؟! وشربت جرعة وهي تكز على اسنانها. وضحكت ضحكة مذعورة:

ـ تخلي عيني شكر؟

رأت وجهها يتلوى. وقالت خيرية:

ـ عبالك د تشرب دهن الخروع!

ووضعت لنفسها ملعقة اخرى اغاظة لغريمتها وشربت بارتياح:

ـ زنجبيل عبالك. . حلو مثل العسل.

رفعت تسواهن القدح إلى شفتها ثم ردته. لذع الشربت لسانها.

ـ خلي له خاشوگة شكر. . تشوفيه كلش حلو.

بدأت خيرية تشعر بخفة. والتفتت إلى سليمة تريق لها ماء مودتها. اهتبلت ردیفة فرصة انشغالها فاختطفت علبة السكر وصبت عدة ملاعق في قدحها. تكدر السائل الأشقر، وركد السكر في قعر القدح. قلبته بسرعة وعصبية. ولكن السكر لم يذب. بقي راكداً في القعر. شربت جرعة. واحست بطعم السكر ايضاً. ولكن المرارة بقية غالبة. وكانت خيرية تراقبها. قالت بعنادها القبيح:

ـ افيش عيني. يـرد الگلب. . هذا شربت مال اوادم. . الله يسلمها الحكومة لو تشتري چم صندوق وتذبه بالسوگ.

كانت تحس بحرارة غير مريحة في رأسها، ووشوشة في طبلة اذنها.

تجرأت رديفة ان تتناول علبة السكر علناً وتصب في قدحها ملاعق اخرى.

كانت غريمتها تراقبها فلم تتمالك نفسها وقالت:

ـ مو بعده الشكر جوه؟. . يعني هلگد فاهي؟

ـ شعليچ مني؟ ـ ردت عليها رديفة بحنق.

ـ مو تگولين أحبه بليّه شكر؟

اسكتي. . امسحي العرگ من وجهچ.

ـ اها! انت شوفي چهرتچ اشلون مگلوبه.

قالت سليمة:

ـ عيني لتتعاركون. . هذا الشكر يم كم.

قالت رديفة وشعرت بأن لسانها مرن أكثر من اللازم:

ـ كل عزا تنصب نفسها ملايه.

قالت تسواهن:

ـ رديفة، هذا عرس. أكو واحد يتعارك بالعرس؟

أحست بحيوية هائلة، ودواخ في الـرأس. رفعت القـدح مرة اخـرى في شجاعة وشربت جرعة كبيرة ثم قالت:

ـ لو خيط المـراره يروح چان صار احسن شربت. . . أشوف لعد الانكليز وجوهم حمر. . من هذا.

كانت خيرية تتمتم بشيء مع سليمة. فتضايقت رديفة جداً. أُستفزت في داخلها فرغبت في أن تنهض وتخمشها. ولكنها عجزت. كانت ثقيلة على الارض. تثاءبت، وزاد دوار رأسها. وشعرت بأنها بحاجة إلى ان تستلقي. خدر، مثل خدر القعدة الطويلة في الحمام! وتمطت. وأمالت بظهرها في حضن تسواهن فخافت هذه وقالت:

رديفة صيري عاقلة. المريه عازمتكم بعرسها.

أحست رديفة بامتعاض، بشيء غير مريح ينفجر في داخلها.

قالت بصوت خدر:

ـ هذا شلون عرس؟ . . مثل عرس أمي لما أخذت رجلها الخامس.

ـ عيب رديفة.

كانت عيناها غائمتين بالدمع. وكانت لا تحس الا بنفسها الممتعضة.

ـ انتو لازم تزوجون. . انت خديجة، أميرة. . . بعدكم حديثات مثل الورود.

ـ بس. . عيب رديفة.

كانت تفكر بعجلة وسرعة:

ـ سليمة الخبازة اخذت رجّال. . ها ها ها. .

وسمعت عدة اصوات احتجاجية ثم صوت غريمتها:

ـ هي مال حشيمه؟ تخوط وتخربط. . يله أم حسين اشربي شربت.

صاحت رديفة:

ـ شربت ما اللي خلفج. . هذا عرگ. . عرگ مال انكليز.

كانت تبدو في حالة يائسة، رخوة غائصة

ـ ياعرگ هذا

لا تعرف من قالت هذا. ردت في عتاب على نفسها:

ـ ليش ما اعرف؟ الشايب وجعان وراح يموت. . كله من العرگ. . ابو سنون المكسره. . خليه ساتر علينا. قابله. . أبو طيز الچبير رجلها. قحط. . رياجيل. . اذا سليمة الخبازة اخذت رجال.

حدثت ضجة في المكان خارج الدائرة التي تحسها وقالت احداهن:
ـ عيني مشايفه ناس..
ـ اسكتي عيني.. اسكتي خيرية.
استلقت رديفة كلياً في حضن تسواهن وجعلت تهذي:
ـ حلوه.. تفاح عجم... التشريب عالنار... تسواهن... ناويشيني كعكه.. جوعانه.. چاي.. ماي.. حاره.. عركانه راح أموت.. هوع.
ودلقت سائلاً اصفر على البساط. وكان ذلك آخر العرس.
حملوها إلى بيتها مستندة على تسواهن واختها الصغرى أميرة، مشلولة الرجلين، محمرة الوجه تهذي. وفي الطريق اعلنت رغبتها في أن تركب حماراً من علوان ابو الجص. وعند باب الخان صرخت «وين ابو شيبه؟ جيتك أطوطح.. بس أنت!» وتجمع الاطفال خلفها وحتى صاحب ابو البايسكلات أطل من دكانه على الصياح والهرج، وجاء يهرول وهو يظن ان حمادي قد مات. وفي الخان كانت فتحية ام الباكله تقول «عيني، أخاف هذا ترياك؟» واضجعوها على الأرض قرب حمادي.
في الصباح هبّت خيرية تشكو صداعاً. كان يوماً مشرقاً فيه شيء من دفء. وتأبطت خيريه «بقچتها» وخرجت. كانت سليمة تنتظرها لتذهب معها إلى الحمام. وإلى جانبها بقچة العرس المذهبة، وطاسة «طين خاوه» وبرتقالتان. وذهبتا إلى الحمام. كان حمام النسوان مكتظاً بالنسوان وغيرهن. والبخار ينعقد فوق الرؤوس والصراخ يتضخم في القبو الحجري. وما من موضع قدم حول الاحواض. جلستا ساعة فوق الدكة الحامية حتى فرغ مكان. وغابت «روح» سليمة ثلاث مرات من فرط ما دلكت وحكت وليفت. وأكلت مع خيرية البرتقالتين بين البابين. وخرجت من الحمام بعد أربع ساعات حمراء قوراء، بضة مجلوة بيضاء اليدين فوّاحة برائحة صابون ابو الهيل. وفي البيت حكت شفتها السفلى «بالديرم»، وكحلتها خيرية بكحلها الخاص. الا ان عيني سليمة اصرتا على ان تدمعا في يوم عرسها. واحست بلزوجة الكحل وحرقته. رمشت باهدابها، وجاهدت لكيلا تلتصق.
وانتظرت سليمة زوجها مع خيرية. كانت فرحة وخجلى. انثى تستقبل بعلها. هذا آخر يوم لوحدتها. لن تخاف النخلة بعد الآن، ولا تتوهم القطة ملكاً. سيكون في البيت رجل تستشعر بدفئه في الليل، وتوقظه اذا سمعت خربشة.

«مصطفى كَوم شوف شن ها لطكَطكَه» أما هي فستسترخي على فراشها مطمئنة. واحست بفرح طاغ. وسعت باخلاص اكراماً للرجل، إلى أن تزيل كل الاثار الخربة من جسمها، كل عاهات التنور، كل الانسحاق المزمن، كل تجاعيد الوحدة. وضحكت مع خيرية كثيراً. ضحكت وكأنها اكتشفت لذة الضحك لأول مرة، ضحكت حتى على فضيحة البارحة.

ـ يمه، آني شمعرفني الشربت يطلع عركَ؟

قالت خيرية في فرح:

ـ غير هذي رديفه مرة العربنچي سوَّت هيچي سوايه! أشو آني تونست أحسن ونسه، وظليت آني ورزوقي نضحك ونتشاقى لنص الليل. حتى اذا چان عركَ خوب مو مثل عركَنا. ليش احنا مد نشوف حمادي لما يسكر. روالته تخر، ووجهه مثل الكركم. وعيونه مبحلقة.. والبارحة حتى رديفة الغبره صار وجهها احمر.. والله سليمة لو تاخذين فد كمع.

ـ أها، عيني، ـ قالت سليمة في ندم ـ چبيته بالبلوعه!

ـ ٢٢ ـ

كأن السماء قربة هائلة فأنشقت. ظلت طوال يومين تبكي مطراً غزيراً. وظل أهل المحلة، طوال هذين اليومين، كالاسماك تلبط في بركة موحلة. انقطعوا عن العالم الخارجي، وعاشوا في رعب الغرق وتداعي البيوت. كان سوق الخضروات، وراء السرسيفة، مغلقاً، وباعة الخبز في طرفه هجروه إلى أماكن اخرى مجهولة. وتورطت سيارة ارادت ان تشق الجانب الذي بدا لها مأموناً من السوق فتوحلت، وغطست عجلاتها في الوحل الأسود. ثم جلست على «الرنكَات». وفي السرسيفة تلاطمت امواج سوداء مهددة باجتياح البيوت على الجانبين فانشغل الناس بتحصين العتبات بالحجارة وحتى بالزبالة الموضوعة بأكياس، وتمازحوا قائلين «حرب.. احنا هم د نحارب.. يعني الا تنفجر قنبلة!» ونفثت الارض رائحة سقيمة كريهة مثل زفرة استغاثة من صدر سقيم.

وخارج السرسيفة، ابتداء من دكان حسين العطار كان ماء المطر اقل اسوداداً، واكثر عافية. كان فيه شيء من لون الطين. صحيح ان المياه كانت من الجدار إلى الجدار تقريباً الا انها لم تكن بعمق قدمين كما هي الحال في

السرسيفه. وكان في وسعك، لقاء اربعة فلوس واحياناً فلسين، أن تعبر المخاضة إلى العالم الخارجي على تختتين ينقلهما، ويضعهما تحت قدميك رجل يغوص حافي القدمين في الماء. ومع ذلك فلم يكن العابرون كثيرين. كاد الشارع ان يقفر. ولاحت البيوت بكل قدمها وهرمها. واستخذت الجدران فبدت وكأنها توشك على التداعي. بدت مستسلمة وكأن مياه المطر قد تسربت إلى اعماقها، وامتصت ما تتماسك به. الا ان الابواب ظلت على عادتها مفتوحة في الغالب. وفي وسعك ان ترى منهـا برك الماء المجتمع في الفناء، وعمليات نقله إلى الشارع يقوم به الاطفـال والنساء، واحياناً الرجال في صفائح تنك. ومن باب علوان ابو الجص تستطيع ان ترى صحن بيته فارغاً، ولا يأخذك العجب والخوف على حميره. فلو تمد رأسك قليلاً ترى الحمير في الايوان قرب زوجته وبناته.

وبالطبع غمرت المياه المكان الذي كانت تجلس فيه فتحية بائعة الباقلاء. وظلت باقلاؤها منقوعة في الخان يومين، وظلت فتحية ترمقها بحسرة قائلة «راح اخسر الصايه والصرمايه (تقصد رأس المال). . يعني هذا مطر لو طوفان نوح!» وفي اليوم الثالث سلقتها سلقاً اضطرارياً، وعرضتها على سكان الخان متساهلة بالثمن. كان يوم جمعـة، ورزوقي حاضـر. نقعت زوجتـه خيرية ثلاثـة ارغفـة، وتباهت بالماعون المملوء. وتعمدت الوقوف امام ليوان العربنچي. كانت زوجته تهدهد طفلتها فأغتاظت ووضعت طفلتها على الارض، وحملت كل ما عندها من الخبز اليابس، وذهبت إلى فتحية: «ام كاظم» أرحم ابـوچ. . الشايب مشتهي باگله. «وكانت تكذب. كان الشايب مطروحاً على الفراش عاجزاً عن رفع رأسه. جاءت رديفة بماعون الباقلاء، ووقفت على رأسه، وابنتها تجر باذيالها تريد ان تأكل قبله. وهمست:

ـ حمادي. . جبت لك باگله تفك المصلوب!

لـم تسمع جواباً.

ـ اگعد أكل. . ريحة البطنچ تشفي العليل!

مدت الطفلة يدها إلى الماعون فلطمتها امها. فتح حمادي عينيه.

وحاول ان يرفع جسمه على كوعيه، فساعدته رديفة.

قال في خفوت:

ـ ما ادري الضعف منين جاني. . چنت مثل الحصان اطارده.

كانت تعرف السبب؟ ولكن لم ترد ان تؤذيه. قالت:

ـ أكل.. هسه الضعف يروح منك.

كان يشم رائحة الباقلاء الدافئة المذكرة اياه بعالم قديم معافى. تحامل على نفسه وتناول حبات من الباقلاء البنية القاسية الجلد، الهشة اللب. وافردت له زوجته حوافي قطع الخبز الرخوة، وقدمتها له. ولكنه تناول لقمتين أو ثلاثاً وتعب. سأل:

ـ رديفة، هاي الويش د تيجي بنتچ؟

ـ نزول عليها. هاي اشلون راح تطيب. وانت لگمتين تاكل؟

كأنه لم يسمعها. توسد يده، وعكف ساقيه تحت اللحاف وسألها:

ـ صاحب جاب فلوس اليوم؟

ـ جاب درهم.

ـ خلف الله عليه. قال لها في همس. وكان يسمع صراخ ابنته في الليوان:

ـ رديفة روحي عليها.

أخرجها من شدهها. كانت تنظر اليه بلوعة، وقلبها يتمزق. كانت مرتبطة به بالحاجة، وبالحب الذي هو وليد الحاجة، وبالرضا بما هو مكتوب.

حملت الماعون، وخرجت إلى الليوان فرأت ابنتها منبطحة على الارض

ـ نزول عليچ.. راح يروح الأكل عنچ؟

كانت الطفلة تشهق.

ـ لتروحين تتوجعين مثل ابوچ.. اگعدي أكلي.. تعالي.. اگعدي بحضني.

ورفعتها عن الارض، واجلستها في حضنها.

ـ أريد چاي.

ـ والشكر منين؟.. أكلي الباگله والله كريم.

ـ يوميه الله كريم.

ـ لما يصير ابوچ زين.

واش وكت يصير زين؟

ـ الله كريم.. خوب ماراح يظل وجعان كل وكت؟

وانتزعت قطعة خبز ووضعتها في فم ابنتها. وقالت وكأنها تحلم:

ـ كل شي ينفرج ـ وأعجبها هذا الخيال فتابعت قولها ـ كل شي يصير زين.

كانت ترمق صحن الخـان العريض المليء بالوحل. أمامها حجرة خيرية وإلى جانبها حجرة العوانس الثلاث. وبدا لها الحوش رحباً وواسعاً كالخيال:

ـ كل شي يتعدل ـ كانت تحاول ان تهتدي إلى تعليل للجملة التي ورثتها عن سابع ظهر ـ ما راح تبقى الدنيا هيچي. باچر عگب باچر ما نشوف الا الباب تنـدگ. أصيح من مكـاني «منـو يدگ البـاب؟» اسمـع واحـد يگول «آني فارس الفرسان!» وأطلع واشوف گدامي فارس حلو وجهه عليه هالة نور، راكب على فرس شهبا نظيفة تلمع، عبالك نازله من السما. اگول له «عيني شتريد؟» يرد عليّ منو محتاج عدكم؟» اگول له «أحنا!.. عيني، احنا. الشايب صار له شهر نايم بالفراش».

وسكتت رديفة تحبس دمعتها. وانبعث صوت واهن من الحجرة:

ـ رديفة، اش د تحچين لبنتچ؟

ـ فد حچايه!.. يگول «گوموا لموا غراضكم». أسأله «وين عيني؟» يگول «لموا غراضكم، وتحولوا لحوش جديد نظيف. يگدر الشايب يمشي؟»

ـ رديفة، اش د تحچين عالشايب؟

لم تجبه، بل استغرقت في احلامها:

ـ اگول له «اشلون نعيش من غير شغل؟» يگول لي «ماكو خبز من غير شغل» اگـول له «اي، عيني، ترى آني گويه. واگدر اشتغل من الصبح للمغرب. بس اطيني شغل.»

وتنهـدت رديفـة تنهيدة طويلة وتابعت قصتها بصوت منفرج ـ ونگوم نشيل غراضنا، وننتقل لحوش يابس

وصمتت لحظة فسألتها ابنتها:

ـ يمه! نروح وحدنا؟

قالت الام بحرارة:

ـ ناخذ الخوش أوادم.

ـ فتحية أم الباگله؟

ـ ناخذها. مريه مسكينه. نگعت گرصتين خبز وما أخذت فلوس.

ـ وأبو قنبوره؟

- ناخذه . . منو عنده بهالدنيا؟
- وتسواهن واخواتها؟
صمتت رديفة لحظة تفكر. ثمَ قالت:
- الحوش چبير، وحجره هوايه . . ناخذهن.
وساد صمت آخر. وسألت الطفلة:
- وخيرية الحكومة الله يسلمها؟
- شنو، شنو؟ هذا حوش مو خان؟ قالت رديفة في عصبية
- وتظل وحدها بالحوش؟
- خلي تظل.
- ولما تمطر الدنيا، تطلع الماي وحدها؟
تأففت رديفة في ضيق. ثم قالت:
- زين. ناخذها. بس لازم تبطل من حچايه «الحكومة الله يسلمها».

بدأ المطر ينزل مرة أخرى. وسمعت رشقاته في الحوش. وخلال نقاب المطر الرقيق خيّل اليها حقاً أنها ترى وجهاً ملتحياً شفافاً متشحاً بسواد يقترب منها رويداً رويداً حتى اذا دنا منها غاب. ولم يبق الا صوت رشقات المطر والوحل يفصلها عن العالم، وعن الناس. ولكنها كانت تسمع صياحاً وراء باب الخان. كان صياح «المعبرچية يتدافعون على اقدام أي عابر سبيل. وما عدا ذلك كان كل شيء صامتاً في الشارع الرئيسي. كان دكان صاحب ابو البايسكلات مقفلاً، ومعمل السيكائر خالياً من بنائيه. انتهوا من بناء السرداب الذي يخمر فيه التبغ، والطابق الأول الذي ستنصب فيه المكائن، وتوقفوا عن البناء بسبب المطر. وكان باب سليمة الخبازة مقفلاً لا ينبعث منه دخان، ولا تشم رائحة خبز. وكان مصطفى في مكان ما في صوب الكرخ، وحسين في مقهى «الطرف». وفي الليل كف المطر عن النزول.

- ٢٣ -

ونزل المطر في الكرادة أيضاً. لم يكن مثل قربة انشقت، بل مثل الخراطيم التي ترش بها الحدائق.

في الساعة الأولى من نزوله فاحت رائحة طين نقي، ولاح الشارع الترابي

المحاذي للنهر أحمر قانياً ، بينما كان لون الشاطىء اخضر مسوداً . وغشى المطر النهر بنقاب رمادي مزرورق . ونمّش صفحته الخضراء الشاحبة . ولاح الشاطىء الآخر بعيداً جداً وغامضاً ، وبدت اشجار الشاطىء المتفرقة الضخمة مثل عجائز منفوشات الشعر ، مثل الخالة نشمية حين تجلس في الطشت وتغتسل ، بينما لاحت البيوت على الشاطىء بحدائقها الصغيرة لامعة ملونة بألوان شتى ، وبدا طابوق بيت جديد أصفر متألقاً مثل رقعة شمس متكاثفة في محيط غائم .

وفي بيت الخالة نشمية غسل المطر البيت غسلاً جيداً ، وازال ذروق الدجاج ، وبان «الكاشي» في الليوان ابيض وأحمر مثل قطعة قماش جميلة . وكان المطر يمشط فروع الشجرة الفرعاء فتبدو خصلات شعرها لامعة نظيفة منسقة . الا أنها موحشة ، خالية من العصافير . والمطر هو المطر . يحبسك في بيتك حتى يرفرف قلبك بين ضلوعك ، وتتوافد الافكار على رأسك شتى ومزعجة حتى تضيق روحك في جلدها فتريد ان تطلع !

كان المطر ينزل بشكل مغيظ ، ولا يمكنك ان توقفه بـ «اف» و «أوه» ينزل برغم ارادتك في نفس طويل مضجر ، ويبقبق على الأرض بقبقة مزعجة مثل طفل عنيد يدق في طاسة ، ولا تستطيع ان توقفه . كانت تماضر تراقبه بحسرة . كانت جالسة وراء الباب تستشعر هواء رطباً يخفق على وجهها ، وتسمع بين الحين والآخر سعال الخالة نشمية في الغرفة المجاورة .

في البدء نظرت إلى طرطشة المطر . راقبت خطوطه البلورية الشاحبة مثل اسنان المشط تنكسر على الارض . ولما استشعرت برداً ترددت مثلما ترددت يوم أمس وقبله تغلق الباب فتغرق الغرفة في ظلام ، وتختزل نهاراً من عمرها ، أم تظل جالسة هكذا ملفوفة بعباءتها تستقبل نفحات الهواء الرطب تنسكب على وجهها ، وتشعر بشيء بارد في ظهرها مثل خوف فجائي ، مثل خجل أمام شيء مهيب .

كان البرد اشد مما تتحمله . أغلقت الباب ، ولاذت بسريرها ، وسحبت بطانية الجيش الخضراء عليها . كانت ترتجف . حاولت ان تكظ على اعصابها لتمنع جسمها من الارتجاف . حملت وخزات البرد معها تحت البطانية ، وظلت قدماها مثلجتين ، وركبتاها وظهرها .

وتذكرت ! . . . . . .

في الاسبوع الماضي حبسهم البرد ـ ثلاثتهم ! ـ في حجرة مبنية بالطوب في

اول البستان فيها دكتان طينيتان مبنيتان قرب الحائط، ومفروشتان بحصير وفراش. وفي الجانب الآخر موقد نار وسخان ماء أسود. وشربوا الشاي ثلاثتهم!. ودفئت. وكانت فرحة بمرأى الاشجار والعصافير، وبالنكات يرسلها «هو!». وكانت تحس بان كل النكات قيلت اكراماً لها، كل هذا الشاي، وهذا الدفء، وهذه الزغردات تأتيها من خلف الباب. زغردة عصافير مرحة مثلها حتى دار الحديث حول حمارة ما ان تسمع بصوت رجل بعينه حتى تنهق، وتهيج. وفي مرات ما ان تشم رائحته على بعد ثلاثين متراً. ومال المضمنچي برأسه نحو الخالة نشمية وأسر لها بشيء. وقهقهت الخالة نشمية. وتساءلت تماضر في سرها، ماذا قال لها عنها أو عن الحمارة؟

انتقلت وخزات البرد إلى جنبها فرفعت جذعها قليلاً. وتحسست بيدها الجانب الموخز. حينذاك شعرت بقشعريرة مفاجئة في ظهرها وحشية وسريعة، مثل يد غليظة تنخرط على ظهرها، مثل قشر برتقالة بارد يمرر على جسمها العاري. ولكنها استعذبتها. وخلفت في مخيلتها شاطئاً وزقاقاً متربا مؤدياً إلى بستان، وهو على باب البستان بانتظارها طويلاً مهيباً، عيناه الداكنتان غامضتان ومخيفتان، وشفتاه رقيقتان. وتخيلته يقودها إلى تلك الحجرة المبنية بالطوب، ويجلسها على الدكه، ويطل عليها من عل ويخلع عقاله، ويلوح الشعر القصير الاشيب الذي رأت جانباً منه حين انحنى تلك المرة وأسرّ للخالة نشمية بشيء. وعادت تسأل السؤال الذي انحفر في قلبها: آني لو الحمارة؟

الحمارة؟ كانت قد فكرت بها كثيراً. وأهتدت إلى الجانب المخجل من القصة. والآن تسائل نفسها «صدك آني مثل الحمارة. تركض وراه!» ثم عاتبت نفسها «وانت اش جابچ عليه؟! هو بذاك الصوب، وانت بهذا الصوب. هو ابو بستان وانت ما تملكين شي بالدنيا. والله يعلم چم ولد عنده. شعره مليان شيب! لعد مو حمارة؟ تركضين ورا الرجال. وانت عندچ واحد، وبطنچ جاهل!»

وقنعت بتفكيرها، وتصورت حسين بقامته القصيرة الممتلئة، ووجهه البيضوي، وعينيه السوداوين المندهشتين. وشعرت بحنو نحوه مشوب بالاشفاق. انسان طيب انتشلها من باب السينما، وأجر لها غرفة، واستدان ليؤثث لها غرفة عروس، والآن طلبت منه ان يشتري قرطاً لها، وقالت له في جسارة وشبه مزاج «لتجي اذا متجيب الترچيه!»

احست بانها محظوظة. محظوظة بان تقع على رجل مثله. وفي لحظة صفاء النية ودت لو يكون الآن ممداً على السرير معها. سيناغيها حتماً. في هذه الايام يكثر من مناغاتها، ويحدثها عن الورث الذي سيأتيه، وعن مشاريعه في المستقبل، وعن نيته في ان يدخل مدرسة الصنائع ليصير نجاراً «من صدگ»، وعن الافلام التي شاهدها قبل ان يلتقي بها، عن ابو قنبورة يركب حصاناً، عن طرزان في غابة. شنو الغابة؟ بستان چبير. وتوهج في ذهنها تل البرتقال، ولاح شبح ابتسامة تحت شارب خفيف مستقيم، والعينان الداكنتان الغامضتان والشفتان الرقيقتان. وخيل اليها أنها تسمع صوته. . صوته الرجولي المرح. وعادت القشعريرة الغامضة إلى ظهرها. يد صلبة تزحف على لحم عار. واستبد بها قلق وامض. وتخيلت نفسها على باب سينما في محطة قطار. وسمعت زخات المطر وراء الباب. واشعرها ذلك بالضياع والبرد والتشرد. مثل قطة في مطر. مثل أية قطة تريد ان تستجير بسقف، أي سقف يقيها من المطر المسكوب. وقالت لنفسها «هذا نصيبي! يعني كل الناس عدهم بساتين؟!» تعبت من تسكعها الروحي، من الاحلام التي تتوافد على خيالها، وحاولت ان تحصر فكرها بحسين. . عشيقها الصبي. متى سيأتي بالقرط لها؟ واحد يمدد على طول غطاه. وهو مقصر وياچ؟ اللي ردتيه أخذتيه. وباچر عگب باچر يجي له ورث، وانت يجي لچ ولد.

ولكنها احست بالضيق لسبب غريب. أحست بانها مطوقة. خوف حقيقي جبار تملك القطة الشاردة. . ام البزازين! ستصير اماً. وتقعد في البيت تربي الاطفال و «كل يوم ينزل على افادي حكَه شحم» ورديف وين يروح؟. . خالة نشمية ورديف؟ وام السناطير؟

وقعدت كالمذعورة، ونزلت من السرير، وفتحت الباب كأنها تفر من شيء مرعب. وعند الباب تنفست نفساً عميقاً بارداً رطباً منعشاً. وهدأت نفسها، بل واعتراها فرح. وكأنها ادركت ان قلبها خال من الشحم، وانها بعد لم تنجب اطفالاً، وانها تستطيع ان ترى ام السناطير في بستان. كانت أبر المطر البلورية تتكسر بهمس على الارض ولا تحس بثقلها على قلبها. وخيل اليها ان النهار هناك وراء طبقة رقيقة من السحب. كانت السماء بلون واحد تقريباً مثل جادر كبير. وضحكت حين سمعت صياح ديك رد عليه ديك الخالة نشمية من خنه. وقأقأ الدجاج بخفوت. وولّد ذلك في نفسها شعوراً بأنها كانت نائمة، وان كل ما دار في ذهنها

كان حلماً مزعجاً. تركت مكانها في خفة غزال، وعبرت الليوان المبلّط إلى حجرة الخالة نشمية.

ـ خالة نشمية راح تطبخين اليوم؟

رفعت الخالة نشمية رأسها عن المنقلة الخامدة وقالت:

ـ وأكثر من كل يوم... اليوم عدنه خطار. بطّل المطر؟

ـ راح يبطل.

وبعد ساعة كان اللحم والشجر الاحمر عند الموقد في ركن الليوان وكان المطر قد كفّ تماماً. وزاد النور المنبعث من لا مكان. كان الهواء بارداً، لكنه منعش، وخرج الدجاج من خنه، وسرح، وكانت تماضر فرحة بانقطاع المطر، وزوال الكابوس. وعندما كانت تقشر الشجر سألت الخالة نشمية:

ـ خالة نشمية، من راح يجي اليوم؟

ـ تعرفيه!

حدقت بها مشدوهة. هو؟ أوي. ماريد. عينان داكنتان. خوف. فرحة محمومة. وبدت الدنيا شقراء للحظة، ثم غامت في قلبها الخافق، والقت السكين من يدها لأنها كانت ترتجف. ونظرت عبر الحوش تستنشق هواء. بركت على الارض باسترخاء. وتعاقبت على عينيها الوان شتى. وسمعت الخالة نشمية تقول:

ـ آني اعرف عليمن جاي... ليش عليّ؟

ـ أوي، خالة نشمية! آني بليه شي مايعه! وتناولت تماضر السكين دون ان تدري. وراحت تقشر الشجر صامتة. اصابعها تشد على المقبض، وكأنما تشد على اعصابها، واسنانها وراء الشفتين الغليظتين مكزوزة. وقبل ان تفرغ من طبخ الرز جاء. طرق الباب طرقتين، وصاح نشمية. وعرفت صوته... الخشن الرجولي. هرعت لتجلب عباءتها. خفقت قدماها على الكاشي بارتباك... وفرح لا ارادي. وفي الغرفة وقفت امام المرآة... صديقتها عند الهزات. ونظرت في النور المزرق إلى وجهها المدور. كان شاحباً. وكان قلبها يخفق لأنها كانت تسمع صوته في الليوان. وغمت مرآتها بخيبة. وجلست على سريرها، وتأرجحت ساقاها كتأرجح ارادتها. اطلع لو ما اطلع.. اطلع لو ما اطلع. وسمعته يقول «العروس وينها؟».. هسه تجي. وزاد ذلك من خفقات قلبها. وبعد دقائق نادتها الخالة نشمية. وجاءت تماضر تتخطر. وسلمت بلسان رخو. شمّت... ورأت في الظلمة

برتقالاً موضوعاً في سلّة. وخيل اليها من جديد انها تحلم.

- شوفي اش جايب عمران! - قالت الخالة نشمية لها - وحسبالچ اليّ. . الله وكيلچ.

وشع البرتقال عن صدق. انها لا تحلم. وضحك عمران ضحكته الرصينة. وغمز تماضر بعينه اليمنى وقال:

- الچ، وللي گلبه حار.

- هاي هي. . أصل الگلب!

- لعد اشلون. . اللي ماكو حرارة بگلبه يحس بالبرد بلب الصيف. تمام والا لا؟

وكان السؤال موجهاً لتماضر. كانت واقفة عند الباب لمّا تزل تحس بحرارة قلبها، والتهاب اعصابها. ولكن لسانها بارد لم تستطع ان تديره في فمها. اجابته بنظرة واسعة من عينيها. ودعتها الخالة نشمية إلى الجلوس. ودعته إلى ان يستريح. خلع عقاله. وجلس على التخت الخشبي. تلكأت تماضر لحظة عند الباب ثم تقدمت إلى التخت، وجلست. نفس التخت الذي جلست عليه مع حسين لأول مرة في الليوان. خطر ذلك على بالها. والآن هي مع شخص آخر. وانكمشت وخمدت حرارة قلبها فجأة. تناول عمران برتقالة كبيرة مبللة من السلة وقدمها لها قائلاً:

- ضوگي!. . اليوم الصبح گطعته والمطر عليه.

اهي تحلم؟ مال نحوها يحمل البرتقالة بيده السمراء الطويلة الاصابع، وشمت رائحة تبغ في انفاسه خدَّرت اعصابها قليلاً. وتناولت البرتقالة فاحست ببرودتها وقالت:

- تشكر!

كانت هذه عبارة أبيها. تذكرت ذلك في إلتماعة ذهن. كان ابوها يدخن ايضاً. وكانت رائحة التبغ تفوح من فمه وملابسه. عندما كانت طفلة كانت تتلذذ بها، وعندما كانت صبية كانت توحي لها بالرجولة. والآن كانت رائحة التبغ مرة أخرى إلى جانبها.

- ضوگي!

عاد يقول لها. كانت تحس يبوسة في فمها. ولكنها تخشى ان تخدعها

اصابعها. وجاء الغوث منه. مال نحوها ثانية وقال:

ـ اذا تريدين اكشر لچ ياها.

وتناول البرتقالة وجعل يقشرها ضاحكاً من الخالة نشمية. كانت هذه تملأ كفها ببرتقالة وتقول:

ـ لا عندي أظافر، ولا سنون. والناسُ أتكّشر للي عدهم اظافر وسنون.

ـ نشمية لتغارين.

ـ أغار. . تريد الصدگ. . أغار.

ـ هسه اگشر لچ ياها. صار افادچ حار؟

ـ حار مثل النار

ـ لازم هيچي

ـ عمران عليك الله عليمن جاي؟

ضحك عمران ضحكة دافئة اختفت فيها عيناه. وانكب على البرتقال يقشرها.

ـ آني اعرف عليمن جاي. تريد تعلمني؟ لأهل العشگ درب واحد. بزماني چنت اشيل على چتافي مشارب الناس أمليها من السقخانه حتى اشوف ابو صاية الترف.

ضحك عمران في نشوة ملتفتاً إلى تماضر يريدها ان تشاركه نشوته ولكنها كانت منكمشة على نفسها في الجانب الآخر من التخت. كانت ترى رديفاً وجاك الصايه، وام السناطير. وسمعته يقول:

ـ بس عاد! . . اخذتينه طربگه! بس انت چنت تحبين؟

«صحيح!» بس هي چانت تحب. . بس رديف واحد أكو بالدنيا؟»

فرغ عمـران من تقشير البرتقالة وقدمها إلى تماضر وشمّت رائحة البرتقالة ممزوجة برائحة التبغ. . رائحة رجل. ونفض الرجل صايته على الأرض. وفطنت إلى صايتـه. ومن مكـانهـا كانت ترى، من وراء فتحة الصاية الجانبية، سرواله الأبيض الطويل، وحمالة الجواريب، وقدمه المجوربة الطويلة. ورأته يلتفت أكثر من مرة اليها، ويهم بأن يقول شيئاً فيتراجع. وبدا لها في موضع مرتبك. ولكنه ارتباك رجولي. وفي الصمت سمعت دقات قلبها. وفاح عطر البرتقالة. وكان ذلك مهيباً ومنعشاً وأليفاً. بدأ عمران يقشر البرتقالة الثانية للخالة نشمية. وبدا لها مبرءاً

من كل عدوانية، ووديعاً حدوباً حتى همت بان تنطق بشيء اكراماً له. فهو على الاقـل ضيفها. عندما كانت تذهب مع الخالة نشمية إلى البستان كان يهش بها ويروح ويجيء. وكم مرة ذهبت إلى البستان مع الخالة نشمية! وهي الآن تستقبله بهذا البرود. تجلس منكمشة تقضم برتقالتها، والخالة نشمية تبرك على الارض ولا تبدي اي حسن ضيافة. بل راحت تعاتبه. ماذا تقول؟ وفمها الآن رطب، ويداها دبقتان، وقلبها منتعش برائحة برتقالة شذية. . . رائحة البساتين!

ـ خالة نشمية. . التمن صار له هوايه عالنار.

وكـانت تريد ان تهرب ايضاً. خلقت في الجو رائحة حياة. . التفت اليها ببسمته القمحية الرصينة وقال:

ـ والويش التمن؟. . اصل الايمان!

ضحكت الخالة نشمية ثم استغاثت

ـ تعالوا كَوموني!

ونهض عمران وتماضر ليزحزحاها من الارض. ولما استطاعت ان تنهض شكت من ظهرها، وطلبت من عمران ان يفرك خاصرتها. فقال ضاحكاً:

ـ واش دعوه هالكَد شايله

ـ اش شايله؟. . روح الميتين؟

تذكرت تماضر «وكل يوم ينزل على افادي حكَة شحم. . آني هم راح اصير مثلها. . لما يجيني الجاهل؟»

ـ شحم. . هذا شنو! وملأ كفه بقطعة شحم متهدلة

قالت تماضر في نفسها «لا، ماريد. . ماريد جاهل!. . ماريد»

ـ عذاب من الله. .

كان يتحسس جسمها بيده السمراء وهي مستسلمة له مغمضة العينين ترسل أنـات عذبـة قصيرة وكأن يده تعصر سمّ الألم من جسمها. وخرجت نشمية إلى الليوان حيث موقد الرز. وتركتهما وحدهما. كانت تماضر لا تريد ذلك. عادت اليهـا القشعريرة الواخزة. كانت تدير ظهرها للباب، والغرفة نصف مظلمة فكان عمران لا يرى ملامح وجهها جيداً. كان يرى خط استدارة العباءة على رأسها، وانعكـاس النـور على الخصـلات الفالتة من العباءة. وكان وجهها مبرقعاً بنقاب خفيف من الظلمة صاف ناعم يعكس صفاء وجهها ونعومته، ويجعله شهباً دافئاً

كالتمــر الاشــرسي في ليلة شتــائية. ورأت هي عينيه الشهـلاوتين، وحـاجبيه الخفيفين، وانفه المستدق، والشارب المستقيم فوق شفتين سمراوين. كل ذلك استوعبته في نظرة واحدة. وخفق قلبها. وشعرت بيده الممتدة على ظهر التخت، والقريبة منها. كان ينظر اليها. وهمت بأن تقوم. الا انه صرف نظره عنها في اللحظة التالية، واخرج من جيب سترته علبة سيكائر معدنية، وفتحها واخرج ورق السيكائر واخذ يلف سيكارة مطرق الرأس. واستطاعت ان ترى ذلك الفود الاشيب الذي يسحرها منه. وذلك هو الذي ابقاها معه. راقبته يشعل سيكارته بعد أن وضعها في امزك قصير، وامتص نفساً منها، ولم يخرج الدخان وهمت هي أن تسأله. رأته يثبت نظره فيها فصمتت. وبعد نفسين مال اليها معتمداً على يده اليمنى الممتدة على ظهر التخت، وقال لها:

ـ هاي ليش صار الكم هوايه مجيتو؟

ـ خالة نشمية متگدر تمشي.

ـ خوب انت اندليتي الطريق

صمتت. فقال:

ـ عيني عالدرب.

ونظر اليها نظرة ذات معنى. وأحس بارتباكها.

ـ.. عالرايحين وعالجايين.

كان يسند صدغه على جمع يده، ويبدو قريباً منها حتى رأت بعض الشقوق في باطن شفته السفلى، واللثة السفلى المسودة. وانطبق جفناه قليلاً فلاح وديعاً قريباً إلى النفس. وملأت انف تماضر رائحة التبغ المخمرة المحرقة.

تابع عمران قوله:

ـ گلت الميجيني اروح له.

قالت في رخاوة:

ـ هلا بيك.

واستدرك بعد لحظة صمت:

ـ... ولو تزعل نشمية.

ـ ليش؟

ـ تغار. تعرفني عليمن جاي.

واشفعها بضحكة. وادارت تماضر رأسها. لعل الخالة نشمية تنصت. وخاطبت تماضر نفسها «راح اگوم.. اگوم؟.. اگوم..» ولكنه نظر اليها والدخان يتطاير من شفتيه، نظرة طويلة عميقة مثل نفس السيكارة الذي استنشقه. وقال:

ـ تريدين الصدگ؟ آني جيت على مودج.

وشعرت بيده تتحرك، وتمس ذراعها. كهرباء وسرت الرجفة في كل جسمها، وخدرتها.

ـ زعلتي؟

وحركت جسمها لتبعد يده عنها؟

ـ أوي.. راح تجي الخالة نشمية

ـ لتخافين.. ما راح تجي

ـ أوي، شيل أيدك

ـ باردة؟

ـ باردة..

ـ دفيها...

- ٢٤ -

كانت الستارة السميكة ترتفع باستمرار. وكان ذلك يبعث الرعشة في جلده. كان بوسعه ان ينسى كل شيء: اصوات قطع الدومينو الحديدية، والصياح المجنون «سلّم! مات الدوبيش!» والخرخشة الزجاجية المرتعشة على يمينه، ويتحمل ثقل الهواء، وانفاس الدخان، ولكن ذلك البرد الخبيث الذي ينسل عبر فتحة الستارة كان يوقظه من افكاره، فيعرف انه هنا، في مقهى الطرف، لا في حجرته هناك في الدفء والنعومة.

كانت عيناه تدمعان من الدخان وكأنه يجلس في المقهى لأول مرة. وتململ وهمّ بالنهوض. ولكن إلى اين؟ هو اليوم لا يذهب اليها، ولربما في غد ايضاً، وبعد غد حتى يحصل على ثمن القرط الذي طلبته. فمن اين يحصل؟ وتلفّت. وكانت كل الوجوه التي حوله مسمرة على قطع الدومينو الحديدية. «مغناطيس! . . .» قال لنفسه «عبالك مغناطيس. . ما عدهم بالدنيا الا الدومنه!» وتذكر كيف كان صاحب يقول له حين كان يقضي الساعات الطوال منكباً مثلهم على الطاولة الصغيرة السوداء «هذا مرض، هذا ابتلاء، هذا ادمان مثل شرب الترياك». وكان لا يحس بان صاحباً على حق. فاين يذهب الانسان اذا كان بلا عمل، بلا اهل؟ اكو غير الشط والسينمات والگهاوي، وركوب البايسكلات؟ وحاول ان يتذكر حياته في تلك الفترة، وقبل ان يتعرف على تماضر. وخيل اليه ان ذلك كان منذ مدة طويلة، منذ سنين بعيدة حتى ليجد مشقة في تذكرها، في تصور يوم واحد منها. كان يحس بفتور ذابل ويعجز عن التفكير والاسترجاع حتى خيل اليه انه كبر وشاخ وعجّز. وقال لنفسه «هيچي الغرام يسوي؟!» وابتسم. وسأل نفسه هل هو مغرم حقاً؟ وحاول ان يقارن نفسه ببطل من ابطال الافلام، ووجد وجوهاً للشبه كثيرة، ولم يغمه ذلك بل شعر بالعزة، مثل رجل اكتشف فجأة انه من سلالة نبيلة. ورفع رأسه منتشياً. هل سيطلب شاياً آخر؟ وتذكر انه لم يتناول فطوره اليوم. كان مصطفى في البيت عندما خرج في الصباح. وكره أن يذهب إلى ليوانهما ـ أصبح ليوانهما لا ليوانها ـ ويتناول الشاي. كان يحس بانه زائد عن الحاجة ومتطفل. وكان مصطفى يجلس متربعاً على الحصير وكأنه متربع على العرش، وكأنه كل شيء في البيت. واذا تكلم معه تكلم بلهجة أب صارم. «ابن الچلب! ـ شتمه في سره ـ صار لي أبو باخر زمان. .

قندرة أبويه تشرفك!»

ـ ابو شهاب فد چاي لاخ!

وشعر بان معدته تتقلب بعد ان فرغ من شرب الشاي. وربما ذلك من تأثير الصودا في معدة خاوية، الصودا التي يضعها احمد في الشاي ليصير اسود. «يريد يحصل فلوس ـ قال لنفسه ـ احمد الچايچي يريد يصير زنگين. اذا طلبت منه دينارين يطيني؟» ونظر اليه وحاول ان يستشف من سحنته جواباً عن سؤاله. رآه يخط خطوطاً على ورقة معلقة على الحائط قرب الموقد. وعرف حسين ماذا يفعل احمد. انها عدد الشايات التي قدمها لزبائنه بالدين. كل زبون مفلس اله خانه، وفي كل خانه خطوط، وكل خط يشير إلى واحد. والرزق على الله! ولاح له متساهلاً ولطيفاً.

ـ ابو شهاب؟

ـ اي، اغاتي.

ـ تگدر تفتح لي خانه؟

ـ فلِّست كلش؟

ـ كلش.

ـ چم چاي اقيد؟

ـ لا، گول چم دينار.

وضحك احمد واعتبرها نكتة. وقال حسين لنفسه «بايخه! هو هيچي اللي يداين؟ اشتعل امامچ تماضر. راح اتبهدل على مودچ! انت تدرين بيه اشلون داتعذب؟ وانت تستاهلين هالعذاب؟» ومرّت في خياله مهزوزة داكنة وكأنها وراء نقاب. وتذكر كيف التقطها من باب سينما. كانت ملفوفة بسواد ايضاً. عباءة وبوشي. كانت واقفة قرب باب سينما الرافدين. وخيّل اليه انها تنظر اليه بالذات. كان يشتري فستقاً من بائع حلويات بجانب السينما فتقدم منها بخطى رخوة. ولما اقترب سألها:

ـ تخشين للسينما؟

صمتت لحظة ثم قالت:

ـ لا، اخاف ممنوع!

ابتسم، ولأول مرة رأى خيال عينيها من وراء البوشي، عينين واسعتين مرتعبتين، وفي السينما امسكها من يدها الموضوعة قرب فخذها، فأحست بمثل

لمس الكهرباء وجفل هو ايضاً. وكف عن التحرش بها حتى اضيئت الانوار. وخرجا من السينما، ومشيا صامتين في شارع الرشيد. همّ بأن يعبر الجسر بها، ولكنها توقفت فجأة وقالت «لا، ما روح منا!» وعرف انها له. وفي شارع ابي نؤاس وقفا ينظران إلى النهر قرب سدرة، ورفعت «البوشي» فرأى وجهاً خالياً من المساحيق له شفتـان ممتلئتـان، وعينان واسعتان. وشعر بالحيرة حين استأنفا السير. إلى اين يذهبان. سألها في توجس:

ـ عندچ مكان؟

ـ دكان؟!

قالت بصوت مرتجف. ولم يدر أنها خافت من كلمة دكان لأن اباها عطار، وهي هاربة من أهلها. قال لها مستدركاً:

ـ قصدي رايحه تشوفين ناس؟

ـ لا، هيچي.

وسارا وقتاً. ثم سألها:

ـ تعبانة؟

ـ تعبانة.. من دنياتي.

وسهل عليه كل شيء بعد ذلك. وذهبا إلى كمب الارمن، واستأجرا غرفة. وفي الليلة الأولى ناما على سرير خشبي كاد يقع بهما. وفي اليوم التالي اشترى سريراً عسكرياً من سوق الهرج، وفراشاً، وصارت له. وفكّر الآن لو رأت شخصاً آخر لكانت له ايضاً. وأرتعش!

رفع رأسه، ورأى جزءاً من الشارع. كان محمود بن الحولة يقف هناك رافعاً الستـارة إلى الاعلى، متكئـاً على الحـاجز الخشبي. وبعد ان طوّف ببصره في المقهى مشى في بطء ودون سلام، وانهبد على التخت بالقرب من لاعبي دومينو. ومقابل حسين. واشار بذراعه الطويلة إلى احمد يطلب شاياً دون ان ينطق بكلمة. وأرخى ساقيه الطويلتين، واخرجها على ارض المقهى الضيقة حتى حجز اكثر من نصفهـا. كان يبـدو تعباً أو ربما سكران. وفي الدقيقة الأولى بدا رخو المفاصل مسالماً. وجاءه احمد بالشاي فخاطه، ثم شربه بجرعتين، وقال لاحمد:

ـ اشو چايك بارد؟

ـ مو هسه درته گدامك من القوري اللي عالنار.

ناوله القدح الفارغ وقال له:
ـ دروح جيب لي استكان لاخ.
ذهب احمد ليصب الشاي. وانتعش محمود كما يبدو. التفت إلى يساره فرأى لاعبي الدومينو منكبين على لعبهم. كان احدهم يدير له ظهره. امتدت الذراع الطويلة وعاجلته بضربة جفل لها اللاعب والتفت ناظراً بعينين مرتعبتين حانقتين.
ـ مو وراك اوادم. قال له محمود وهو يتناول قدح الشاي الثاني.
تحول الغضب والألم المرتسمان على وجه اللاعب إلى اعتذار مكره صامت حين نظر ابن الحوله بعينيه القاسيتين وتزحزح اللاعب من مكانه، ثم واصل اللعب في وضع غير مريح ولكنه يرضى بن الحولة.
ـ لك ما دا احچي ويـاك. كانت يدا بن الحولة مشغولتين بالقدح فاكتفا بهذا التهديد.
ـ خلينه نلعب فد راس ابو شكر ـ قال اللاعب متضرعاً، وعلى فمه ابتسامة قلقة.
وضع بن الحولة القدح الفارغ على الحصير وقال في عناد:
ـ لا، اشو متلعبون.
ومدّ ذراعه وجذعه، وأختطف بعض القطع المصفوفة. نظرت اليه اربعة وجوه في غيظ مكتوم. وصدر صوت من أمام وكأنه آت من مكان سحيق.
ـ خليهم يلعبون خطيه.
التفت بن الحولة، ورأى وجه حسين امامه
ـ انچب مخنث!
اربكت الكلمة حسيناً ولم يعرف ماذا يجيب. اكتفى بأن اطال النظر اليه في عتاب جارح.
ـ ها... اشو د تعاين.. استوّك جاي للدنيا؟
قدر حسين على ان يقول بشفتين جافتين.
ـ راح يصير عمري عشرين سنة.
ـ محصّن بالله!
وساد المقهى صمت مأزوم كان ابن الحولة ما يزال يحدق في وجه حسين في استخفاف. وبعد تحديقة طويلة قال وكأنه تذكر شيئاً:

ـ هاي اشبيها مرة ابوك؟
ـ اشبيها؟ سأل حسين بصوت لا هوية له.
ـ تزوجت رجّال ثاني على شيبتها؟
وضحك في غل. وسكت حسين مطعوناً. فبأي شيء يرد عليه؟
ـ يگولون چانت معاشرته قبل متزوج.
ـ محمود لتشيل خطية الناس.
ـ جحش ليش اشيل خطية الناس. اكو واحد بالطرف مظل يعرف؟
تواردت على حسين مشاريع أجوبة، لم يعرف بأيها يجيب، ففضل الصمت على أمل أن يغلق ابن الحولة الموضوع. والتفت صوب احمد الجايچي. كان ينظر اليه باشفاق. وكذلك اللاعبون الاربعة.
وعاد بن الحولة يسأل:
ـ اش يشتغل رجل مرة ابوك؟
حتى هذا التركيب الغريب الذي لا تقبله أذن «رجل مرة ابوك» بدا له أكبر سبة. فماذا يقول لهذا الذي يتحرش به؟
ـ اش يشتغل؟.. گول.. هذا هم متعرفه؟
ـ بسوگ الجوه
ـ لا، جوّه! يشتغل مهرب عند الانكليز. يومية تعال شوفه بگهوة الصالحية.. ضحكوا عليه واخذوا فلوسه. تعلمني بيه؟.. لك انت غير أثول.. حتى على ابوك مطالع.
هذه المرة مست اباه. كزّ حسين على اسنانه وقال بشيء من ثبات الاعصاب:
ـ بأبويه لتتحارش.
ـ وهيچي تحترمه!
ـ أحترمه أكثر من أي واحد.
صوب بن الحولة اليه نظرة صارمة وقال له:
ـ لعد گوم!
لم يجب حسين.
ـ گوم لك گوم.

ـ وين اكَوم.
ـ كَوم اطلع.
ـ والويش؟
ونظر اليه في حيرة فرأى الشر مرتسماً على وجهه ولكن كيف يقوم؟
ـ تطلع لو اطلعك بيديه؟
تلفت حسين إلى الوجوه مستغيثاً فوجدها جامدة، وغير عازمة على ان تتدخل. وكان وحده أمام ابن الحولة فنهض.

ـ ٢٥ ـ

ـ وجاءوا أبوهم عشاء يبكون. هذا ما وعدنا به وصدّق المصدق.
ـ الله يخليك اسكت.
ـ لچ اشلون اسكت؟ مد تسمعين؟
ـ خليه يلغي ويسكت.
ـ راح يلم الجيران علينا!
ـ الجيران نايمه. وكل واحد بحجرته... الله يخليك اسكت.
ـ وأخليه يجسر عليّ؟
ـ أحسبها عليّ
ـ دا تسمعيه شد يكَول؟.. كل كلمة هالكبرها. أخاف سكران.
ـ يمكن....
ـ واي واي! طوله شبر ويسكر.. ممن تعلم الشرب؟
ـ من أبوه. ليش ما چان يسكر! وانت اش دعوه؟ اللي چنت اكَول صايم مصلي.
ـ سليمة، آني من قهري.
ـ لو السكر يداوي من القهر، چان شربت قرابه!
ـ وشكو عليچ مقهورة؟ انت تخليه يلعب عليچ.
ـ وليش وحده اللي يلعب عليّ
ـ شنو مقصودك؟.. كَولي!
ـ اسكت عني، ما عندي كل مقصود
ـ لا، انت تقصدين خاجيك.. هذي مو بيديه الانكليز راح يمشون.

ـ من الاول انت ناوي تلعب عليّ . . تذكر الوصل اللي كتبته؟
ـ اي . شكو بيه؟
ـ اش مكتوب بيه غير بسم الله الرحمن الرحيم؟
ـ . . . .
ـ عبالك ماكو واحد يقرا غيرك؟
ـ شفتـج توهـوسين كتبت لج بسم الله الـرحمن الـرحيم. يعني اش اسوليج؟ . . نص الفلوس اخذتيها شكر وچاي .
فهزت رأسها في حزن، وغرقت في صمت لم يرد أن تغرق فيه فتفكر باشياء اخرى. قال يريد ان يحول تفكيرها .
ـ سمعتيه شيگول؟ قچقچي! تقبلين رجلج يصير قچقچي؟
ـ قابله، بكل شي راضيه .
ـ يعني راضيه .
ـ راضيه، بكل شي راضيه .
ـ سليمة شنهالحچي؟ اشو نغمه جديدة؟
ـ بعد مادير بال لكل شي .
ـ ليش عود؟
ـ واش كسبت من ديران البال؟ اشو چنت مرتاحة. اشتغل مثل الدابه من الفجر للمغرب، وما فكر بالتعب وجيتني بساعة غفله . . اسويج شريكه بفرن! وتجيبج فلوس وانت گاعده مرتاحه، وخليتني أبطل من الشغل، وما نام الليل من الفكر، واگول يمكن أسعد . . . وخليتني مثل بلاع الموس. والثلاثين دينار انضربت!
ـ منضربت. بس الانكليز نكتوا .
ـ الانكليز والا السيك . . راحت لو ما راحت؟ واش حصلت منها؟
ـ وآني اش حصلت؟ عبالك صارت بجيبي، واغتنيت منها .
ـ محد محصل . . فدوه اروح لك جوز عني، وهي لگمة وتنگضي . وباچر اتوسل بالتموين بلكت يرد لي اجازتي .
ـ اللي يسمعج يگول دا العب عليج .
ـ متلعب . . بس آني حظي أسود، وين ما گبلها سوده مصخمة .

ـ ولويش؟ وآني المن داجيب وداودّي . اذا تگولين هيچي آني هم چنت گاعد بحجـرة وحـدي ولـو الجريديه الليل كله تلعب بيها . . بس مچان واحد يحچي عليّ . . . مچـان واحـد يگـولي ابـو ركَبـه البعير. والحـوش؟ . . يروح ويجي عالحوش . . يريد يبيعه .

ـ خل يبيعه؟

ـ ويهجولج ؟ ويا تنور يبقى؟

ـ خلي ، اشتغل بغسل الهدوم عند النصارى .

ـ سليمة ، انت راح تشگين گلبي .

ـ خلي گلبك على كُتر

ـ انت متعرفين اش ضام لج .

ـ كل فرن بعد ماريد .

ـ دا تسمعيه . . رجع يجوعر.

وركض ، وركضت سليمة وراءه . وفي الحجرة التالية رأيا حسين منطوياً على سريره يضرب المخدة بجمع يده . ولما احس بهما رفع رأسه ، وتناول من تحت المخدة سكيناً لفرم اللحم . وقال في تهديد :

ـ من تنزل أطبرك تطبر . .

ـ وي ! ـ صاحت سليمة وأمسكت زوجها الذي كان يرتجف مثل السعفة .

ـ وانت تخوفني بسچين اللحم؟ هديني سليمة .

ـ اشو تنزل درجة وحدة؟

ـ يعني تخوفني؟ . . يعني ماكو حكومة؟

ـ الحكومة لو تسمع بيك چان حبستك .

ـ د تسمعين سليمة؟

ـ اشلون عيني؟ . . . مصطفى امشي

ـ اخذي رجليج واطلعي . . هذا الحوش مالي .

قهقه مصطفى قهقه مفتعلة وقال :

ـ هيچي تصوّر؟ . . مالك؟ . . الك نص بس .

ـ مالي . آني الوريث .

ـ والشرع وين يروح؟ انت مو من صلبها حتى يكون الها الثمن ـ وادار وجهه

إلى سليمة ـ سليمة هذا الضامه الچ . . تره آني اسألت . . سليمة نص الحوش النا.

هتف بالجملة الاخيرة بعصبية وشراهة. وتوترت عروق رقبته الهزيلة. وانتظر أن تتحدث. ولكنها صمتت. وعلى ضوء الفانوس لاحت عيناها جامدتين لا مباليتين. ثم تكلمت موجهة كلامها إلى حسين:

ـ صدگ تريد تبيع الحوش حسين؟

ـ اي

ـ بيعه

ـ شنو؟! . . صرخ مصطفى مجنون.

ـ خل يبيعه! . . . اهل المعمل الجديد يريدون يشتروه.

ـ سليمة انت تخبلت ـ صرخ بها ثانية بخبال ـ متعرفين حياة النزولة شنو؟

ـ نص بغداد عايشة نزولة ـ قالت سليمة ببرود.

ـ سليمة، عشرين سنة وآني نزل مثل ام البزازين يومية بمكان . . . تريدين تصيرين هيچي؟

ـ ميخالف . . هل الدمبله اريد اگصها.

ـ وراس الشهر يجي عليچ صاحب الملك، ميعرف انت مريضة ولا بلية شغل.

ـ ميخالف.

ـ ودايرِ مدايرچ ناس. يمكن لو تشوفيهم بالدرب متسلمين عليهم.

ـ وشعليه منهم؟ اسد بابي واگعد بحجرتي.

ـ اوف سليمة . . لتصيرين أقسى من الانكليز!

ـ ٢٦ ـ

كانت شمس الصباح تسطع بلا دفء. والسماء صافية. ولكنها تبدو جامدة، كل شيء يبدو جامداً وبارداً ونظيفاً ومنكمشاً على نفسه. وقلّص حمادي عينيه، ونظر إلى فوق فاغر الفم في دهشة، وكأنه يرى الدنيا لأول مرة. وفي فمه الوردي الشائخ لاحت ثلاثة اسنان صفر زائدة عن اللزوم، مثل آثار مدينة هالكة وسط صحراء جرداء. وبدا انفه المحزوز في ذلك الصباح الكاشف للعورات أكبر من ان يصلح لوجهه الصغير الغائر الوجنتين والعينين. كان الوجه نحيلاً مثل وجه عصفور،

محاطاً بياشماغ يلف الرأس، وينحدر على الكتفين الضيقين إلى الظهر فوق السترة الكالحة اللون، والطويلة كمعطف. نظر إلى السماء فبهرت عينيه بزرقتها الصافية حتى بدت له مثل قبة صقيلة لامعة من الشذر مغسولة بيد الملائكة، والشمس على يمينه تصبغ الجدار الكالح بعصفرة ذهبية، حصيرة صفراء ملقاة من فوق سطح الجيران. كان يحس بلونها أكثر من احساسه بدفئها. وتصور في ذهنه المشوش السريع العجول منائر ذهبية، وحمامات ثم تخيل نفسه جالساً على مقعد وراء حصان يخب في جادة عريضة مستقيمة. والشمس من ورائه تدفيء ظهره، وعلى جانبيه بساتين الفاكهة المغبرة، والحصانان يثيران الغبار النقي مطواعين في يديه، مستكينين إلى جذبات الرسن الخفيفة، رافعين اذانهما باتجاهه مثل خادمين مطيعين يلتقطان الأوامر من شفتي سيدهما. وتبسم بفرح، وغمره حنين عجول إلى الحياة. استدار ومشى خطوتين في الليوان. ودخل حجرة تسلل ضوء الشمس من سمايتها المفتوحة، وجلس على الحصير قرب زوجته، وملأ صدره بالهواء ثم أطلقه بحسرة طويلة وقال:

ـ رديفة، تعرفين اش مشتهي؟

ـ شمشتهي؟

ـ حصان! . . . .

لاحت خيبة الأمل على الوجه المنغولي المستدير وقالت رديفة بضيق:

ـ ياحصان أكَشرا . . . .

ـ حصان اشده على عربانه، وأخليه يسرح على كيفه. واسمع حس حوافره عالجاده. . أحسن خلخال. . رديفة، انت متعرفين اشلون مزيقه تطلع. . . چراق چرقوق. . چريق چراق چرقرق. . . وانت راكبه وراه، وبيدچ الرشمه. ووين متجريه يجي بيدچ. . هاي يامريه هيچي؟

ـ انت تروح وتجي على المريه. . المريه تحبل وتجيب وتربي الجهال وتكنس وتغسل وتطبخ، وداوي رجلها الوجعان، وانت الحصان عندك احسن منها.

ـ رديفة لتغثيني. هذا أول يوم اشيل راسي من المخدة، وكَلبي محروك على حصان وعربانه.

ـ آني احس لو الحصان؟

ـ ما اكَدر اكَول. . رديفة، اذا كَلتي أيو أحسن انت لو سيارة؟ چنت أكَول

بالعجـل: انت احسن من مليون سيارة شوفـرليت وعنتـرناش. بلاكت بالحصان متحير: ما ادري اش اگول. رديفة، لتزعلين. حياتي كلها گضيتها ويه الحصونه. گبل ما اتزوج چان الحصان ديني وايماني. من آني جاهل اركض ورا الحصان. ابويه مچاري! والحصان بنيادم! والسيارة حديد. والسيارة يمكن تفلت من ايدچ، بلاكت الحصان ميفلت. كل شي يفتهم. سمعتي واحد سحگته عربانه؟ الحصان حياتي.. افيش.. اريد أشم ريحة حصان.

وبدت غير مقتنعة وحزينة. قالت له في مرارة:

ـ اش گد داريتك!

ـ لازم اداريني.. انت مرتي.

ولكنها كانت تشعر بالأسف:

ـ واش نفعتك الحصونه.. صار لك نايم شهرين.. اشو ما جا حصان داواك.

ـ ميخالف.. الحصان مو دختور.. الحصان زمرده.

ولم يقـل لها طوال حياتها انها زمردة، وهي التي شقت وتعبت، وخاضت الوحول، وجلست عند رأسه ساعات تنصت إلى انفاسه الضعيفة وهي تخاف ان يستنشق نفسـاً ولا يزفـره. ودعت الله أن يضـع من عمـرها على عمره، وحلمت بالفارس المهيب يأتي لينتشلها معه. والآن تجد هذا الجحود، هذه المناغاة الحلوة للحصـان. وتفضيله عليهـا. وكم تألمت من ذلك! ولكنها أطبقت صدرها على الالم، ورفعت رأسها اليه في عتاب مجروح. ولما نهض من جانبها ثانية طوقت قامتـه الصغيرة الضئيلة بنـظراتهـا الحانية. ورأته يقف لحظة في مستطيل الباب الـزاهر، ويعبر الليوان. وهناك يرفع بصره إلى السماء، ويتمطى، ويقول «الدنيا حلوة!» وتسرب ألمها، وقنعت بكل شيء، وحمدت الله على نجاته. ألم تقل حين كان خامـداً في فراشـه «أريد بس انفـاسه تتردد»؟ والآن يسير هناك، في صحن الخـان، كأي انسان معافى، ويتوقف عند حجرة مرهون ابو قنبورة، ولما سمعته ينادي بصوته المرح «ابن الحجية عمشة؟!...» أمحى كل أثر للبؤس في نفسها. وابتسمت ملء فمها.

واستعـذب حمـادي النـداء، وتقدم طروباً، وفتح الباب يحاول أن يكون خفيف الحركة فرحاً بعافيته، وقد أوحى له الجو الصافي بأنه شاب، وصفّى بقايا

الوشوشة في رأسه. ورأى الغرفة خالية فقال «لازم بالجامع. حصان عجّز!» وأنتشى متلذذاً بذلك الاحساس الحلو لأنه لم يعجز حتى الآن. في وسعه الآن ان يعمل، ويمسك بالرسن بيدين قويتين. ومدّه ذلك بالقوة حتى طفر بركة ماء قرب حجرة «الحكومة الله يسلمها» فتلوثت اذيال دشداشته بالوحل البارد الثقيل. ولم يكترث. توقف عند باب الخان يتلفت في الشارع العريض ورأى كل شيء كما كان منذ شهرين... البيوت، والنوافذ، والأبواب، والاوحال، والسرسيفة،؟ وبيت سليمة الخبازة مغلقاً. كيف حالها مع العريس؟ لابد انه لم يرض بأن تستمر في بيع الخبز. ثم رأى البناء الاصفر إلى جانبه. وقال لنفسه «هذا اللي تغيّر!... طولة حاج احمد اغا تنكَلب معمل!» واقترب من الطولة. سيسميها طولة إلى الابد. سيظل يتخيل الحنفية، ومعالف الخيل، والليوان الواسع. وهزّ رأسه «زمان!» واتجه إلى دكان صاحب أبو البايسكلات

كان صاحب يتجادل مع رجل طويل ويبدو غاضباً:

ـ البارحة نوري السعيد أعلن الحرب على دول المحور.. راح نفتح جبهة على بحر مرمره نسميها «شلح وأعبر!»

فضحك العربنچي في نشوة وقال:

ـ بهالبرد؟

التفت صاحب والرجل الطويل اليه. وقال صاحب في دهشة نشوى:

ـ هذا حمادي!... كَمت من الفراش؟

قال حمادي:

ـ كَمت.. بيزي قهر!

وهمّ بان يجلس على عتبة الدكان، فقال صاحب في عجلة:

ـ لا!... اكَعد عالسكملي.

وجلس حمادي على الكرسي فرأى صاحبه القديم جالساً على الارض امامه.

ـ ها، ابن الحجية، اشلونك؟

كشّر مرهون، ولم ينزعج من هذا اللقب المجاني:

ـ هلا بيك، اشلونك.

ـ زين، مثل المسنايه.. وانت اشو مرايح للجامع؟

ـ قال صاحب:
ـ بعد، لا يصلي ولا يروح للجامع.
فأرسل العربنچي أهة استكبار مفتعلة وقال مرهون:
ـ ماكو فايدة!.. من باع حاج احمد الطولة كفرت گلت بلكت يصير براسي خير مثل حاج احمد اغا اللي نهار كله چان يكفر... ما صار!... گمت اصلي واروح للجامع.. بلكت يصير براسي خير.. هم مصار.
قال العربنچي:
ـ انت تروح وتجي عالطولة... الطولة انباعت.
فأضاف صاحب:
ـ وحوش سليمة انباع.
ـ على بختك.. انباع؟!
ـ انباع... سيد مصطفى يگول.
فهزّ الرجل الطويل رأسه وقال بلهجة باتة:
ـ اي راح نبيعه لاصحاب المعمل.. ويريدوه باربعميت دينار.
فقال العربنچي:
ـ خربت الدنيا.. الطولة انباعت، والنخلة راح تنگص اش راح يبقى بالدنيا؟! بس لتبچي مرهون!..
ـ ما أبچي. بس الخبزه تنراد.
ـ اركض وراها.. لتگعد بالجامع.. تعرفون آني بيش اشبه العمر؟ بفد درب طويل طويل، وبين كل مسيره چم ساعة رغيف خبز وطاسة ماي. والواحد لازم ياكل لگمته ويمشي حتى لما يوصل للرغيف اللاخ يكون جوعان، وياكله ويمشي، وعالهديدنه حتى لا يجوع.. من يوگف يجوع، ويفطس. والانسان من هو شاب يمكن يمشي ركض ويوصل لگرصة الخبز وهو بعده مو جوعان كلش، ويكون عنده سبير. بلاكت من يكبر وميگوم يركض زين يحس بالجوع گبل ويوصل، وبعدها يحس بالجوع وهو بنص الطريق، وبعدها بربعه، وبعدها يوگع ذيچي الوگعة وميگوم منها.. وهيچي ناس ميحسون بعمرهم طعم. ركض بس، ركض بدرب طويل..
قال صاحب:

ـ مو كل الناس هيجي.
ـ كل النـاس تمشي.. بس أكو ناس عن ناس. أكو ناس يركضون على رجليهم، وأكو ناس يركبون عربابين تجرها زوج خيل من هاي الزينه، وما ياكلون خبز وماي بس.. هذوله المحتشمين..
كانت خيرية زوجـة رزوقي قادمـة نحـوهم هالعـة فبلغت سمعهـا كلمـة «المحتشمين» فصاحت نادبة:
ـ وين هذوله المحتشمين؟.. ظلوا محتشمين؟.. راحوا ويه المدير العتيگ.
التفت الرجال نحوها فرأوها تشمر بذراعيها بادية الانفعال عصبية.
فسأل صاحب حمادي العربنچي
ـ وخيرية أم الحكومة الله يسلمها من يا صنف؟
فأخذ العربنچي يفكر بجواب معقول الا ان خيرية سبقته وقالت:
ـ ماكو بعد «الحكومة الله يسلمها» ماكو بعد حكومة... حكومة خرگ..
شفت عيني ابو مهدي اشلون نقلوا رزوقي من فراش المدير للاوراق؟.. شفت عيني اشلون يخونون بالواحد؟ اشگد داراهم رزوقي؟ چان مقبح ويه كل الموظفين على مود الحكومة.. شفت اش سووا بيه؟ مو طلعوه من باب المدير وخلوه بباب ملاحظ.. لا، عيني خلوه بالاوراق.. ويه الزبل!
كانت تحرق اعصابها. فقال صاحب لها بحدة:
اش صار؟ قللوا معاشه؟.. سووا نص فراش؟ چان فراش؟ ويظل فراش.
ـ لا عيني، فراش عن فراش فرق.
وهنا طلع العربنچي من بئر تفكيره وكأنه يواصل حديثاً لم ينقطع،
ـ.. وأكو ناس يركضون ورا عربانة المحتشمين ركض،الخيل متركض مثله حتى يحصلون رغيف الخبز وعبالهم راكبين بالعربانة.
فصرخت به خيرية:
ـ اسكت عربنچي، هاي لسه ممتت؟
ـ العربنچي احسن، گاعد على السكملي بالعربانة مو يركض وراها.
ـ لو تموت ميطوك عربانة بعد.
وعـادت من حيث أتت خائبـة الظن مدحورة، تحترق لوحدها وتصيح في

الشارع العريض «بعد ماكَول الحكومة الله يسلمها، بعد ماكَول. . خلي يسمعوني كلهم!» ولكنهـا كانت لوحـدهـا في الشـارع. وبدت وهي ترفع يديها إلى فوق فارغتين، وتصرخ بهذا الهتاف «اللاثـوري» مثل مظاهرة فاشلة ضد الحكومة.

- ٢٧ -

كانت الاقراط مصفوفة امامه من شتى الانواع: صغيرة بحجم الحمصة وكبيرة بحجم الريال، أنيقة «موديله» بفصوص ملونة، و« شركاوية » خرقاء عقربية. كانت كلها تتوهج امام عينيه ببريق شفاف. كلها من ذهب ولا تعز على المنال. وإلى يسـارهـا مجموعة كبيرة من الخواتم موضوعة على ارضية مخملية قرمزية اللون. وكـانت هنـاك اسـوار، وقلائد وحتى «خزّامات». والاختيار صعب، وكلها تناديه ببسماتها الشقر اللامعة. ثبت بصره بقرطين جميلين باحجار خضر وحمر، وأشار للبـائـع بان يخـرجـه له. نظر البائع اليه بتفحص قبل ان يمد يده إلى المعرض الـزجـاجي، ويتنـاول مجموعة الاقراط. . قرط جميل وصغير. وسأل البائع عن عمرها. قال له: اقل من عشرين. قال البائع هذا يصلح لمن رقبتها قصيرة وممتلئة. والنساء من هذا النوع تخطين الثلاثين عادة. ونصحه بان ياخذ قرطاً أكبر. واخرج له قرطاً باحجار بيض وخضر، وشراشير. وقال انه سيتدلى من شحمة الاذن على جزء من الـرقبـة، فيكـون مثـل حاشية ذهبية للوجه يزيده جمالاً، ويلمع لمعان اسنانها، ويهتز على حركات رقبتها. فقال في سره «هم عاجبته نفسه!» واشترى القـرط، وحام بصره على خاتم فاشتراه ايضاً بعد اغراء متقن من البائع صاحب اللحية البيضاء. وسار في الشارع مطمئناً. كان النهار قد انتصف، والشمس تلفظ بعض أنفاسها الدافئة. ولكنه تركها ليمر على صف الدكاكين في الجانب الظليل من الشارع. كانت له شهية نهمة إلى الشراء. كان يود ان يشتري لها الدنيا كلها. توقف عنـد اورزدبـاك. فاحت من داخـل المخزن الطويل رائحة نفتالين دافئة، وروائـح أخرى لم يتعرف عليها. ولكنها كانت تدعوه. وقال لنفسه: هذه رائحة الاشياء الجـديدة. كل جديد له رائحـة. وتخطى العتبة التي لم يتخطاها طوال حياته. صعد درجات ثلاثاً إلى الداخل الأملس الانيق. المتوهج بالألوان، المملوء بالمـدامـات متحـركـات، وواقفـات وراء المعـارض. نظرت اليه مدامه متحركة متسائلة. ولمح على شفتيها ابتسامة استطراف. وكأنه ريفي بعقال يركب دراجة.

وقال لها بحنجرة جافة: اريد نفنوف قديفة! فأومأت له إلى داخل المخزن. وارتبك لا يدري إلى اين يسير، وهمّ أن يرجع حين سمعها تصيح «جانيت! شوفي الولد شيغيد!» وقابلته مدامه اخرى هيفاء بيضاء اليدين والذراعين. قال لها «نفنوف قديفة» فسألته عن السعر الذي يدفعه.. ماذا يقول لها؟.. «بيش ميصير!» ندت منه هذه الجملة دفعاً لكل محذور، فقادته إلى مجموعة كبيرة من الفساتين...
أوه، بحر من الألوان والأشكال والروائح! وقف خائفاً من أن يمسها أو يقترب منها. ورأت الفتاة حيرته فسألته عن عمر الفتاة. قال لها «عشرين» قالت له «يعني بقدي؟» وعرضت له جسمها. ولكنه لم ير الا عينيها الواسعتين الملونتين. وقال لها «اي!....» ورأى ابتسامة رفق على شفتيها الرقيقتين. واستدارت لتختار ما يناسبه. فرأى صدرها الضيق، وعجيزتها الكبيرة، ثم ساقيها البيضاوين الممتلئتين المحمرتين قليلاً. وقال لنفسه انها تشبه تماضر... تماضر بيضاء! جاءت بثوب ازرق وطرحته على المنضدة امامه. كان صدر الثوب مزيناً بشرائط فضية. ثم جاءت بثوب بنفسجي، وآخر احمر، وأخضر. وتحيّر أيها يختار. وترك الخيار لها. فوضعت الازرق على جسمها وقالت «هذا أحسن من الأول». وكان ينقل بصره بين عينيها والثوب تتلع من تحته رمانتا صدرها الناهد. فقال «هذا بيش؟» وحلم بانه يشتريها قالت «اربعة دنانير»... باه! وقف حائراً بين اغراء الثوب عليها وجسامة المبلغ. وهزّ رأسه موافقاً كتبت له ورقة وسلّم الدنانير الاربعة. ولما خرج من المخزن لم يكن بالفرح ولا بالحزين. تسرب إلى قلبه بعض خوف غامض حزين وعدّ ما تبقى في جيبه من فلوس. ثمانية عشر دينار من ثلاثين. وقال لا يهم هذا عربون فقط. وسار باتجاه السوق. ماذا سيشتري لها بعد؟ سيشتري لها ما يراه جميلاً، وما يزيدها فتنة لتفتح عينيها بدهشة، وتحضنه وتقبله قبلات رنانة. ألم تقبله امام العربنچي عندما اشترى لها خوان الملابس والسرير؟ وكانت الفلوس فلوس الخالة نشمية. وتذكر عليه ان يدفع الكمبيالات... اثنى عشر ديناراً. لا بأس!.. سيدعو الخالة نشمية ويقول لها: الكمبيالات أريد أوفيها. ويتحرر من قيودها. وتحرر من ظل الخوف الغامض. وسار بخطى مطمئنة ولفة الثوب المخملي بيده اليسرى. ووصل إلى سوق الخياطين. الاقمشة، وصوت مكائن الخياطة، ورائحة الشيرچ، وبقى وأشكن. ولما تجاوز السوق تنفس نفساً عميقاً، وأشعره الهواء الذي هبّ عليه من النهر بالجوع. وتذكر انه لم يتناول فطوره حتى

الآن. دخل مطعماً للكاهي في أول سوق الجوه من جهة الكمرك، ومقابل مقهى الكمـرك. وجاء الكاهي دافئاً عليه قطعة من القشدة البيضاء، والتهمه باصابعه. وطلب آخر وشاياً، ودفع ديناراً. اليوم لا يدفع الا ديناراً. وردّ له البائع ورقة حمراء وخضراء وقطعاً نقدية. وخرج إلى سوق الجوه. طاف به واشتهى كل شيء يود ان يشتريه لها حتى قلادة كهرمان! وخرج حالماً بجناحين تنقله إلى الكرادة. مرت ثلاثة أيام وهو بعيد عنها. ثلاثة ايام طوال. وحتى الطريق اليها خيّل اليه أنه قد تغيّر. وكان الوقت عصراً. وكان عليه ان يقضي ساعتين أو ثلاثاً حتى تغرب الشمس فيقول لها انه جاء من الشغل تواً، وأنه اشترى هذه في الصباح. كل رجل يجب أن يكون له شغل. وسار في شارع أبي نؤاس مثقلاً بحمله، تعباً بعض الشيء عجولاً يستحث الشمس لتغرب. ورأى مقهى مبنياً بالطين على شاطىء النهر. فدخله وشرب شاياً. وحاول ان يتصور، مرة أخرى، حالتها وهي تستقبل هذه الهدايا. سيقدم لها واحدة واحـدة، وسيستمتـع بالفـرح والدهشة مرتسمتين على وجهها. ستصفق بيديها، وترقص طرباً، وتحتضنه بنعومة، وسيشعر بدفء جسمها على جسمه، وباللين. ولكنه سيحتفظ بهدوء اعصابه. وسينتظر المبادرة منها. ستتخلى عن اطوارها الباردة حتماً، وستغلق الباب بنفسها لتخلو معه. وسيقول لها «اوكَفي! خلّي اطّي الفلوس لخالة نشمية!» فتقول «وعندك فلوس تطي الخالة نشمية همينه؟!. . . هاي اشكَد عندك فلوس؟» وترتمي عليه فرحة «اوكَفي!. . . لتصيرين جاهلة ما كَلت لچ راح يجيني ورث؟»، «وجـالـك؟» «جـا!. . . اليوم اخـذت عربـون وبـاچـر آخـذ الباقي. . . .»، «اشكَد؟»، «ميه وخمسين دينار!. . . .»، «هاي!. . . خلّي نطي الخالة نشمية ايجار سنة»، «لا. . . اريد اكَول لچ. . خل نأجر حجرة أحسن!»، «كيفك. . .» و. . . و. . . هل سيعرض عليها الزواج؟. . يتزوج تماضر ويأتي بها إلى المحلة. . . عروسه أكو أحلى منها؟ وين لكَيتها؟. . شنو وين لكَيتها؟. . . يعـنـي وين شفتهـا؟ وين تعـرفت عليهـا؟» كَول لتستحي. . قابـل لكَيتهـا بالدرب؟!. . . لا. . بباب سينما. وغص بالحقيقة وقال لنفسه «لا. . . خوب اكَدر ازوج وحدة جديدة». وجعل يفكر بهذا الفكر. ولكنها لم تعجبه ايضاً. . . شلون كَلب قاسي ـ عاتب نفسه ـ البنية تنتظرك وانت تفكر بوحده غيرها! وتخيل تماضر جالسة على سريرها كسيرة الخاطر. . . تنتظره. وشتم نفسه، وطرد كل الافكار من ذهنه. ورأى المقهى بلا اشباح، مظلماً بعض الشي. ونهض ودفع ثمن الشاي عند

الباب وخرج.

كان شعاع الشمس أحمر خلف بساتين الكرخ يبدو وكأنه لسان نيران توقد لشي السمك. وكان يذوي مع كل لحظة، ويأتي الظلام من لا مكان. وفي الزقاق الذي سار فيه كان المساء قد حل، واضاء مصباح الشارع دائرة في الهواء.

- ٢٨ -

تماضر!

ودفع الباب ودخل. لم ينتظر أن يسمع دندنة اقدامها على البلاط الصلد. ولا نداء الخالة نشمية «تعال يابا! العروس دنتظرك!» كان يتعجل المفاجأة مثقلاً بهداياه. وخفق قلبه من أول خطوة في الحوش، ربما لأنه نسى كيف سيتصرف أمام تماضر المندهشة، وربما خاف أن يكوْن منفعلاً مثلها وغير رزين. والرزانة في مثل هذه الاحوال مستحبة. كان عليه ان يتصرف بتعقل، ويكبت ما في نفسه، ويستمتع باحساس الرجل المالك لعواطفه والمتفوق بذلك على المرأة. كان الوقت متأخراً فلم يستقبله الدجاج بخربشة ارجله المرتبكة، وباصطفاف اجنحته. والحوش مثقل بالظلمة. وغرفته موصدة الباب. ولولا ذاك الضـوء الخافت في غرفة الخالة نشمية لحسبه مهجوراً. الا انه كان يعرف أن الخالة نشمية تستعيض في بعض الاحيان عن النور الكهربائي بنور مصباح خفيض لتريح بصرها، وأن غرفته حين يغلق بابها لا يعرف أمضاء داخلها أم مظلم. ووصل الليوان وفي تلك اللحظة اضيء النور الكهربائي في حجرة الخالة نشمية، وسطع النور في عينيه باهراً متوهجاً، فاغمض عينيه لحظة، ولما فتحها رآها واقفة في الليوان قرب بابها، كتلة سوداء لا وجه لها ولا يدين.

ـ تماضر يمچ لو بحجرتها؟

ـ لا يمّي ولا بحجرتها ـ قالت بصوت غير صوتها حتى خيل اليه أنه دخل بيتاً خطأ. والتهب صدغاه. وقال غير مصدق:

ـ شنو يعني؟ مو هنا؟

قالت دون ان تتحرك من مكانها:

ـ راحت، وبعد ما تجي.

خلفهـا وراءه، واتجـه نحو غرفته، ودفع بابها فاصطدمت يده يرفض باب

مغلق. ولكنه دق الباب بعناد من يجابه مزاحاً في غير وقته. ونادى واثقاً من انها ستجيبه لا محالة «تماضر، تماضر. فكي الباب، تماضر!» وكرر اسمها وكأنه أعتقد بأنها ستجيبه اذا ناداها مرة أخرى. وقف ينتظر ان تصدر من خلف الباب حركة. وتخيلها واقفة في الجانب الآخر من الباب تعانده، ولا تعرف كم هو مضطرب الاعصاب، كم هو عجول ليراها. لابد أنها ساخطة عليه لأنه تأخر عليها. هذا ديدنها! تزعل لأقل سبب. فكيف اذا تأخر ثلاثة ايام متتالية؟.. «تماضر. شوفي إش جايب لچ... انت ردت ترچية، ومحبس، وثوب.. كل شي.. تماضر.. فكي الباب!...»

وانتظر لحظات. ولعنها على عنادها. وتوقع أن تتفجر ضاحكة خلف الباب، أن تفتح الباب وتقفز عليه كالهرة «خوفتك!...» ولكنه سمع صوت الخالة نشمية وراءه:

ـ لك انت مخبل؟ دتحچي ويا الهواء؟

ولو كان غير منفعل الاعصاب، في حالة من يزن الكلمات، ويفهم اللهجة لعرف الموقف. ولكنه كان مستثاراً، ومرتجفاً، ويشعر براسه ملتهباً. ثم... كيف تذهب فجأة ودون سبب؟ كيف تهجره على هذا النحو؟ ما السبب؟ «لچ تماضر!.. فكي الباب عاد...» وغضب لأنها تمادت في هذه اللعبة الباردة السخيفة التي تزيد من ذبذبة اعصابه. وصاح «بس عاد... تماضر... بس عاد... تماضر لتخليني...» وشعر بيد تجذبه بقوة حتى سمع صوت فتق من سترته:

ـ راح تلم الجيران!.. ﮔلت لك راحت!

ـ هدي! وسحب يده بقوة فعادت تخمشه من رقبته. وسمع صوت اظافرها على رقبته.. آخ! وحاول أن يهزها بعنف فصاحت في وجهه:

ـ تعال هنا.. وين الفلوس؟

واطبقت كلتا يديها على زنده، وجرته نحو الضوء.

قال وهو يحاول أن يثبت قدميه على الأرض:

ـ أوﮔفي.. ما ماكلها عليچ.. أوﮔفي، أوﮔفي!

ـ كانت شتائم الازقة كلها مجتمعة على طرف لسانه. ولكنه لم يرد أن يغيظها. كان لايزال يعتقد أن في الأمر مزاحاً. فتوسل اليها أن تتركه كاتماً غيظه

على تلك اللعبة التي لا تنتهي. غير أنها كانت تسحبه نحو النور. وكف عن مقاومتها، واسند ظهره على الحائط قرب حجرتها لاهث الانفاس.

ـ كَولي وين راحت؟

ـ راحت! اش مدريني؟.. جيب الثنعش دينار

ـ كَولي لي وهسه أطيچ ياها.

ـ يعني اذا ماكَول لك متطيها؟ وهجمت عليه كالسعلاة.

ـ خلّي السترة، راح تشكَيها.. راح أطيچ

ارخت قبضتها فوضع يده في جيبه، وسألها بضراعة وهو يخرج الدنانير من جيبه:

ـ الله يخليچ وين راحت.

صمتت ناظرة إلى الدنانير الكثيرة. ولم ير في وجهها الملغد غير تقطيبة الدهشة من هذه الدنانير. وعدّ لها اثنى عشر ديناراً. وقال:.

ـ گولي وينها؟

قالت وهي تنتزع الدنانير منه:

ـ راحت.. طلعت من الحوش.

ـ وين راحت؟

ـ لك متروح. دوّر على شغل. عايش عالخبازة وتريد تكسر ركَاب الناس.

ـ ياخبازة!

ـ گوم اطلع. عبالك نشمية غشيمة تذب فلوسها بالشط؟ گوم اطلع.

كان مصعوقاً جامداً من الدهشة يحدق بها شارداً وكأنه تذكر شيئاً غاب عن ذهنه من زمان.

هزّته:

ـ تطلع لو أصيح ناس يذبونك بالدرب؟

قالتها بحموضة اذابت كل قطرة للأمل في استرضائها. وبدا وجهها يتغير في عينيه، وتتساقط منه كل التعابير التي انطبع بها في ذاكرته. ولاح مقطباً جافاً اذا عصرته لن تخرج منه قطرة دم. كانت في عينيها نظرة شزراء انتقامية وكأنها لم تره، ولم تعرفه من قبل. عندئذ فقط عرف أن السبيل اليها مغلق بالف باب، وأن لا أمل في ان يحصل على شيء. فأحس بموجة من الرجفة والحنق تحمل جسمه في

تيار من الحركة اللاارادية، مثل سمكة تنتفض آخر انتفاضة على ارض جافة. وكأنها أحست بما في قلبه فعاجلته بلطمة على وجهه قدحت الشرر في عينيه، وندت منه «آه» حنقاً أكثر منه ألماً. وركلها على فخذها، مغمض العينين، بكل ما تسمح به المسافة القريبة بينها وبين الحائط. وتوهج شيء أحمر في الظلمة، ورن شيء صلب كبس أذنه حتى كاد يسحقها. وانهالت عليه الضربات سريعة صلبة غير مصحوبة بلهاث هدّمت كيانه تهديما، وارخت ركبتيه فأخذ يتهاوى منخرطاً بظهره على الحائط. وقبل ان يصل إلى الارض لطمه على رأسه شيء لا هو بالكف الانسانية، ولا بالحديد. ورنّ الصدى في اذنيه رنيناً طويلاً مثل ذلك الرنين الذي يخلفه سقوط مطرقة على صفيحة معدنية سميكة، واتسع الرنين وكأن دوائر متماوجة تبدأ من رأسه ثم تنداح حوله متلاشية ساحبة معها الرنين، محولة اياه إلى دندنة، ثم إلى وشوشة كتلك التي تعقب انطفاء محرك، وبدت، وسط عالم عجول، الشيء الحقيقي الثابت الوحيد. ولسبب غامض خيّل اليه أن تماضر هناك، وراء جدار الوشوشة، وراء عينيه المغمضتين، وأن هذه الوشوشة الدنيوية الحنون هي صوت تماضر الهالع الوله كما يتصوره ذهنه المحموم. لعلها الآن تعاتب الخالة نشمية على ما جرى. لعلها كانت نائمة فاستيقظت، غائبة في زيارة فعادت. وتسرب اليه وعيه من تلك الفتحة من النور التي احدثتها الوشوشة. واستطاع ان يفتح عينيه، فرأى نفسه جالساً على الارض. ورفع رأسه فرأى الخالة نشمية وشخصاً آخر بدا ضخماً طويل الساقين. وأمره الرجل:

ـ گوم اطلع!

تلفت حسين. لم يكن في الحوش غير الظلمة، والرجل والخالة نشمية. وأمتثل. تحامل على نفسه ونهض غير قادر على حمل رأسه. وتحركت آلام جسمه في كل خطوة وحركة. وعند الباب أراد ان ينهار. ولكنه امسك بالحائط وعبر العتبة.

- ٢٩ -

وحين افاق من الصدمة كان بعيداً عن البيت. كانت أذناه تئزان وكانما حطت عليهما ذبابتان ملحتان. وكان يشعر بألم في مؤخرة رأسه، وظهره. الا انه كان يفكر بوضوح. وكانت الاشياء أمام عينيه حقيقية: الزقاق الدهليزي المرصع بدائرتين من النور، وعيون الابواب والشبابيك الزجاجية المظلمة، ورؤوس الاشجار تطل من

فوق جدران واطئة، والارض الهشة تحت قدميه، والليل، وهو يبدو وكانه راجع من تماضر كعادته في كل ليلة. كان كل شيء اعتيادياً وبلا ظل للفجيعة، حتى تلك الوشوشة المتلاشية التي بدت وكأنها بقية حلم مزعج من تلك الاحلام التي تتراءى له كثيراً في هذه الايام، لم يصح ورأسه صاف. كانت الاحلام تنتابه كلما وضع رأسه على المخدة وغفا. وكان يحلم بشخصين فقط: بابيه القتيل، والخالة نشمية. أما تماضر فلا! كان يعرف ان رؤية الميت في الحلم شؤم. فكان يتوقع نحساً في اليوم كله. كان لا يحمل أية فكرة واضحة عن ابيه. ذات يوم جاء من المدرسة فقالوا ان سيارة ابيه اصطدمت ودخلت في دكان حلاق فقتل. ولم تقبل زوجة ابيه بأن تأخذه معها إلى المستشفى. ولما جاؤوا به إلى البيت خاف ان يراه. سمع من طرف اذنه أن وجهه مشوه. وانطبع ذلك في ذهنه فمحى كل ذكراه القديمة. ولكنه كان يتذكر، أكثر من أي شيء آخر ملابسه الدامية التي اخذها مرهون. وفي اليوم التالي رآها مصادفة في معلف متهدم في الطولة. وحين كان يتذكر اباه كان لا يتذكر وجهه واضحاً بل يتذكر ملابسه الدامية في معلف خرب. وحين كان يتراءى له في الحلم. كان لا يحزره بنفسه، بل يقال له: هذا ابوك. كان يرى وجهه اسود غامضاً بينما يرى بوضوح قامته القصيرة، والقميص الازرق المدمى فيحس بالخوف منه. كان يبدو قاسياً وغاضباً من شيء ما، وبلا عاطفة ابوية نحوه. كأنه شخص غريب فرض انه أبوه. وكان حسين يحلم بالخالة نشمية جالسة وحدها على الأرض، أو سائرة معه في الطريق الطويل إلى تماضر. ثم يحدث شيء ما في الطريق يصده عن الوصول إلى تماضر، كأن يهاجمه كلب شرير، أو شقي مثل ابن الحولة، أو يعترض طريقه جدول ينحدر عن تلك السدرة المقابلة لبيت الخالة نشمية ماراً بالزقاق الذي يسير فيه الآن. ولكنه لم يعرف أن حلمه سيحقق بهذا الشكل المفزع. يراها هي ولا يرى تماضر. نفس الكتلة الملغّدة التي يحلم بها. وفجأة طرأت على ذهنه فكرة: ماذا لو كان ذلك من تدبير نشمية؟ انتهزت غياب تماضر لتطرده تلك الطردة، وحين تعود تماضر لا تعرف شيئاً. ستظل بانتظاره حتى تيأس. وتقول انه عجز عن ان يشتري لها قرطاً فاختفى. يجوز هذا ايضاً. فكيف ينخدع بهذا الشكل؟ لم يعثر على سبب معقول لتركها له. لم يتعاركا. لم يختلفا في شيء وحين زف لها بشارة الورث ارادت ان تزف له بشارة. اهذه بشارتها؟ لا! هذا من تدبير نشمية. لا، يجب ان يعود. وتذكر.. اين لفة الثوب؟ نساها هناك؟

ومدّ يده في جيبه. كان القرط والخاتم فيه. وشعر بومضة من الفرح. ستجد تماضر لفة الثوب هناك اذا عادت. ولكن! . . . . ماذا لو اخفتها نشمية عنها؟ ورجع ادراجه إلى البيت. وقرر ان ينتظر بالقرب منه. انه لا يعرف كم الساعة الآن. ولكنه علل نفسه بان الوقت غير متأخر لعودتها. ستطل من اول الزقاق المنسرح المؤدي إلى النهر فيرى من بعيد عباءتها السوداء مقبلة نحوه. واعترته لهفة اليها، وانتعش أمله في مجيئها حتى صار يحسب كل ظل أسود عباءتها. وهيأ في ذهنه ماذا سيقول لها. حتى اذا كانت زعلانه من تأخره. ستلين لا محالة حين ترى القرط الذهبي والخاتم، والثوب المخملي هناك، وكل ما ستطلبه سيكون عندها في اليوم التالي. سيجعلها سعيدة ومرفهة، ومثل اية فتاة في السينما. وسيخرجان من الخالة نشمية وليس لها الحق في ان تعيقهما! سدد لها دينها فماذا تريد منه. وتذكر انه لم يأخذ الكمبيالات. نعم. كيف نسى أن يأخذ الكمبيالات! وضرب الحائط بجمع يده حنقاً. وتساقطت كتل صغيرة من الطين. «يكون تجي!» قال لنفسه وحدق في الظلمة من امام ومن وراء. لا أحد في الشارع غيره «وين راحت» اخذ يفكر بتلك الزيارة. ثم صفعه تفكيره فقرر أن لا يفكر اكراماً للأمل. خارجة في زيارة وكفى. ولو أنها لا تعرف احداً تذهب اليه. . . مثله. . . لا احد عنده في الدنيا. بعد أن باع البيت أصبح متشرداً. . ولاكن لا بأس! قال لنفسه «خل تجي. . نعيش سوه. . يصير عدنه بيت جديد. . . اتزوجها. . . شكو منها؟ ومن يدري آني مستكَعدها؟ ومنين الكَي احسن منها؟ خل تجي. . . يله تماضر. . . عيني. . . روحي. . واججت هذه الكلمات لهيب الحنين بين جوانحه. . أتزوجها على عناد نشمية. . طلعت لي مرة عم جديدة. تحب مطيرچي. . وهي شكل حب لو حب! اشو وجهها مثل الخبز المحروكَ. اشتعل امامچ يانشمية وين راحت البنية؟ كان يشعر بدفقات من الهواء اللاذع تهب من النهر. وكانت قدماه متثلجتين. وحين يتوقف سيل افكاره يحس ببرد كانون زمهريرياً. كم الساعة الآن؟ ربما الساعة الثانية عشرة. لا! ربما العاشرة. واخذ يخمن الوقت. وبدا له تاريخ طويل منذ أن صاح في الباب «تماضر! . . . وتسرب اليه شك في عودتها. اذا كانت الساعة الثانية عشرة فهي لا تأتي بالتأكيد ولكن من يدري بالساعة. واخذ ينتظر. واخذ البرد يهز جسمه حين خمدت جذوة الافكار في رأسه. ومن بعيد نبحت كلاب. وتذكر كيف كانت تماضر تخاف الكلاب في كمب الارمن. كانت تمسك به كالقطة. وترجوه أن يقضي الليل

معها لانها خائفة. وكان يقسو عليها. ويتركها ونادراً ما يظل معها. كان لا يحس بطمأنينة في ذلك السجن. سمع صافرة چرخچي. وربما هو في الزقاق المجاور. وقال لنفسه «يمكن ماراح تجي . . يمكن گلولها نامي هنا. منو؟» ولم يرد ان يفكر خوفاً من انقطاع خيط الأمل في عودتها. وكان البرد يخشب جسمه، وأحس بالخدر يتسرب إلى ساقه. وقال سيأتي الحارس ويراني ماذا سيقول له؟ اخذ يذرع الزقاق مثل حارس أعزل. ويتلفت. وعند السدرة التي كانت تماضر تنظر مغيب الشمس من خلالها، كما قالت له ذات مرة، سمع صوت الريح الموحشة ممزوجاً بصوت الصراصر. كان الليل يبدو أكثر اظلاماً وكهولة. وارتفعت صفارة الحارس من اول الزقاق هذه المرة. ومشى حسين باتجاه صوتها في خطى موزونة مثل خطى عائد إلى بيته. ولما اقترب من الحارس سلّم، وسأله عن الوقت. قال الحارس بالثنتين!

حينذاك فقط أدرك أنه لا جدوى من الانتظار، وأنه وحده في عالم هاجع. تسربت منه كل حرارة الأمل التي كان يتدفأ بها. وكأنه انقلب عارياً أمام برد الشتاء، فجعل يصطك عندما غادر زقاقها. وراح يركض كاللص الهارب، وترددت خطواته المخلخلة غير الموزونة في صمت الدروب مرسلة صدى أخن. ولكنه خاف أن يحسب لصاً حقاً فتحول إلى مشي سريع كالركض ووقع خطواته تلاحقه باصوات متفاوتة وكأن وراء عقبيه في كل درب حارساً يطارده. وفي منتصف الطريق رأى سيارة كان صوتها الهرم يرن مثل جؤار جاموسة. أوقفها وصعد فيها إلى قلب المدينة ملتمساً الدفء والطمأنينة. كان المبيت في البيت خارج تفكيره. ونزل في السلطان علي. وسار في شارع الفيترجية شاعراً بدفء الحيطان المظلمة، آملاً في دفء أكثر حين يصل إلى أول السوق في نهاية الشارع. كان يسمع اصوات محركات غير منظورة في مكان ما وراءه تخن في معاناة، ثم تذوي. وفي أول السوق رأى عيون المواقد الزرق في بعض الدكاكين تلتهب تحت قدور سود. وكان الدفء بينها كافياً لأن يعيد النعاس إلى جفنيه. وقف عند بائع «باجه» سمع في داخل دكانه همهمات انسانية. وسلّم. وسأل البائع:

ـ الباجه مستويه؟

ـ مستويه من زمان. بس الخبز لسه ما أجا . . . هسه على جيه.

وتذكر حسين، وكأن ذلك ذكرى قديمة كيف كانت زوجة ابيه تستيقظ منذ الفجر لتخبز. وكان يستيقظ على رائحة الدخان تملأ صدره. وفي مثل هذه

الاوقات من الشتاء تكون دافئة ممزوجة برائحة خبز طازج.
ـ يمكن أكعد شويه.
ـ تفضل عيني. . وعندي چاي اذا تريد.
كان الدكان دافئاً جداً، وفيه رائحة زفر قديم متراكم على المنضدة الطويلة، والمقاعد، والحيطان. قال البائع وهو يقدم الشاي:
ـ الدنيـا صبح. . نص بغداد گاعده هسه.
حقـا. . . بعـد نصف ساعة كان يرى من مكانه اشباحاً سوداء تتحرك في الشـارع امامه. وسمع سعالاً متنوعاً ينفذ اليه من خلال ازيز الموقد. وجاء رجل بالخبـز. وظل الاثنان يتحدثان طويلاً. ثم اشترك معهما صوت آخر، ثم انبثقت مجمـوعـة اصوات على مقربة. وأخذت اصوات المحركات تتردد أكثر. . ومرّت سيارة في الشارع، وعربة، ورهط من الحمير، وبائعة لبن طويلة الرقبة. ولما فرغ من طعامه كان الشارع يلوح أمامه في ضوء رمادي فاتح. وجاءت العصافير وترامت على الارض القذرة في استماتة. وقرر أن يعود إلى هناك وينتظرها.
. . . . الزقاق المترب نفسه، المؤدي إلى بيتها. سار فيه ممصوص الخطى، منحدراً اليه من شاطىء النهر. كانت زقزقة العصافير فيما حوله، والصباح الاشقر، وبعض السابلة تدفىء قلبه بكف الأمل الدافئة. ولمح بابها من بعيد. راقبه من بعيد. وكلما دبت الحركة، ومسحت الشمس برد الليل البارح تخيل انها ستأتي في هذه اللحظة. سيرى قامتها بوضوح في شقرة الصباح الترابية، وسيناديها: تماضر! ومـاذا ستقـول له؟ ها. . اشو واگف هنا؟ أو تقابله في وجه جمّده الزعل؟ وماذا سيقول لها؟ طردتني نشمية البارحة وضربتني على وجهي؟ أم يسألها «البارحة وين چنت؟ انتظرتچ وما جيتي؟» وبدت كل تلك الأفكار قلقة وغير واقعية. كان فيها شيء قاس وغير طبيعي. وجـاء الضحى بدفئـه السخي، ورائحـة ترابه القوية. وانسبل الجفنان بقوة معدن صلب. وراقب الزقاق من تحت جفنين نصف مطبقين. كان يود ان يجلس أو يستلقي. وخذلته عضلات رجليه مرات. واستجاب جسمه كله للنعاس فقاومه بهزة متذمرة من رأسه. وعند الظهر خرجت نشمية تودع رجلاً عند الباب. نفس الرجل الذي ضربه ليلة أمس. وشعر بشيء من الارتياح. ولكن الرجل ما لبث حتى عاد بعد نصف ساعة. وغمه ذلك شديداً. وكان يحس بالجوع والتعب والنعاس. وقرر ان يذهب ليتبلغ بلقمة. وأكل طعامه مغمض العينين. وبعد الغداء

لم يكن قادراً على مقاومة النعاس. واشتاق الفراش في بيته في حي الصافن. هناك آمن وأدفأ. وبغصة مسحوقة فكر مع نفسه: انه لن ينام ابداً في تلك الحجرة بعد الآن! لن يرى النخلة القميئة ولن يغتسل قربها، ولن.... ولاحت زوجة ابيه في خياله مطبقة الجذع، منكبة على مخدتها تبكي. بنفس الصورة التي رآها فيها يوم العيد. وهزّ رأسه، واستعجل الذهاب اليها. ماذا تفعل الآن؟ ماذا تقول في قلبها عنه؟ ونازعته نفسه إلى محلته، إلى بيته، إلى صاحب ابو البايسكلات، والشارع العريض، واحمد الجا. ونهض مصمماً على ان يذهب إلى بيته. بيته؟!! أما يزال عنده بيت؟ ومسحت قوة غريبة غراء النعاس من جفنيه. واتجه إلى محلته. ولكنه في نفس الوقت نازعه حنين إلى تماضر. تماضر لم تذهب نهائياً. «هالتعب والمعروف والعذاب يروح بسطره؟» وملأت تماضر تفكيره. وغلبه النعاس فقرر ان يستأجر غرفة في فندق ينام فيها ساعة ثم يذهب إلى الكرادة. وفي المغرب كان قرب بابها. وفي صباح اليوم التالي، وظهره وعصره وعشاءه. وفي اليوم الثالث. بدا كل شيء مريباً ولا يبشر بخير. عجب لماذا لم تخرج الخالة نشمية طوال هذه المدة. ودار في ظنه ان البيت خال. تقدم منه يشم رائحة الحياة. وكان قد ملّ الانتظار، واكتشف سخافة ما يفعل. يقف هناك ساعات دون أن يحظى بشيء. كان الباب موصداً. تسمّع عبر خشبه الاصم فلم تلتقط اذناه شيئاً. وجرب ان يدفعه قليلاً في يده فوجده مقفلاً. وفي يأس الأمل الضائع طرق الباب. كان النهار قد انتصف. ومده ذلك بشيء من الشجاعة على ان يفعل ذلك. سمع خطوات ثقيلة عبر الباب وصوت نشمية:

ـ منو؟

ـ آني

وانتظر لحظات مليئة بالتوتر. وفتح الباب، ورأى الخالة نشمية تسد الطريق، وعلى وجهها تساؤل ساخط:

ـ هم جيت؟

ورآها تلتفت إلى الوراء فأربكته التفاتتها. يعني ما يزال الرجل هناك. قال لها:

ـ نسيت عدكم غراض.

فهزت رأسها:

ـ ياغراض؟
ـ لفه مال هدوم . . أريدها .
نظرت اليه نظرة طويلة وكأنها تفكر بما ستقول له . ثم قالت :
ـ تعال أخذها!
وسارت امامه تاركة اياه يدخل بثقة مريبة . مشى يتعثر وكأن الحوش مملوء بالحفر . ومع أن البيت صامت فارغ فقد أحس بان عيوناً تراقبه ، عينا الرجل . وربما عينا تماضر أيضاً . أحس بها في صعيد واحد من الغرابة والعداء . حتى تماضر اذا كانت موجودة ولا تخرج لاستقباله فهي غريبة عنه .
قالت نشمية وهي تناوله اللفة التي تمزق عنها غلافها . وكان يبدو أنها حلت ثم أعيد شدها ثانية؟
ـ هذا ثوب لتماضر, ليش متخليني أوصله اليها؟
نظر إلى وجهها وقال :
ـ گولي لي وين راحت . . آني أوديه .
ـ ما ادري! . . راحت ، شالت . يابا تريد تبليني ببنت الناس؟ أهلها سمعوا وأخذوها . شافت واحد أحسن منك وراحت . شعليك منها؟ متزوجها؟ مزين بقت وياك هالمده؟
ـ واش سويتلها موزين؟
ـ ما سويتلها . . بس تكـذب عليهـا . . نجـار! . . يانجار عيني أنت؟ . . تقشمرها! معايش على مرة ابوك الخبازة . . مو كل النهار سايب بالدرابين .
اذهله حديثها فوقف امامها مشدوهاً . لا يعرف ماذا يقول . كانت تتحدث بحرارة وصدق . فأحس بذلة لأنه مايزال يظن أن تماضر تنصت اليه . انه لا يستطيع الا ان يحس بها هنا في هذا البيت .
ـ وغراض الحجرة؟ . . الكنتور والچربايه؟
ـ اخذتها وياها . . . مالتك؟ احسبها مهر المتعة . . خمسة اشهر تتمتع بيها وتريد تطلعها هيچي .
فرأت في وجهه تساؤلاً أكثر من الاستنكار فقالت :
ـ متصدگ؟ ـ وتدحرجـت نحو الباب وفتحته . كانت الحجرة فارغة وكأنها لم تسكن من قبل . وقالت نشمية :

ـ صدگت؟

كيف لا يصدق الآن وهذا الخواء امامه؟ لم يبق للاشياء الاّ ظلال ذكرياتها في ذهنه المشوش. هناك شبح سرير، ومرآة كنتور. وتماضر أمامها. مجرد ظلال. وقف يسترجعها ذاهلاً.

ـ يله عاد. . شوف دربك.

هزه صوتها التالف فصرف بصره عن الحجرة وقال بعد أن تبعها خطوتين:

ـ والكمبيالات. . اطيني ياها! ما اخذت فلوسها؟

ـ أهب! ـ قالت بتصميم ـ الكمبيالات اخليها عندي لكل يوم تجي عليّ. . والمحكمة موجودة!

ـ ٣٠ ـ

وهبط المساء عليه وهو يضرب في الشوارع دون هدى. كان يشعر بالتعاسة والمذلة والضياع. ولم يستقر رأيه بعد على ما سيفعله. رأسه قدر يغلي بالصور المحمومة، ورجلاه مثل نابضتين يسيران على حركة سابقة. كان لا يعرف إلى اين يذهب. إلى الفندق مرة أخرى؟ وشمّ في السنك تلك الرائحة التي تغلف الدور الواطئة هناك. رائحة دهن يحترق ممزوجة برائحة نفط. وكان يشم هذه الرائحة في الامسيات الصيفية في محلته. كانت هذه الرائحة لا تتصاعد الا في المساء الصيفي الراكد الهواء. وصار شارع الكيلاني امامه. وعلى بعد عشرين متراً من اليسار مقهى احمد الچايچي، وعلى مسافة مماثلة إلى اليمين مركز العبخانة، وسكلات الخشب، وعنق سوق الصدرية، ومال إلى اليسار، وظهر امامه الشارع الضيق الذي ينتهي بمعمل السيكائر غير الكامل، طولة الحاج احمد آغا سابقاً، وعلى بعد خطوات منها بيته. بيته؟ وهل ظل له بيت؟ انه لا يستطيع ان يتصور أن ذلك البيت «ابو النخلة» والتنور ليس بيته. لا يمكن هذا

ـ رفع ستارة المقهى ودخل.

ـ مرحبه ابو شهاب.

ـ هلا ـ قالها ابو شهاب باقتضاب. وتعجب من ذلك. هل سيقابله كل الناس بهذا الجفاء؟ كان المقهى فارغاً. ورنّت اقداح الزجاج تغسل قرب السماور. واستمر ذلك وقتاً طويلاً. وطال وقوف احمد هناك. وكأنما نسيه. كأنما لم يحفل

به. وقال في نفسه «ظلت على احمد. . . اذا تماضر تركتني!» وشعر بغصة، وانفراد.

ـ ابو شهاب، مخدر چاي جديد؟

ـ هسه على خدره

ـ فد چاي طوخ، الله يرحم ابوك. راسي دايخ.

ولم يرد عليه أحمد بشيء. لا «حلة البركة» ولا ممنون. وأستمر في غسل الاقداح. كانت الصينية مليئة بالاقداح المستعملة. وشعر بالغربة في هذا المقهى، ربما، لأول مرة في حياته. كأن الناس في طريقهم إلى التخلي عنه واحداً بعد الآخر. وكان الصمت يؤذيه لانه يضعه امام كارثة وافكاره المعذبة. حاول ان يستدرج أحمد في الحديث. سأله اسئلة رد عليها أحمد باقتضاب. وضاق ذرع حسين بهذا البرود فصاح:

ـ ابو شهاب هاي اشگد صار لك مغاسل استكانات.

التفت اليه أحمد، وحدجه بنظرة غريبة قبل ان يقول:

ـ هسه الجماعة چانوا عندي كلهم.

ـ ياجماعة؟

ولم يجب أحمد أيضاً. بل أستمر يغسل الاقداح. وكره حسين هذا الصمت القاتم الممزق للاعصاب. حاول ان يحزر الجماعة التي تحدث عنهم أحمد. ولكن فكره المغبش لم يهتد إلى شيء. وأخيراً جاء له أحمد بالشاي. فعاد يسأله:

ـ عليمن تحچي ابو شهاب؟

فنظر اليه أحمد في صرامة:

ـ هاي وين چنت؟ .

وكأنما يعرف اين كان كأنه شهد قصته، وضحك نشمية منه. كان سؤاله استنكارياً محملاً بالعتاب.

ـ وين چنت؟ . . . سايح؟

صمت وأحس حسين بأن الچايچي سيقول شيئاً موجعاً عن قصته، لابد من انه يعرفها. ولمعت عينا أحمد ثم قال:

ـ ليش مجيت للجنازة؟

جمدت عينا حسين وقال في دهشة:

ـ يا جنازة؟
ـ شنو يا جنازة؟ . . . نايم؟
وقفز ذهنه إلى تماضر
ـ أوه الله يخليك لتعذبني . يا جنازة؟
متعرف؟ . . صاحب ابو البايسكلات
ارتج القدح في يدي حسين وصاح وهو يقف :
ـ جنازة صاحب . . صاحب مات؟
ـ مات؟ . . قتلوه
ـ ومن قلته؟
ـ قتله ابن الحولة .
سرى خدر محرق في رقبته، وأعلى ظهره، وتراخت ركبتاه فجلس ثانية على التخت واضعاً القدح المصطك على الحصيرة المهلهلة . وقال كالمخاطب نفسه :
ـ ما معقوله . . صاحب ينقتل؟
ولكن وجه أحمد كان رصيناً وصعباً بالفجيعة . وكيف يهزل بمثل هذه الأمور؟
صاح حسين بالتياع :
ـ واشلون قتله؟
ـ اشلون قتله؟ أول البارحة جا عليه للدكان وطلب منه ينزل له بايسكل . ما قبل صاحب . ﮔام محمود وصعد للدكان يريد ينزل البايسكل بايده . منعه صاحب ودفعه . وتدافعوا . وهذاك جر السچينه وضربه .
ـ وما چان أحد يمه؟
ـ چان مرهون ابو قنبورة . . رجل دجاجة ميحل .
ـ ومحمود؟ لزموه؟
ـ من لزمه؟ . . انهزم، وراح يغيب شهر ويطلع يطبّر الناس . . هاي . ولاية فرهود .
قال حسين وهو يهز رأسه وكأنه ينفض عنه بقايا حلم مزعج .
ـ ما صدﮔ . . ما دا يخش بعقلي .
ـ متصدﮔ؟ . . روح شوفه بالمنطقه دفناه الظهر بصف ابنه . . متصدﮔ؟ روح شوف دكانه . . ما ادري غسلوا الدم من عتبته لو لا .

كان الدم في داخله يفور. واحس بالعبرة تتجمع في صدره وتبدأ تهز حنكه. اطرق برأسه إلى الأرض، ولكنه لم يرها، ارض المقهى السوداء، بل كان يرى ذلك الشارع الطويل لمحلته. . . الشارع الذي يقع حمام السيد رؤوف في أوله من جانب شارع الرشيد، ثم الأرض الخربة المسورة، وبعدها دكان صاحب ابو البايسكلات، المرتفع عن ارض الشارع، وصاحب يعالج شيئاً قرب الدزكاه، وفي فمه سيكارة، وهو جالس على سرج في باب الدكان يراقب امتداد الشارع حتى السرسيفة. هناك الطولة، و«بيته»، والخان، وبيت علوان ابو الجص، ثم دكان حسين العطار، ومياه السرسيفة المنتهية إلى سوق الصدرية. اشياء لا يمكن ان تكون الا هي، وبنفس الترتيب.

نهض ودفع ثمن الشاي وانطلق دون أن يفوه بكلمة، وكأنما يريد ان يحتفظ بنظام الصور المرتسمة في ذهنه. كأنه لم يصدق بعد بما سمعه. هذا هو حمام سيد رؤوف يفوح برائحة بخار دافىء. وبعد العطفة الصغيرة انداح له الشارع العريض، وخفق قلبه وكأنه قادم من سفر طويل. وبعد قليل سيرى الدكان. . . ورآه. . . وكان مغلقاً. تقدم من الدرقة الحديدية وتلمسها وكأنما يكذب عينيه. كأن كل ذلك خداع بصر. تلوثت يده بدهن أسود. فنظر اليها. وكان على الأرض بقعة سوداء ملقى على العتبة قرب قدمه. هذا دمه. لم يغسل بعد. نظر اليه فلاح مثل قطعة ثياب تركها مسافر على عجل. أحس به سميكاً حتى ليستطيع ان ينحني ويلتقطه. وتملكه شعور بالمرارة وكأنما جاء ليسترجي عزيزاً فرآه قد رحل. تأخر عن ذلك دقائق معدودات. كان يحس دائماً بان في قلب صاحب شيئاً ضده كان يحس بذلك في النظرة الصامتة الطويلة كلما استل شيئاً من فلوسه عنده، وكلما ذكر انه يريد بيع الدار، وأنه يريد ان يعيش يومه فقط، ولا يهمه ما يضمر له المستقبل. . كان يحس بالسيكارة ترتجف بين شفتيه، وبقطرات صغيرة من العرق تلتمع على جبهته العريضة. وفي كل يوم كان ينوي ان يصالحه، ينفّس هذا الذي تراكم في قلبه عليه. ولكنه كان مشغولاً بتماضر، وبطلبات تماضر، وبنشوة لقاء جديد، فكان يؤجل تلك اللحظة التي يقول فيها «سامحني! . . اخاف انت زعلان مني؟» وسيجري عتاب، وتراجع واعتذار. وكل ذلك يحتاج إلى وقت وخلو بال. وكلاهما لم يكونا لهكان كل تفكيره محصوراً في تلك الحجرة الطويلة في الكرادة التي تجمع الدفء والاسترخاء والحلم. والآن يأتي بعد فوات الاوان حيث لا جدوى لتفكير،

ولا مجال لمصالحة. يأتي مثلجاً متعباً مطارداً بكابوس مزعج. ولكن ماذا سيقول له الآن اذا رآه؟ ما دام كل شيء قد ضاع. الحوش وتماضر؟ ماذا سيقول له «چنت مستگعد وحده وعافتني؟ وعلى مودها بعت الحوش؟ چنت طايش ماشوف دربي؟» ووجد كل ذلك مخجلاً ولا يغسل ما في القلب. فترك الدكان وهو يقول «ماكو فايده، ماكو فايده». وفجأة احس بوقع اقدام خلفه. سمعها فجأة ثقيلة وقريبة. وكأنها خرجت من الدكان. وخيل اليه انها خطوات صاحب حقاً. صاحب غادر الدكان ليلحق به. واذا التفت سيراه على بعد خطوات منه، وسيقول له «حسين.. هاي ليش مستعجل، وين رايح للبيت.. أوكَف.. أوكَف» ولكنه اسرع في خطاه وأبتعد. وعندما وصل إلى بيته اخرج المفتاح بشكل لا ارادي، وتلمس ثقب الباب باصابع مرتعشة. ورنّ القفل في الصمت. ودخل البيت يتلمس طريقه في الظلمة، منتظراً أن يرى الفانوس في ليوان زوجة ابيه، ولكن! هنا أيضاً لا حياة.. لا نور! ونادى «يمه!» وانتظر ان يسمع الجواب. ونادى «يمه!.. يوم!..» وكانت كلماته تتردد في الخواء. وجمد في مكانه. لماذا لا تجيب؟. وتلمس جيبه يبحث عن علبة كبريت كان يحملها احياناً معه. ولم يجدها، وادار عقبيه واتجه نحو الباب. وهو يصيح بصوت طفل يخاف الظلمة «يوم.. يوم.. يوم».

وفي الشارع استرد انفاسه وشتم في حنق. وبدا وكأنه هو الآخر واقع في مأزق. بدأت الاشياء تتحرك من ترتيبها السابق. واتجه نحو الخان. كان لا يعرف كم الساعة. ولكنه كان يعرف انه سيجد شخصاً مستيقظاً هناك حتماً. ودق الباب. وبعد قليل سمع صوتاً نسائياً يسأل «منو؟» أجاب «آني.. آني حسين.. عدكم شخاطه» ودمدمت اقدام خلف الباب، ولاح ضوء شاحب من خلال الخصاص. وفتح الباب، وظهرت خيرية تحمل فانوساً.

ـ عندج شخاطه.. أشو مرة أبويه تبين ماكو..

أهت زوجة الفراش وقالت:

ـ أها!.. مو شالت البارحة!

وبدا وكأنه يتوقع كل شيء الا هذا.

ـ شالت؟.. وين؟

ـ ويه رجلها بحاج فتحي.. اهل المعمل مستعجلين عالحوش.

أدار رأسه باتجاه السرسيفة وكأنه يداري شعوراً معيباً. كان يقضم باسنانه

باطن شفته السفلى ووجهه يختلج. وبعد قليل قال لها:
- زين..
وانصرف.

- ٣١ -

كانت حجرته في الفندق تحتوي على اربعة أسرة، وتطل على شارع الرشيد، ودرب موبوء يظل ساهراً حتى منتصف الليل. وقبل ليلتين كان السرير الرابع فارغاً. وفي الليلة البارحة انزلوا به مسلولاً من أهل طويريج يتشبث للدخول إلى مستشفى الحميات ظل طوال الليل يسعل بوحشية، ومن صدر مثل زجاجة مصدوعة. وفي اليوم التالي هرب النزيلان الآخران الى حجرة ثانية خوفاً من العدوى. ولم يكن له مزاج او وقت ليتحدث إلى صاحب الفندق لينقله. وفي هذه الليلة جاء تعبا. ورأى المسلول سهران يسعل، ويبصق في علبة فارغة للسيكائر ملئت إلى نصفها بالرماد.

سأله حسين:

- اش وكت راح تخش للمستشفى؟

قال المريض بصوت هادىء:

- تطول الحسبه. الدكتور يگول لازم تداوه عندي شويه، وبعدين أخششك... بالمستشفى يذبوك ومحد يداريك.. المستشفيات كلها ما بيها الا اليود.. وهو يطيني ابر من يضربه أحس بحرارة من رأسي.. ومن نا (وأشار إلى عجيزته!)

ورغم أنه كان يلهث، وكان واضحاً ان الكلام يتعبه الا أنه مضى يسرد قصة حياته في أنين مطعون متحسراً على شبابه الضائع. ولما فرغ وضع حسين رأسه على المخدة وقال في سره «يتحسر على شبابه! شيفيد الشباب اذا يضيع منك كل شيء؟.. تصبّح من الصبح ومتعرف وين تروح؟!»

وادار ظهره للسعال. كان يشعر بالتعب هو الآخر، وبحاجة شديدة إلى النوم. اغمض عينيه وأرخى جسمه، وحاول ان يطرد الصور المرتعشة التي كانت تمر في ذهنه غير مدعوة.. صور أحمد وصاحب وخيرية ونشمية وتماضر. كانت تمر في ذهنه خطفاً مهزوزة عجولة.. طابور من الصور السريعة تتوهج الحمى في

رأسه من احتكاكها وسرعتها. ثم سمع، وهو شبه نائم، سعال المسلول وراء ظهره مخشوشباً مثل صوت فأس تنزل على خشبة جافة، وارتعشت الصور أكثر، واختلط السعال بالصور، وأبتلعتها حتى لم يعد يرى في خلفية ذهنه غير خشبة وفأس تمسك بها يد ثقيلة، وتهبط بها في ضربات عنيفة لجوجة متوالية. وتركز ذهنه كله في تلك الضربات. وراقب الفأس تهبط معها منفعلاً معها يكاد يحرك جسمه على ايقاعها، وانتظر ان تنشق الخشبة، وينتهي الصوت. وضربات. ضربات. ضربات. ضربات. وتحول الفأس إلى نصل فقط. ضربات. ضربات. ضربات. وتحول النصل إلى سكين، ورأى صاحباً تحت تلك السكين. وهب فزعاً، وفتح عينيه ومن ضوء الشارع رأى المسلول جالساً على سريره.

ذهب حسين ليشرب ماء، ولما عاد قال المسلول:

ـ ما أكدر انام.. من أنام يضيق نفسي.

كان هواء الغرفة ثقيلاً. وذهب حسين يفتح الشباك. الا أن المسلول صاح في ذعر «لا، يامعـود! هسه أنزكم!» وسعل. وفكر حسين انه لن ينام هذا الليل، فترك الحجرة. وعبر دهليزاً مظلماً إلى شرفة صغيرة تطل على الزقاق المشبوه. كان الليل يقترب من منتصفه. ولكن بيوت الزقاق ماتزال مفتوحة الابواب، والناس مثل اشباح ليلية يدخلون ويخرجون. راقبهم حسين يذوبون في ظلام مجازات البيوت، ثم يترنحون متحاشين الضوء. يدخلون في همة ويخرجون في خمول. يسيرون بمحاذاة الجدران متهامسين منهين تهامسهم بضحكات. ورأى حسين رجلاً طويلاً يدخل بيتاً منخفضاً، أو هكذا لاح له من هنا. وقال حسين لنفسه «يمكن هذا ابن الحـولة! كل شيء يصير. من يلزمه؟»واعتمل في داخله حنق «محد يكدر عليه. يطبر النـاس ومحد يكَدر عليه. صاحب يموت ويروح دمه هدر.. صاحب الوردة.. صاحب اللي چان يريد يكَعـدني بمدرسة الصنايع.. صاحب مثل ابويه» وتذكر تلك الجملة التي قيلت له في مقهى الـطرف «حتى على ابوك ما طالع!» وخرج الطويل من البيت المشبوه، وضحك ضحكة هزيلة رخوة، وفاه بشتائم بذيئة. وتذكر حسين ضحكته هناك، في مقهى الطرف، والعيون كلها شواخص اليه. ضحك منه، وشتم، والزمه على الخروج. وضرب حسين خشبة الدرابزين في غيظ، وعاد يقول في تمن عاجز «محد يكَدر له؟.. يراد له واحد بايع ومخلص» وذهب إلى حجرته.

رأى المسلول قد وضع حقيبته على رأس السرير كالمتكأ والمخدة فوقها. فكانت مرتفعة. وقال لحسين «هيچي أروح. .» وكان منظر المسلول يوحي بالسأم والقرف من الدنيا. واضطجع، وحاول ان ينام. ومرة أخرى حلم من خلال انفاس المسلول المصوتة. رأى وجه صاحب الملتحي جهماً. ولاح سكين في الظلمة وساقان ممدودتان عبر المقهى. ولاح أحمد وصاحب وكأنهما توءمان. وكان العراك في المقهى. وأرتفع السكين وهبط. واستيقظ. كان المسلول يشخر شخيراً مغيظاً كالسعال، وهم ان يوقظه، ثم أشفق عليه. وقال لنفسه «خليه ينام! آني سهران سهران! . . . سهران ويه صاحب. . ماكو واحد ينتقم له؟» واستوفزت كل حواسه وفلتت منه «آني أنتقم» وجعل يفكر فيها ثم قال في تسويغ «غير يراد له واحد بايع ومخلص؟ . . وآني شنو؟ اش عندي بعد أهتم بيه؟ . . بالعكس الناس تگوم تحترمني وتخاف مني. . الدوره أعيش سلطان. چم واحد البغداد يعيش بالخاده؟ وچم واحد السچينه توكله لگمته وأكثر؟ والدنيا تايهه. . والا چم واحد قتل محمود؟ صابر وصاحب، وناس كثيرين. . . . . وآني أجي على نشمية بالليل. . . لچ أم اللي لا صلى ولا صام. . طلعي تماضر وين ضامتها؟ لچ تماضر. . وين چنت؟ هي كلكم غنم! . . يراد لهم واحد هيچي. الدنيا ميراد له خوش آدمي. . . مچان صاحب خوش آدمي؟ راح. . راح. . . راح وممشيت بجنازته. . راح وآني ملتهي. . مخنث آني. . صدگ مخنث. . لعد مو مخنث؟ أخلي عجوزه تلعب عليّ. . . سطرتين وانهزم؟ ويمكن كلها من جوه ايديها. يمكن تماضر متعرف اشصار. . مسكينة تماضر. وين هسه؟ بيا حضن دهورتها نشمية؟ . .» وقطع السعال سيل تفكيره. وفتح عينيه، ورفع رأسه.

بدأ الفجر يتسلل من خلال النافذة العارية. فجر مغبر عكر. وخرخش محرك سيارة في الأسفل. وبعد ساعة كان حسين في الشارع. كانت الحوانيت مغلقة، واغلب السيارات عسكرية انكليزية. وكانت آثار الليلة البارحة وأقذارها ممددة على ابواب السينما، والحوانيت اعقاب سيكائر، وعلب سيكائر فارغة، وورق من مختلف الانواع. وسيول سوداء من الماء تنحدر من بعض الدكاكين. وعند عقد النصارى رأى كناساً يثير عاصفة من الغبار. ووصل إلى مقهى أحمد الچايچي. كان أحمد يفتح الباب. ولما سلّم قال له:

ـ ها. . أشو مغبش. .

ـ الليل كله منمت.

ـ الويش؟

ـ افكر بصاحب. هالوردة يروح دمه هدر؟

ـ راح شيفيد بعد؟

ـ وهيچي محد يگدر له لابن الحولة؟

نظر اليه أحمد وكأن هذه الكلمات أكبر من أن تخرج من فم حسين، كأنما يقول له «اشو مگدرت له لمّا طلعك من الگهوه؟» ومر السؤال بلا جواب. وانشغل أحمد بفتح الباب.

صدمت حسين رائحة المقهى العفنة... انفاس عتيقة اغلق عليها الباب. وأشعل أحمد خشبات في الطريق وراء الستارة المرفوعة، وبعد أن احترقت وضع جمرات منها في سماور كبير. وتركه في الشارع وجلس قبالة حسين فقال له حسين:

ـ احچي لي داد... اشلون ضربه؟

ـ گلت لك بسچينه.. تطبر على رگبته وظهره، وتعرف صاحب اشلون ضعيف.

ـ اعرف. كله عظام.

ـ بس سبع. جلّب بيه من يا خته. وراد ياخذ منه السچينه، وادافعوه. ومكدر يخلص منه ابن الحولة الا بعد ان ضربه على ايده.. ووگع صاحب على عتبة الدكان، وذبح الوگعه.

ـ سبع! واشلون يموت؟.. مره شفته يوگف بصدره گبال ابن الحولة. ويرد له الزين بزينين... مچنت اعرف يسويها.

ـ ابن الحولة كل شي يسوي.

ـ والويش كلشي يسوي؟..

ـ اذا ايده والسچينه.

ـ واللي عند سچينه كل شي يسوي؟

ـ ليش ميسوي؟ اذا يعرف حكومة ماكو. ابن الحولة مخنث لو ما السچينه. والسچينه ميراد لها استاد.. شيل ايدك وأضرب.

بدأ الفحم يفرقع في السماور خارج المقهى، ويرسل شرارات مضيئة مثل مصابيح كهربائية صغيرة. وخرج أحمد يداري الفحم. وخلا إلى نفسه. بالأمس

حلم بصاحب في هذا المقهى، وبساقين ممدتين على عرض المقهى الضيق، نفس الجلسة التي كان يتخذها ابن الحولة عندما كال له الاساءات. وكان عاجزاً عن رده. كان مثل طفل صغير لا حول له، وخرج مشيعاً بضحكة احتقار. ماذا سيقول أحمد له لو باح له بما فكر به؟ ولملم ساقه ليفوت أحمد حاملاً السماور. وبدأ أحمد يعد الشاي. وشعر حسين بضيق مفاجىء، ونهض.

ـ ابو شهاب في أمان الله.

ـ هاوين. . . بعد خمس دقائق يخدر الچاي.

ـ لا، اريد أروح، وجاي لك. وكانت الشمس قد طلعت، وسار في شارع الكيلاني ثم انعطف يساراً إلى حيه، ملتفاً حول العرصة المسورة. وقابله مرة أخرى الدكان المغلق وعلى عتبته بركة دم متخثرة مسودة، تلك التي رآها في الليلة البارحة مثل قطعة ثياب. عندما كان يمر من هنا، قبل ايام فقط، كان يسلم ويقف، ثم يذهب ويقول «راح ادور على شغل» أو «بالله ابو مهدي متطيني فد ربع دينار؟» والآن لا شيء غير درقة حديدية صماء مسدلة وقف يتأمل حوافيها الملطخة بالنفط الأسود. كل الشارع العريض يعرف ذلك الصوت الذي ترسله هذه الدرقة الحديدية. وفي الصباح كان يسمعها وهو في حجرته أو في السطح. والآن نزلت وستمر صباحات كثيرة ولا ترتفع، ولا يسمع الناس صوتها.

مرّ اطفال أمامه كانوا يتحدثون باصوات خفيضة كأصوات الكبار. نظر اليهم حسين وعرفهم. زبائن مزمنون لصاحب. كانوا يأتون اليه وبيدهم عشرة أو عشرون فلساً ليستأجروا دراجات وضعت خصيصاً لخدمتهم، دراجات هوائية مستهلكة كانوا يمتطونها بفرح ولغط، وكان صاحب ينظر اليهم ويهز رأسه في حنان، وكأنما يستلذ بفرحهم. والآن مروا على الدكان المغلق يتحدثون باصوات خفيضة، وكانما ذلك اكراماً لذكراه.

سار حسين في الشارع إلى بيته، وفتح الباب ودخل. قابلته النخلة القميئة مهدلة السعفات. كانت وحدها وسط حوش فارغ خاو. واستدار إلى ليوان زوجة ابيه كان الدولاب الخشبي مرفوعاً، الجرار الفخارية القديمة، والمشربة والطشت، والاواني البيتية النحاسية. كان الليوان قطعة أرض مبنية لا حياة فيها. ودخل الحجرة واذهله عريها. جدران مضلعة مهشمة الحجارة. ولأول مرة عرف ان الغرفة مبلطة ببلاطات قديمة تراكم عليها التراب وطمرها. ولا شيء من الماضي. حتى

رائحة الانفاس التي كان يشمها كلما دخل الغرفة. زالت وحلت محلها رطوبة عفنة خدشت صدره. وفجأة خيل اليه أن يداً تهم بأن تمسكه من خلف، يد ظالمة كتلك التي لطمته في بيت نشمية، والتفت مرتعباً. وكان الفراغ أثقل من ان يستوعبه عقله فكان يتخيل احداً يتربص به، هنا، في الحوش، في المنعطف. كان يصاحبه اينما ذهب، وستمر لحظة ويفاجئه بضربة، بطعنه، بصرخة تجمد اوصاله. فكان دائماً يلتفت. التفت فرأى حجرة مصطفى مفتوحة. فارغة. والتفت فرأى جدار المعمل الاصفر الصلد يطل عليه في تحد. والتفت ورأى ليوانه وباب حجرته، والتفت وقابلته النخلة القميئة مرة أخرى. كان حوضها قد جف وتيبس الطين الاسود وتكسر. هنا كان يغتسل ويذهب اليها. ومن هنا كانت سهرته تبدأ. وكان يقول لها انه قادم من عمل. وبصق، والتفت في ضيق، ورأى التنور. كانت تقف هناك سوداء طويلة. وكانت العباءة هنا قرب البالوعة. وكانت رائحة الخبز تلهب الشهية، وتوحي بالاطمئنان. والآن كان التنور مهجوراً مثلّم الفوهة، وكان بعض رماده المحبب بالسواد يخرج من فتحته السفلى مثل احشاء حيوان فاطس. كل هذه الاشياء أصبحت بلا قيمة له، ولا يرتبط معها بسبب. وألتفت ورأى المكان الذي كانت زوجة ابيه تفرش حصيرتها فيه في الصيف. وكأنه يراها الآن هنا، مسندة ظهرها على الحائط، ممدة ساقيها من تعب. كانت كلما تنتهي من الخبز في كل مساء تسترخي هنا، وترسل تنهدة. وشعر بموجة واهنة من العطف نحوها. قال في نفسه: مسكينة كانت تتعب كثيراً، وتقف وراء التنور ساعات، وفي الليل تستيقظ مرات. كانت تلهث لتطعمه. وكان هو لا يتعب ولا يشقى مثل شقائها.. مسكينة قالها لأول مرة في حياته. وسأل نفسه: لماذا لم ير كل ذلك من قبل؟ لماذا فعل هكذا؟ والتفت. وقابله ليوانها. ولم يحتمل تحديقة ليوانها الفارغ. وألتفت ورأى الباب، فاندفع نحوها.

رأى خيرية زوجة الفراش على باب الخان:

ـ وين نازله مرة ابويه؟

ـ ويه رجلها بحاج فتحي.. متندل وين چان نازل مصطفى قبل ميتزوج؟

قال في ضيق من كلماتها الممطوطة:

ـ اش مدريني.

ـ بصف ابو الكبة... عيني شفت اشلون شفت اشلون كتلوا صاحب؟

ـ شفت.

وتـركها متجهاً إلى الحاج فتحي. وسأل امرأة كانت تقعد على تختة على قارعة الطريق قرب بيت ابو الكبة.

ـ سليمة النزل الجديد هنا؟ وأوجعته هذه الكلمات.

ـ اي، عيني، سليمة الخبازة.. هاي انت ابن رجلها؟

ـ لا، واحد ثاني.

ـ نزول على ابن رجلها.. هجولها ها لتهجول.. لچ نورية صيحي على خالة سليمة.

وبعد انتظار ممل خرجت اليه. فلما رآها بطولها وثوبها الاسود السابق أحس بجفاف في حلقه.

بادرته قائلة:

ـ اشو جاي؟ فلوسك عند اهل المعمل، وغراضك كلها موجودة بالحجرة.

ـ ما جاي على الفلوس وعلى الغراض

ـ على ويش جاي لعد؟

ـ وهيچي تخليني واكَف بباب الحوش.

ـ وهذا حوشي حتى اخششك بيه والبنات بليه عبايه؟.. لو تريد تشوف بيا خم گاعدة؟.. تعال!

والتفت واستأذنت من النساء، وقادته عبر مجاز منحدر إلى غرفة سوداء الباب تطل على حوش مظلم صغير. ورأى في الغـرفة كل اثاثها القديم. وجلس على الصنـدوق الأسود الذي تضع فيه ملابسها. وصمت مطرق الرأس لا يعرف ماذا يقول. وجلست هي على السرير تنتظر أن يبدأ حديثه.

ـ ليش طلعت كَبل ما أجي؟

ـ أهل المعمل يريدوه.. وشكو بعد ضاله؟

ـ يعني انباع نهائي؟

ـ لعد شظلٍ بعد؟ قبضنا الفلوس وفلوسك عدهم.

صمت قليلاً ثم قال:

ـ آني ما راح استلمها. ماريدها.. ارجعي للحوش.

ـ ارجع؟! وأكو واحد يرجعنه بعد والحوش انباع؟

ـ بعده مانباع . . آني ماستلمت فلوس ولا وقعت .
ـ استلمت عربون
ـ ارجع لهم العربون . . بس ارجعي . . والحوش مالج
ـ مالي؟ . . من چان مالي مچنت تگول مالي . . چنت يوميه تعيرني وتعذبني .
ـ التوبه ، بعد ما عذبيچ . . ما راح اگعد وياچ . .
ـ وليش آني افرح اذا متگعـد وياي؟ چنت حرمه وأگول هسه يكبر ويصير ابو البيت .
ولزم الصمت لا يعرف ماذا يقول ثم قال في لهجة حنون :
ـ أرجعي . . . من أجل خاطر ابويه . هالايام هوايه دا أحلم بيه .
وانفجرت باكية ، هذا البكاء المر الذي يغسل كل ضغينة من قلبها . قال وهو يتقدم نحوها :
ـ لا تبچين ، والنـاس تسمـع . . اسكتي ـ وطوقها بذراعه ولثم فوطتها ـ ما عندي أحد بالدنيا بعد غيرچ .
وجلس على السرير وراءها .
قالت وهي تشرب دمعها :
ـ وين چان عندك غيري؟
ـ چانوا . . صاحب وناس غيره .
وتملكتها نوبة جديدة من البكاء . وكأنها تألمت من ان يكون له آخرون ، كأن شيئاً من الغيرة دب في صدرها . وصمت وراءها ساكتاً يفكر باشياء كثيرة ، وتحول بكاءها إلى نشيج ، ثم نشيق ، ثم انفاس مخربشة .
قال لها وهو ينهض من السرير:
ـ راح أروح لاهل المعمل . . وين عنوانهم؟
ـ والويش عيني؟
ـ ما بيع . . بطلت . .
صاحت نائحة :
ـ شيفيد وأحنا مضينه واستلمنا الفلوس؟
وعادت إلى بكائها الموحش .

لم يذهب حسين ليستلم حصته من اصحاب المعمل الجديد. زهد فيها وتركها مثل خيط أمل بعودة حياته الماضية. الآن اصبح كالهائم. كان له وقت طويل وفراغ قاتل. في الايام الاولى أحس بأن جميع الناس سيسألونه عن بيع الدار اذا استرسل معهم في الحديث. فكان يتجنبهم، ولا يجلس في مجلس واحد الا قليلاً كان يجوب الشوارع والأزقة ودور السينما والمقاهي، وأماكن لم يطرقها من قبل، باحثاً عن شيء غير محدد. ربما هو تماضر. وربما هو محمود بن الحولة. بل ربما هو صاحب، فقد كان ما يزال غير مصدق بموته. كان يتخيل بعد كل جولة يدور فيها رأسه، وترتخي قدماه من التعب انه سيعود إلى محلته، ويجده هناك. بل سيجد بيته وزوجة ابيه تخيط ثوبها البنفسجي. كانت صور الماضي تترامى على ذهنه وتلح عليه فلا يتخيل الا ما رآه في الماضي، بل ويشم روائح الماضي، رائحة خبز طازج، رائحة دهن يحترق، رائحة جواميس، ورائحة نفتالين. وحتى الروائح الجديدة التي كان يشمها في أماكن لم تطأها قدماه من قبل، رائحة شمها في مصبغة للثياب، رائحة جلود عفنة، ودماء متحللة شمها في المجرزة في باب الشيخ، رائحة صبغ السيارات شمها لأول مرة في حياته. . . حتى هذه الروائح تخيل أنه شمها من قبل. وحتى الاشخاص الجدد الذين يلتقي بهم مصادفة في تجوله، والحوادث التي تقع عليها عيناه، وكأن الماضي يعيد له نفسه، وكأن حياته الماضية تتكرر على نحو مغلق بحيث لا يستطيع ان يشترك فيها فيكتفي بمراقبتها. ومن يدري! قد تمر تماضر به ولا يستطيع ان يكلمها، قد يرى صاحباً ذاهباً إلى حسقيل الياهو في سوق الشورجة يسلم له الكمبيالات فلا يستطيع ان يرفع صوته بالتحية له ويقول «ابو مهدي وين رايح؟»

وبعد كل جولة كان يعود إلى مقهى الطرف ليغسل تعبه بقدح من الشاي.

وذات مرة قال له أحمد الچايچي:

ـ البارحة شافوا ابن الحولة!

ـ وين؟

ـ بميخانه ويسكر. . . هاي هي! ودم صاحب بعده حار.

ـ بيا ميخانه شافوه؟

ـ بشارع الصياغ. يگولون ليليه بميخانه

وفي الوهلة الأولى ظن أنه يتخيل أيضاً. تخيّل انه سمع هذا القول من أحمد ذات مرة من قبل. نظر إلى أحمد بعينين دهشتين مجلقتين. فقال له أحمد:

ـ هم متصدگ؟ عاد شيفلها وياك؟ گمت متصدك بكل شي.

ـ لا، اصدگ

قال ذلك كمن يوقظ من نومه فيقول لمن ايقظه والنوم ما يزال عالقاً في اجفانه «لا، آني مو نايم!».

وطلب شاياً آخر. وفي تلك المرة تحدث كثيراً يثبت انه لا يحلم. وذهب إلى صديق له في سيد سلطان علي.

ـ كريم متگدر تشوف لي سچينه ام اليايي؟

ـ شلك بيها؟

ـ كل شي يصير وآني گاعد بفندق، واجي نصف الليل والدنيا ظلمة.

ـ اشگد تدفع؟

ـ بيش متكون.. بس تكون زينه.

وتركه كريم. وعاد بعد نصف ساعة وأشار اليه بان يدخل الدكان فقال له حسين:

ـ ممن خايف؟ أكو ناس د يقتلون ومدا يخافون.

ـ هذولاكه غير ناس.

وفي داخل الدكان اخرج كريم سكينة مقبضها أحمر، ودفع شيئاً بابهامه فانطلق نصلها ناصعاً لامعاً مدبباً. وقلبها في كفه العريضة الخشنة وقال:

هاي من كيفها تگص... ميراد لها قوة وشطارة.

وتناولها حسين. كانت خفيفة على يده وأنيقة وتملأ الكف. واهمل اقتراح كريم بان يمرر اصبعه على حدها، وأطبقها. وسأل:

ـ بيش؟

دينار والجزاء مالها.

أضحكه كريم فقال:

ـ هاك نص دينار ولا تگول لاحد.

تناول كريم الورقة الحمراء وقال باسماً:

ـ حسين أخاف وراك نيه؟

شجعته السكين على ان يرد:

ـ انچب لك! . . . يا نيه عندي؟

تلمسها طوال الطريق إلى المقهى، وقلّبها في جيبه. ولما وصل إلى المقهى غيّر فكره. ولم يرض بالجلوس في المقهى الخانق. خامرته نفس الرغبة التي كانت تخامره في طفولته كلما لبس شيئاً جديداً، أن يدور ويدور، ويفرج الناس على ملابسه الجديدة. واسكره هذا الاحساس اكثر، مثل طفل اكتشف فجأة أنه أصبح رجلاً. لا شيء يقف في طريقه الآن مثل أي بطل من ابطال السينما. . فلاش غوردن. . عنتر والي. . چابك والي. . . ابن الصحراء. وطاف على السينمات وشق في تحد مجموعة من طلاب المدارس كانت تتكوم أمام صور فيلم «جهنمي» في سينما الرشيد. أخترقها ووقف امام الواجهة الزجاجية تماماً. . هي. . كلكم غنم! أكو واحد يحچي ويايه؟ قالها في سره دون ان يسمعه احد. وحاول ان يتحرش بشابين فأحجم، واجتاز مجاز خانة فرجع. ووقف عند بائع حب وأراد أن يهمش حفنة فرق للبائع وقال «عمي اطيني باربع فلوس حب شجر» وكان يدخل السينمات من الموقع الثالث «ابو خمسة وعشرين» وعندما تنطفىء الاضواء يحاول أن يكون أول من يعبر الحاجز الخشبي إلى الموقع الثاني، وآخر من يغادر السينما بعد نداءات ملحة من رجال غلاظ لو لم يكن السكين معه لأمسكوه من ياقته، والقوه خارج السينما. بل كان يتظاهر بالنوم ما ان يعرف أن الفيلم على وشك ان ينتهي ولا يفتح عينيه الا اذا سمع نداءات متكررة تدعوه إلى الخروج عند ذاك كان يسير متمهلاً متلفتاً ثقيلاً.

ولكن العجيب انه تحاشى الذهاب إلى محلته. كان يطوف حولها ولا يقربها. وكان يذهب إلى مقهى الطرف احياناً.

ذات مرة رفع الستارة شخص، ودخل مستعجلاً وقال مبهور الانفاس:

ـ هسه شفت ابن الحولة ديسكر بالاوتيل اللي على الشريعة.

فسأل حسين:

ـ يا اوتيل؟

ـ اوتيل الامراء اللي كَبال سينما الزوراء من صفحة الشط.

وطلب حسين شاياً يبلل فمه الجاف. وشرب الشاي بجرعة طويلة مثلما فعل

ابن الحولة في تلك المرة. ثم نهض وانسل من المقهى.

وخاطب نفسه في تردد «أسويها؟......» وكان جانب المغامرة أكبر من جانب الانتقام. كانت مشيته مختالة. وكان يحس ضغط السكين على بطنه، الضغط الحديدي البارد الداعي إلى مغامرة. وجاء العصر ببرودته، وغيومه الرمادية. وسار حسين نحو الفندق كالمسحور بقوة خفية. وعبر الجادة ركضاً. ثم سار بين الاعمدة الكونكريتية الكالحة متخطياً بائع الحلويات المشهور.. وأحس بمرارة فعاد اليه واشترى مصقولاً، وعبأ فمه بثلاثة مرة واحدة. وكان يحاول ان يحتفظ بمشيته الجديدة: ذراع واحدة تتحرك مجنحة، وذراع أخرى مسبلة على جنبه. هكذا يمشي الشقاة. وكان يعتقد من قبل ان الذراع مسبلة لأن عضلاتها منتفخة متينة وصلدة كالحديد. وتحسس عضلة ذراعه المسبلة. ما زالت العضلة رخوة. ولكنها ستنتفخ حتماً وعن قريب.

انعطف إلى اليسار مقابل سينما الزوراء تماماً، وسار في الزقاق القصير المترب المؤدي إلى النهر. كم سار في هذا الزقاق من قبل وتنسم هواء النهر المنعش! وكم مرة عاد فيها خفيفاً وقلبه يخفق للقاء تماضر، وشمتها الحلوة. وتنحى ليمر حمال حطب. أثار الحمال غباراً شم رائحته ولم يره. ولكنه أحس بحرقته في عينيه. أغمض عينيه لحظة ولما فتحها كانت القطعة أمامه: «اوتيل الامراء». وعبر العتبة، واجتاز المجاز القصير المظلم، ووقف في عنق حوش مبلط نظيف. وتحيّر إلى اين يتجه. كان الحوش يلوح فارغاً. وتلفت فيه مطلاً في الغرف المفتوحة الابواب. موائد خالية ولا ناس. وحمحم. وانتظر ليسمع جواب حمحمته. ولكنه سمع قلبه يخفق في صدره. وظن أنه أخطأ الفندق. وهمّ بالرجوع حين سمع صوتاً هزّ كيانه كله «تفضل عمي!» ورفع رأسه إلى فوق. كان أحد السقاة يضع يديه على درابزين الطابق الثاني ويشير إلى درج لم يلحظه حسين من قبل «تفضل عمي، الدرج يمك». وشجعته عمي الاحترامية فصعد الدرج وثباً. ووجد الساقي في عنق الدرج. وقال مقطع الانفاس قليلاً:

ـ عبالي معزلين.

ـ لا، عمي.. شيعزلنه؟ من الساعة عشره نفتح.

كان في الطابق الثاني غرفتان عامرتان بالموائد. ولمح في الغرفة القصيرة جماعة تتحلق حول مائدة. وقال الساقي:

ـ وحدك عمي؟
ـ هسه وحدي .
ودعاه إلى الجلوس في الغرفة الفارغة اختار حسين مائدة تطل على الفناء، ومنها يمكن أن يرى الجماعة التي لم يتبين من هم افرادها .
كان الساقي واقفاً بالقرب من مائدته :
ـ شتحب أجيب لك عمي؟
ـ اش عدكم؟
ـ كل شي عدنه . . . مشروبات وطنية واجنبية
ـ وبعد؟
ـ وأكل نسوي .
فكر حسين قليلاً ثم قال :
ـ جيب لي بيك عرق .
ـ بيك عرك عمي؟ وكان يحدق باندهاش ممتعض .
ـ وبعدين نتفاهم . وقابل النظرة المندهشة بنظرة حادة .
ـ على كيفك عمي . ما دام بعدين نتفاهم .
وذهب الساقي ليجلب المشروب . وعدّل حسين من وضع السكين في حزامه ـ اخيراً قرر ان يضعها في حزامه بعد أن نقلها بين الحزام والجيب عشرين مرة ـ ونظر إلى هناك . كانت الغرفة الاخرى تبدو مظلمة فلم يستطع التعرف على المتكورين في أحد اركانها . ولكنه كان يسمع ضحكات معربدة، وغناء مكروباً، ووشوشة اصوات .
جاء الساقي بكأس العرق الفريدة، وقدحاً كاملاً من الماء، ومزة هزيلة .
ـ ممنون عمي .
أعجبته عمي كثيراً فناداه بعد ان ابتعد خطوات وقدم له درهماً كبخشيش
ـ الله يطول عمرك، عمي!
تشجع ان يسأل :
ـ من هذوله هناك!
ـ جماعة، عمي!
ـ اعرف جماعة، قابل عصافير .

ـ مشتريه، عمي.

ـ زين تفتهم.

وملأ كاسه بالماء إلى الحافة. وأكل باقلات ثم رفع كاسه، وشرب جرعة، ولذعته الخمرة فتعبس، نظر فيما حوله. لم ير الساقي كيف شرب الخمرة. كان وحده في الغرفة. هذا احسن. ومدّ يده إلى الحمص، وقبض باصابعه قبضة صغيرة، والتهم الحبات المالحة الهشة. ثم اتكأ على ظهر الكرسي الخيزران، وشعر بارتياح لذيذ. وبعد الجرعة الثانية فكر «لطيف واحد يجي هنا يوميه، ويتونس.. شيفيد القهر والحسبة» واكتشف لذة الخمرة بسرعة «اشو لعد هواية يشربون عرك.. من هيچي!»

لمح شبحاً يتحرك في الغرفة الثانية ناهضاً من بين الجماعة، متهجاً إلى باب الغرفة. مال حسين برأسه ليخفي وجهه عنه. الا ان الرجل كان قصيراً، وابن الحولة طويل. طلع الرجل إلى الخارج. ورفع بنطلونه المتهدل، وتمخط، وصاح «يوسف!...» وجاء الساقي يركض. وتهامس الاثنان. ورأى الساقي يشير إلى حجرة. والرجل يلتفت وراءه، ثم يسير بمشيته المنتفخة.

بعد قليل تحرك شبح آخر من الحجرة. وشرب حسين جرعة أخرى للتشجيع. كان شبح امرأة. وتلمس حسين صحن الباقلاء وعيناه معلقتان بالشبح. خرجت امرأة بدينة استقبلها الساقي وهمس لها بشيء. «معلوم جنابك!.....» قال حسين لنفسه، وهزّ رأسه مبتسماً. وفكر «سكر ونسوان» اكو أحسن منها!.. ويمكن بلاش!.. اشقياثية!» كان يحس بالسكين يوخز بطنه، فرفعه قليلاً إلى صدره. وجاء الخدر النملي من رجليه مصحوباً بنشوة رخوة في مفاصله ورأسه وفكر «يمكن آني هم أصير هيچي!.. بس خلي أظفره!.. اشكبري أصير! اقتل بن الحولة، اشقياء العوينه والمربعة وسكلات الخشب! اشقياء صبابيغ الآل والصدرية وعكَد الجاموس!.. اشقياء نص بغداد... وكل شي يصير بلاش. اخش للسينمات بلاش، للملاهي بلاش، للمطاعم بلاش، للاوتيلات بلاش... خاوه! ويكَدر واحد يحچي؟.. لعد اسچينه شنو شغلها؟ محراث مال تنور؟.. ياتنور هذا؟ ظل تنور؟.. ظل شي بالدنيا غير آني والسچينه؟ تماضر وراحت، صاحب وراح، حوش وراح... وآني؟... هم أروح.. لا على بختك!» وضرب على المائدة.

في الاسفل رأى ثلاثة رجال صعدوا الدرج في كبكبة. وخرج الساقي لهم، وأشار إلى الغرفة التي يجلس فيها حسين. واتجهوا خطوتين، ثم عادوا وتحدثوا إلى الساقي، واتجهوا إلى الغرفة الثانية وقال حسين: «يمكن هاي الحجرة بارده.. يمكن ذيچي أحسن.. للاشقيائية.. وآني اشوكت اصير اشقياء؟... اصطبر!»

جاء الساقي دون ان يدعوه وقال:

ـ تؤمر شي عمي؟

ـ بنات!

ـ شكو منها؟.. اذا عندك فلوس

ـ لا، جيبلي نص ربع عرگ هسه!

وقبل ان يجتاز الساقي العتبة ناداه حسين وقدم له درهماً.

ـ تشكر، عمي.

ـ روح، اشتعل عمك الاصلي.

نظر اليه الساقي شزراً ثم انحنى له انحناءة قصيرة. وانصرف. وفكر حسين «يعني شكلي ميخوف؟.. لو أشوفه ام الياي!»

صعد الدرج آخرون. أوف!.. راح يمتلي الحوش! ولكنه قال يسري عن نفسه «شكو منها؟ مو اليوم باچر!.. المهم أظفره فد يوم!»

جلس القادمون الجدد إلى مائدة وراء ظهره. وأحس انه مقيد تماماً. جاء الساقي بالعرق، ومزة أكثر. ووضعها على المائدة صامتاً.

خرجت المرأة البدينة من الحجرة، وهبطت الدرج بقبقاب رنّ في اذنه باغراء. وبعد دقائق خرج الرجل المنفوخ، وعاد إلى الجماعة وسمع حسين صوت هبدة.. ربما هي صوت كرسي يسقط هناك في الحجرة التالية. تحركت الاشباح وحدثت وشوشة. ثم نهض شبح طويل، واقترب من الشباك. وأطل من الباب.

كان ابن الحولة بعينه.

سار مترنحاً عبر الممر الضيق متكئاً على الدرابزين منحنياً عليه. كان أكثر من نصفه خارج الدرابزين.

ونادى بصوت خدر:

ـ لچ، ماري!

ولم تجب ماري، فعاد يناديها. كان سكران تماماً وجاء الرجل المنتفخ،

فأمسكه من يده يريد أن يدخله إلى الغرفة، فسحب ابن الحولة يده، فخفقت في الهواء مثل جناح طائر.

وقال حسين لنفسه «يمكن ما راح يخلوه وحده اليوم... سكران، غادي بخته!»

استطاع الرجل ان يعيد ابن الحولة إلى الحجرة. وشعر حسين بفرح غريب. ونظر إلى الزجاجة، وهم أن يشرب ثم أحجم. وقال معتزاً بصحوه «أخاف آني هم اسكر؟ اطوطح!» ولمس الزجاجة بتوجس، وصب منها قدراً ضئيلاً، وملأ القدح كله بالماء. «هذا عن العين!» قال لنفسه «حتى ليگولون يخاف من العرگ.. من أكبر واحد ما خاف» وشعر بنوبة شجاعة طاغية تغلي في اعماقه «اليوم ما جوز الا اقتله!.. هذا شنو المخنث؟.. يگول عليّ مخنث.. أنعل ابوه لابو شرفه.. آني مخنث؟»

رأى في الحوش امرأة اخرى غير المرأة السمينة. فتاة نحيلة هيفاء ذات شعر لامع مصقول. وقال لنفسه «هاي تسوه!» قالها بصوت خافت ولكنه مسموع والتفت إلى المائدة وراءه باسماً. ولم يجد احداً ينظر اليه. وأعتدل وقال بلا صوت «هاي تصير إلى اذا قتلته لمحمود.. هاي بمكان تماضر..» وتذكر الفتاة التي لفت له الثوب في اورزدباك، وتذكر بسمة الاستلطاف في عينيها. وقال «يمكن لو ما مستعجل چان حاچيتها.. يمكن چان قبلت تصادقني... خليها!.. اروح عليها فد يوم... وفد يوم أروح على نشمية، وأجر عليها السچينة.. هي.. كلكم غنم... بس خلي اجر السچينة على محمود أول مرة، خلي أطبره. اخذ حيف صاحب منه.. يمكن من يعرف صاحب وهو بگبره يفرح.. الميتين كل شي يعرفون.. زين ابويه اشلون عرف لما بعت الحوش وجاني بالحلم أوله البارحه؟.. الميتين يعرفون كل شي.. يمكن الله يعلم هسه صاحب د يعاين عليّ اشلون دا اشرب العرگ.. ابو مهدي آني دا اشرب على مودك. عن اذنك. گلت لك فد مرة ما راح اشرب.. هاي أول مرة. وعلى مودك حتى اتشجع وانتقم لك من الاغبر الغدار، من ابن الحولة، أبن العورة، ابن الگحبة، ما خليه سايب.. مثل ما قتلك اقتله!»

تناول جرعة من قدحه، وأكل من المزة الجديدة. كان يحس بالجوع. ولكن الساقي غير موجود. وسمع الذين وراءه يتحدثون عن الريسز... شلال طلع سبعة

گاصر. . . حصان الوصي. وكان يسمع صوت القبقاب في الحوش. أطل فرأى السمينة تتبختر، ووراءها البتاها تصعدان وتنزلان. وشهاه ذلك بجرعة. وبدا رأسه يئز. ولأول مرة اشتهى ان يدخن سيكارة. التفت ورأى الاربعة وراءه يدخنون.

ـ بله. . . ممكن آخذ فد جيكاره؟

ـ تفضل ـ قال احدهم وحدجه الآخر بنظرة نارية.

وفكر حسين وهو يعود إلى مكانه «لازم آني سكران. . الـويش عاين عليّ؟ . . . ما عاجبه؟ . . . » وتناول مصات متوالية من السيكارة، بعد أن وضعها بين ابهامه وسبابته. ومن خلال الدخان رأى القامة الطويلة على الدرابزين مرة أخرى. تحركت القامة نحو الدرج متمايلة. «لازم رايح على ماري! ـ قال حسين لنفسه ـ ما قبلت تجي راح عليها. لازم سچينته مو هلگد حادة. . لو سكران كلش. . والسكران كلش ميخوف. . خرگه. . أكو واحد يخاف من الخرگة؟» وانتظر ان يخرج الرجل الآخر ليعود بمحمود. ولكنه لم يخرج. وجاء الساقي بمزة جديدة. ولما وضعها على المائدة سأله حسين:

ـ وين المبولة؟

ـ جوه الدرج

ورأى الساقي يحدجه بنظرة مريبة. فقال لنفسه «خاف انهزم وما ادفع الحساب!» وناداه. وقدم له نصف دينار. وقال:

ـ اخذ حسابك!

كان محمود بن الحولة في الحوش يجر ماري من يدها. فكانت تدفعه فيتمايل. . خرگة! وفلتت منه ماري وارتقت الدرج بخفة غزال سمين. وتركت بن الحولة وحده يتمايل وسط الحوش. كلما همّ برفع بصره تمايل.

تحرك ابن الحولة نحو الدرج بينما وصلت ماري إلى الطابق، ودخلت الحجرة الأخرى راكضة، وكان حسين يتوقع أن يصعد محمود أيضاً. ولكنه لم يصعد. تريث حسين دقائق أخرى. ثم نهض وغادر الغرفة. وجرّب ان يقبض على السكينة قبل ان يهبط الدرج. ثم توقع ان يراه تحت الدرج مباشرة. وقف لحظة يفكر ماذا يفعل لو رآه وجهاً إلى وجه «اسلّم عليه أو أخنزر بوجهه؟!» ثم قرر ان يقفز الدرجة الأخيرة بسرعة ويتجه نحو الباب كمن يهم بالخروج. وقفز وابتعد خطوات.

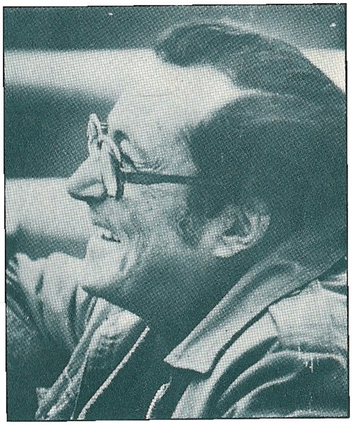
ثم تباطأ ولم يشعر بأية حركة خلفه. التفت قليلاً وعاين من تحت ذراعه التي تظاهر بانه يحك رأسه بها. واستطاع أن يرى البقعة القريبة من الدرج. لا أحد هناك. وتوقف. وقال «اشو بيا حجرة دخل. . يمكن حصل ذيچي البنية!» وشعر بانفراج. واتجه نحو المرحاض وبدأ يفك ازرار بنطلونه هادىء الاعصاب مردداً في سره «الملعون راح يفلت، الملعون فلت!» ودخل المرحاض وجفل وأرتد. رأى محموداً يتقيأ في المغسلة مديراً له ظهره، مستنداً بيده كلتيهما على الحائط. وامتلأ جسم حسين بالالاف من الابر الدبقة الحارة توخزه وتثير اعصابه. واسند جسمه على حائط المرحاض وقال لنفسه «اسويها؟. . اسويها؟. . .» ونظر فيما حوله. كان الحوش صامتاً كما كان. . واشعره ذلك برباطة جأش. . . . أسويها؟. . غادي بغل! ومن هنا تبدأ القصة. كان قلبه يدق بوحشية، ويداه ترتعشان. دفع بهما الحائط وضغط على اعصابه، ودخل المرحاض ثانية.

كان محمود ما يزال يتقيأ مديراً له ظهره. تقدم حسين خطوة. وكان يقبض على السكين وهو في حزامه. وأخرجه بحركة سريعة راعشة. وسحب الياي. وبحركة واحدة لا تدبير فيها رفع السكين وأنزله بقوة على الجسم المنكفي على الحائط في مكان ما اسفل الرقبة. وندت من محمود «آخ» قصيرة خافتة وحشية. ثم «هوه! . . .» طويلة خيّل إلى حسين أن الفندق كله قد سمعها. وكان ذلك كافياً لأن يملأه برعب هستيري فظ. وضرب ثانية باستماتة وهوس وشراسة. وحرك محمود ذراعه إلى الوراء فمرت فوق رأس حسين. وانزلقت الذراع الاخرى من الحائط إلى حوض الغسيل. وانكفأ ابن الحولة على المغسلة وفلت السكين من يد حسين، وتحرك باتجاه حركة جسم بن الحولة، فاندفع حسين نفسه بحركة متخبطة وأخرجه من الجسم، وضرب ضربته الثالثة على العنق. وملأ الدم كفه، وجعله يضرب كالمجنون في مكان واحد من الرقبة التي بدت هشة بضرباته. ولم يعبأ بقطرات الدم التي علقت في جفنيه حتى سقط محمود على الأرض المبللة القذرة. عند ذاك فقط افاق حسين من تلك النوبة الميكانيكية التي سيطرت عليه، وحولته إلى يد ضاربة فقط. والتفت صاكاً على اسنانه متوقعاً ان يرى اناساً سمرهم الخوف في اماكنهم وجعلهم ينظرون فقط. ولكنه لم ير الا مستطيل الباب وجانباً من ارض الحوش الفارغة. وملأه ذلك شجاعة. وقال في نفسه «اللي يدخل يطبر». ولم يدخل أحد. ومسح الدم من جفنيه فتلزج في يده وعينيه وغطى على بصره. اندفع

إلى المغسلة كالمجنون، وغسل الدم من عينيه. وزالت السحابة الحمراء. كان محمود يرسل نخيراً مثل خروف مذبوح وذلك ما ملأ حسين رعباً. وجعله يفكر بالهروب. وضع السكين في جيبه دون ان يطبقه وضمه في يده. وتقدم من باب المرحاض. كان الحوش صامتاً. وكان المجاز امامه. اجتاز الحوش بخطوات سريعة وتعثر عند باب الفندق. ولكنه نهض وعبرها.

«انتهت»

١٩٦٤



غائب طعمة فرمان

الأعمال الكاملة